الكتاب الحائز على جائزة أفضل كتاب دولي غير روائي في حفل
توزيع جوائز الشارقة الدولية للكتاب لعام 2021

قيادة محمد صلى الله عليه وسلم

إعادة بناء تاريخي

جويل هيوارد



www.shorok.com

جويل هيوارد

قيادة محمد إعادة بناء تاريخي

قيادة محمد ﷺ

إعادة بناء تاريخي

قيادة محمد ﷺ

إعادة بناء تاريخي

جويل هيوارد

الشروق
2024

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية 2023/7/3685

بيانات الفهرسة الاولية للكتاب:

عنوان الكتاب	قيادة محمد ﷺ: إعادة بناء تاريخي
تأليف:	هيوارد، جويل
ترجمة:	دعنه، منال اسعد نمر
بيانات النشر:	عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2023
رقم التصنيف	239.62
الواصفات:	/محمد ﷺ// القيادة// الشخصية// السيرة النبوية//التاريخ الاسلامي
الطبعة:	الطبعة الاولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفة ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-00-900-7

قيادة محمد ﷺ: إعادة بناء تاريخي

تأليف: جويل هيوارد، ترجمة: منال دعنه

الطبعة العربية الاولى: الاصدار الاول 2024

الإخرج الداخلي: دائرة الإنتاج / دار الشروق للنشر والتوزيع

دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان، الأردن / رام الله، فلسطين
Email: shorokpub@gmail.com
shorokpr@palnet.com
www.shorok.com

دار الشروق للنشر والتوزيع

مجمع المتحدة للتأمين، شارع الملك حسين، وسط البلد

هاتف: 4618190 / 4618191

ص.ب: 926463 الرمز البريدي: 11118 عمان - الأردن

دار الشروق للنشر والتوزيع

عمارة أزمغنا، نهاية شارع مستشفى رام الله الحكومي، المصيون، رام الله

هاتف: 2975633/ 2991614/ 2975632 فاكس/ 02/2965319

المؤلف في سطور

البروفيسور جويل هيوارد عالم ومؤلف نيوزيلندي / بريطاني يعمل حالياً كأستاذ الفكر الاستراتيجي في أكاديمية ربدان في الإمارات العربية المتحدة. ووصفته صحيفة الخليج اليومية بأنه «مرجع عالمي في الصراع الدولي والاستراتيجية الدولية». ووصفت صحيفة ناشيونال هيوارد بأنه «بارز» و»مؤرخ متميز في الحروب والاستراتيجيات العسكرية». كانت تعليقات كيركس أنه «بلا شك أحد أبرز المفكرين الإسلاميين في الأوساط الأكاديمية». ويعتبر أحد «الخمسمائة مسلم الأكثر تأثيراً في العالم»، مع إدراجه في طبعة عام 2023 من الـ خمسمائة مسلم مُشيرة إلى أنه «ينسج بين المعرفة والمنهجيات الإسلامية الكلاسيكية والأسلوب التاريخي الغربي ذات المصدر النقدي لخلق شعورٍ مبتكر ومعقول بعناية للقضايا التاريخية المعقدة التي لا تزال مهمة في عالم اليوم «. مع لقب شيخ، حاز هيوارد على الإجازة في كل من العقيدة (اللاهوت الإسلامي) والسيرة (السيرة النبوية) وغيرها من العلوم الإسلامية. شغل مناصب قيادية أكاديمية مختلفة، بما في ذلك مدير معهد الأمن الدولي والمدني في جامعة خليفة (الإمارات العربية المتحدة)، ورئيس قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية (أيضاً في جامعة خليفة)، ورئيس دراسات القوة الجوية في كلية كينجز في لندن، وعميد كلية القوات الجوية الملكية (كلاهما في المملكة المتحدة).

وهو مؤلف أو محرر لثمانية عشر كتاباً ومجلة رئيسية وعشرات المقالات التي تمت مراجعتها من قبل الأقران، وخاصة في مجالات الدراسات الاستراتيجية، والأخلاقيات الإسلامية للحرب والصراع، والتاريخ الإسلامي والغربي. وتشمل كتبه الحديثة الحرب في القرآن الكريم (2012)، والحرب خدعة: تحليل الحديث المثير للجدل حول أخلاقيات الخداع العسكري (2017)، الحصانة المدنية في الفكر الاستراتيجي الإسلامي التأسيسي: تحقيق تاريخي (2019)، وقيادة محمد: إعادة بناء تاريخي. فاز هذا الأخير بجائزة مرموقة عن «أفضل كتاب غير روائي دولي» في حفل توزيع جوائز الشارقة الدولية للكتاب لعام 2021. أحدث كتاب له هو النبي المحارب: محمد والحرب (2022)، الذي تلقى إشادة واسعة النطاق من قبل المراجعين.

قدم البروفيسور هيوارد المشورة الاستراتيجية للقادة السياسيين والعسكريين في العديد من البلدان، وقدم المشورة السياسية لشيوخ بارزين، وكان مدرساً لصاحب السمو الملكي الأمير ويليام أمير ويلز، الوريث الشرعي للعرش البريطاني. في عام 2011، انتخب زميلاً في الجمعية الملكية للفنون، وفي عام 2012 انتخب زميلاً في الجمعية التاريخية الملكية. في عام 2016، حصل على لقب «أفضل أستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية» في حفل توزيع جوائز القيادة التربوية في الشرق الأوسط. والبروفيسور هيوارد ناشط أيضا في الفنون الأدبية، وقد نشر ثلاثة كتب روائية وأربعة مجموعات في الشعر الإسلامي.

فهرس المحتويات

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. آل عمران (159)

«إِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ»

«تَوَاضَعُوا, حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ, وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»

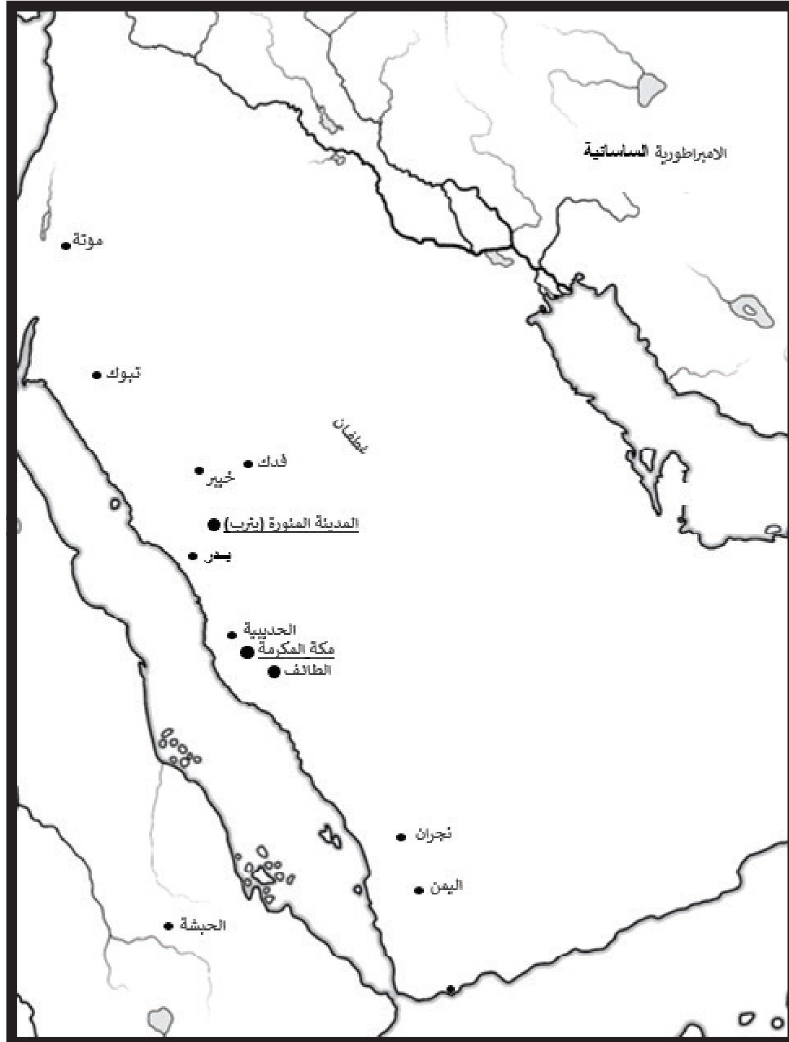
«وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»

«انصحوني أيها الناس»

محمد قبل معركة بدر

«حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا»
«يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ قَالَ «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»"
"فَإِنَّ الإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ»

خريطة شبه الجزيرة العربية في القرن السابع



المقدمة

دائمـاً مـا يكـون تقديـر فعاليّـة القيـادة لأي شـخصية تاريخيـة مسـألة ذات إشـكالية وذلـك لسـببين. أولاً، لأنـه -وعـلى الأرجـح -أن تكـون سـجلات أفعـال تلـك الشـخصية قـد كُتبـت مـن قبـل مسـاعدين أو مـن قبـل أعـداء، وبالتـالي فهـي مُشـبعة بالتحيـز والتشـويه، وثانيـاً، مـن الصعـب تحديـد مـا إذا كان مـن المعقـول أن نعـزو النجاحـات أو الإخفاقـات إلى صفـات القائـد أو أفعالـه، أو مـا إذا كانـت عوامـل أخـرى لا تُعـد ولا تُحـصى وتصرفـات أشـخاص آخريـن قـد لعبـت أدواراً هامّـة في الطريقـة التـي جـرت بهـا الأحـداث.

إن فهـم سـمات القيـادة لـدى القـادة العسـكريين أمـرٌ صعـب بشـكل خـاص وذلـك بسـبب الـولاءات العظيمـة والشـغف والكراهيـة التـي تظهـر خـلال الحـروب وبعدهـا. القـادة الوحيـدون الذيـن يصعـب تحليلهـم أكثـر مـن القـادة العسـكريين هـم القديسـون والأنبيـاء. خُـذ عـلى سـبيل المثـال الحاخـام اليهـودي المتجـول المعـروف بيسـوع. حتـى أن وصـف مهنتـه وعرقـه بهـذه الطريقـة الدنيويـة والصحيحـة مـن الناحيـة الواقعيـة قـد يؤجـج المشـاعر لـدى المسـيحي الـذي لا يعتـبره إلهيـاً فحسـب بـل مثاليًـا.

تؤطـر مثـل هـذه التحديـات المعرفيـة فداحـة مهمـة محاولـة قـول شيء موضوعـي ذي مغـزى ودقيـق عـن قيـادة فـرد مثـل النبـي الإسـلامي محمـد. فقـد كان قائـداً عسـكرياً منخرطـاً في الحـروب التـي أسسـت قواعـد سـلطة جديـدة، ونبيـاً أطلـق طرقـاً أصليـة لفهـم ديـن التوحيـد وعلاقتـه بالسياسـة.

يواجـه العلمـاء الذيـن يتعرضـون لحيـاة النبـي محمـد في الحـال بالحـرج لأن أقـدم المصـادر المتوفـرة والتـي تـؤرخ حياتـه تعـود إلى مائـة وأربعـين عامـاً بعـد وفاتـه في عـام 632 ميـلادي، حيـث لا تتوفـر أيّ مصـادر تقريبـاً حتـى ولـو كانـت ذات طبيعـة مجـزأة تعـود إلى القـرن «الصامـت» الأول أو أكثـر. إذا كتـب أعـداؤه أو حتـى المراقبـون المعـاصرون المحايـدون سـجلات عـن أفعالـه، فإنهـا لـم تـدم باسـتثناء بعـض الأسـطر شـبه المتماسـكة للمؤرخـين المسـيحيين باليونانيـة والسـيريانية والأرمنيـة والتـي تتعـارض في الواقـع مـع الروايـة الإسـلامية التقليديـة في بعـض الأماكـن.

ومـن الإشـكالية أيضـاً أن المصـادر الوحيـدة التـي كتبـت في القرنـين الثامـن والتاسـع الميلاديـين بتفاصيـل كافيـة لدعـم بنـاء الروايـات قـد تـم كتابتهـا مـن قبـل مسـاعدين، والذيـن مـن المفـترض أنهـم اسـتندوا إلى مصـادر سـابقة والتـي هـي مفقـودة الآن أو اسـتنادهم عـلى تقاليـد شـفهية. ممـا يزيـد مـن احتمـال أن تكـون المصـادر مشـبعة بالتحيـز وربمـا تشـمل التشـويه أو التلفيـق الـذي أضيف لخلـق أو عـلى الأقـل لتعزيـز وجهـة نظـر واحـدة مرغوبـة.

لا ينبغـي أن يُقـرأ هـذا عـلى أنـه تشـكيكٌ في الصفـة التاريخيـة لــ محمـد. بـل إنّ الأمـر عـلى العكـس مـن ذلـك، حيـث يتضـح مـن السـجلات الأثريـة والنقديـة والوثائقيـة التـي تُشـير إلى أن الجيـوش العربيـة انتـشرت مـن الجزيـرة العربيـة في القـرن السـابع الميـلادي، وشـنت حروبـاً كبـيرة عـلى المناطـق المجـاورة، وأسسـت معايـير ثقافيـة جديـدة ونظـام حكـم قـوي باسـم النبـي محمـد المتـوفى حديثـاً. ومـن هنـا يمكـن للمـرء أن يسـتنتج، بـأن النبـي محمـد قـد عـاش بالفعـل وأن ديـن الإسـلام الجديـد قـد نمـى مـن خـلال تعاليمـه.

لا ينبغـي عـلى العلمـاء تجنـب قـول شيء هـام عـن حيـاة النبـي محمـد بسـبب احتماليـة وجـود النزعـة الذاتيـة أو التحيـز في المصـادر وحقيقـة أن تاريـخ هـذه المصـدار يعـود للقرنـين الثامـن والتاسـع. وإلا فـإن عليهـم التخـلي عـن محاولـة الكتابـة عـن الاسـكندر الأكـبر، ويوليـوس قيـصر، ويسـوع المسـيح، والعديـد مـن الشـخصيات التاريخيـة الأخـرى. وبنفـس الإشـكالية فـإن المصـادر الرئيسـية لحياتهـم مؤرخـة بعـد الأحـداث بقـرون، ولا تقـل احتمـالاً مـن وجـود النزعـة الذاتيـة فيهـا والتحيـز. فعـلى سـبيل المثـال، فـإن أقـرب مصـدر يونانـي موجـود لحيـاة الاسـكندر هـو كتـاب «مكتبـة التاريـخ» للمؤلـف ديـودوروس سـيكولوس لأكثـر مـن 265 عامـاً بعـد وفـاة الاسـكندر في عـام 323 قبـل الميـلاد. والأسـوأ مـن هـذه الفجـوة التـي تبلـغ 265 عامـاً هـو أن أقـدم نسـخة موجـودة مـن المخطوطة للقسـم ذي الصلـة مـن الكتـاب السـابع عـشر يعـود تاريخهـا إلى القـرن الخامـس عـشر الميـلادي، بعـد أكثـر مـن 1500 عـام[2].

حتـى أفضـل الكتـب الحديثـة القليلـة التـي تثـير الدهشـة حـول قيـادة محمـد هـي- ومـن منظـور دراسـات القيـادة- قديمـة الطـراز إلى حـدٍ مـا حيـث أنهـا تُركـز وبشـكلٍ شـبه كامـل عـلى الخصائـص والسـمات [3]. يقولـون بأنـه كان تقيـاً

وصادقـاً ورحيمـاً ومتسـامحاً وصبـوراً وعـادلاً وحاسـماً وشـجاعاً، تلـك السـمات التـي جعلتـه قائـداً عظيمـاً. هـذه الكتـب تسـتحق القـراءة، إلا أنـه، وباحـترام المؤلفـين، فـإن منطقهـم يعتمـد عـلى حجتـين اسـتنتاجيتين خاطئتـين وهمـا: أولاً: لأن مـوروث حيـاة محمـد هـو ديـن عالمـيّ مزدهـر، ممـا يتوجـب علينـا أن نعتـبره قائـداً ناجحـاً، وثانيـاً، لأنـه كان رجـلاً جيـداً جـداً لمـا تقـدم مـن تلـك السـمات المذكـورة أعـلاه، وكان قائـداً ناجحـاً، فيجـب علينـا أن نسـتنتج بأنـه كان قائـداً ناجحـاً لأنـه كان رجـلاً جيـداً جـداً.

يمكننـا رفـض الحجـة الأولى عـلى أسـاس أنّ عـدم نجـاح يسـوع الدنيـوي يثبـت أن المـوروث الدينـي الدائـم ليـس معيـاراً سـليماً للحكـم عـلى قيـادة النبـي. يُقـال بـأن يسـوع مـات ميتـة عنيفـة بعـد خدمـة قصـيرة الأمـد ضمنـت لـه في حياتـه عـدداً قليـلاً جـداً مـن الاتبـاع ودون سـلطة زمانيـة، ورغـم ذلـك فـإن أكثـر مـن مليـاري انسـان يزعمـون أنهـم يتبعـون تعاليمـه. ومـن هنـا يتبقـى لنـا الحجـة الثانيـة. قـد نتمكـن مـن النظـر إلى استنتاجاتها بهـذه الطريقـة:

جميع القادة الناجحين رجال أو نساء صالحين (الفرضية الأولى).

- كان محمد رجلاً صالحاً (الفرضية الثانية).
- كان محمد قائداً ناجحاً (الفرضية الثالثة).
- ولذلك كان محمداً قائداً ناجحاً لأنه كان رجلاً صالحاً (الاستنتاج)

هنـاك فرضيـة واحدة فقـط تحتـاج إلى أن تكـون غير صحيحـة ليكون الاسـتنتاج غـير صحيـح. الفرضيـة الأولى بحـد ذاتهـا غـير مسـتدامة. يكشـف التاريـخ أن العديـد مـن الأشـخاص المعيبـين أو الفاسـدين أو القسـاة المتوحشـين بمـا في ذلـك (بإجمـاعٍ تاريخـي) يوليـوس قيـصر، وجنيكـز خـان، ونابليـون، وسـتالين ومـاو تـسي تونـغ، كانـوا قـادة ناجحـين جـداً. الفرضيـة الثانيـة مسـتدامة، عـلى الرغـم مـن مناقشـة بعـض النقـاد لهـا. الفرضيـة الثالثـة مسـتدامة بنفـس القـدر وبـدون نقـاش. بنـاءً عـلى ذلـك لا يمكـن التوصـل إلى الاسـتنتاج نفسـه بسـبب المغالطـة المنطقيـة المتأصلـة في الفرضيـة الأولى. إذا أزلنـا الفرضيـة الأولى بالكامـل، فلـن يتبقـى لنـا سـوى الارتبـاط وليـس السـببية. بمعنـى أنـه مـن الممكـن أن يكـون صحيحـاً بـأن الشـخص الجيـد هـو قائـد جيـد. لكـن مـن الممكـن أن يكون

صحيحاً بنفس القدر أن الشخص السيء هو قائد جيد. وعلى نحوٍ مماثل، قد يكون صحيحاً بأن الشخص الصالح قائد سيء، وبشكلٍ مماثل يكون الشخص السيء هو قائدٌ سيء. ومن هنا فإن الصلاح الأخلاقي الذي يتمتع به القائد لا يتسبب بالضرورة في إحداث فعاليّة القيادة، كما يتبين لنا من اختبار الفرضية الأولى الفاشلة.

تتجنب هذه الدراسة استخدام السمات واللجوء إلى التقييم الأخلاقي كقاعدة أساسية في تشييد نجاح محمد في القيادة. وبدلاً من ذلك، فإنها تحاول تحليل أفكار النبي محمد القيادية والسلوك والأساليب المرتبطة بها من أجل التحقق فيما إذا كانت حياته المبهرة قادرة على توفير رؤى جوهرية وهادفة حول فعاليّة قيادته الإستراتيجية. وللقيام بذلك، لا بد من استخلاص المعلومات من مجموعتين من الأدلة التي يرجع تاريخها إلى القرن التاسع الميلادي: المجموعات السنيّة الست الرئيسية من الأحاديث «التقارير» أو «التقاليد»، أقوال وممارسات محمد المسجلة، وأقدم كتب السيرة الموجودة (السيرة النبوية)، لا سيما كتاب السيرة النبوية لإبن هشام، وكتاب المغازي للواقدي، وكتاب الطبقات الكبير لإبن سعد [4]. قد يكون من الممكن استخدام هذه المصادر لتقديم دراسة حالة لحياة محمد من شأنها إزالة الغموض عن بعض العمليات المكونة للقيادة الاستراتيجية.

هذا التحليل هو عمل تاريخيّ وليس فقهيّ. والمؤلف هو مؤرخ وعالم في الدراسات الاستراتيجية، وليس بعالم دين أو فقيه. وباستخدام المنهجية المتبعة في التخصص التاريخي، تُحاول هذه الدراسة إعادة بناء أحداث القرن السابع من خلال تفسير المصادر الأولى وشرحها وتقييمها، كل ذلك مع ابقاء قضايا الحقيقة والموضوعية والانحياز نصب أعيننا. فهي لا تحاول مواجهة الفقه كما تطور لاحقاً بل الوصول إلى ما هو أبعد منه، أو على نحوٍ أكثر دقة وراءه في الزمن، إلى الأحداث التاريخية التي وقعت في الجزيرة العربية في القرن السابع. وكمساهمة متواضعة في أدب السيرة والدراسات الاستراتيجية والقيادية، يحاول التحليل الموضوعي بدلا من وصف بعض

الممارســات المحــددة زمنيــاً مــن خــلال الســنوات الثــلاث والعشريــن التــي قضاهــا محمــد كقائــد*.

***

* ملاحظـة: في الحديـث يجـد المـرء بعـد اسـم محمـد أو لقبـه عبـارة -صـلى اللـه عليـه وسـلم- (ممثلـة بالخـط العربـي). لـم يتـم اسـتخدام هـذا الخـط في جميـع أنحـاء هـذا الكتـاب إلا في الاقتباسـات المبـاشرة مـن الأحاديـث

القيادة الدينية

لعـل نقطـة الانطـلاق المثاليـة تتمثـل في دراسـةٍ للكيفيـة التـي فهـم بهـا محمـد القيـادة، لأنّ هـذا مـن شـأنه أن يُؤطـر الطريقـة التـي يمكـن مـن خلالهـا تحليـل مدخلاتــه ونتائجــه بشــكلٍ منطقــي. ويســتطيع العلمــاء أن يجـدوا أمثلــة لفهمــه وممارســاته في الحديـث. في القرنــين الثامــن والتاســع الميـلادي، تحديـداً في العــراق وبـلاد فــارس، بـدأ بعـض العلمـاء بجمـع وتقييـم وتنظيـم ونـشر مجموعـات مـن الأقــوال والأفعــال المنســوبة إلى محمــد مــن خــلال سلســلة مــن الــرواة تعــود إلى الصحابـة الذيـن قيـل أنهـم سـمعوا أو شـاهدوا تلـك الأقـوال أو الأفعـال. وعـلى الرغـم مـن مـرور مـا لا يقـل عـن قـرن ونصـف القـرن منـذ وفـاة النبـي، وعـلى مرونــة الذاكــرة البشريــة ونقصهــا حتــى في المجتمعــات ذات التقاليــد الشــفهية القويـة، إلا أن مجموعـات ضخمـة مـن تلـك الروايـات بـدأت تُشـكل الأسـاس للكثير مـن الفقـة الإسـلامي والفلسـفة. وفي الواقـع، يُعتـبر الحديـث في الشريعـة الإسـلامية المصـدر الثانـي الأكثـر أهميـة وموثوقيـة الـذي لا يفوقـه إلا القـرآن الكريـم.

لا يمكـن للمـرء أن يقبـل كل حديـث أو حتـى أغلبيـة الأحاديـث باعتبارهـا موثوقة بالكامـل، بمعنـى تدوينـاً حرفيـاً تامـاً لمـا قالـه أو فعلـه محمـد قبـل 1400 عـام، ولـم يقـل أيٌّ مـن العلمـاء المسـلمين أنـه ينبغـي قبولهـا عـلى هـذا النحـو. ويُجمـع العلمــاء عــلى ضرورة النظـر بعنايـة في كل حديـث اعتمـاداً عـلى اسـناده (سلسـلة الـرواة) والمتـن (اتسـاق مضمونـة وجـدواه). ومجـرد وجـود سلسـلة سـليمة لـن يجعـل الحديـث غـير المتسـق أو غـير المعقـول موثوقًـا بـه ؛ ولـن يكـون هنـاك بيـان متسـق أو معقـول يفتقـر إلى سلسـلة سـليمة.

كلاهمـا بحاجـة لأن يكـون موجـوداً، وهـذا الكتـاب يعتمـد فقـط عـلى الأحاديـث النبويـة التـي تفـي بهـذا المعيـار وتُعتـبر موثوقـة بإجمـاع العلمـاء. فهـو لا يعتمـد عـلى أي حديـث يعتـبره المؤلـف أو غـيره مـن العلمـاء مُخادعـاً أو غـير موثوقـاً بـه عـلى نحـوٍ غـير قابـل للاسـتخدام، عـلى الرغـم مـن أن هـذا يعنـي اسـتبعاد العديد مـن الأحاديـث عـن قيـادة محمـد والتـي أصبحـت شـائعة الآن بـين المسـلمين (مثـل: «سـيد القـوم خادمهـم»).

بصفتـه رجـل عميـق الإيمـان، تبنـى محمـد القيـادة وعلمهـا فهمـاً متمركـزاً حـول العقيـدة. أي أنـه يؤمـن أن اللـه في نهايـة المطـاف يختـار ويضـع جميـع

القـادة في أماكنهـم، بغـض النظـر عـن الإجـراء المحـدد لتعيـين الشـخص لـدور قيـادي داخـل المجتمـع أو الجيـش.

كمـا اعتقـد محمـد أيضـاً بـأن المسـؤولية الرئيسـية للقائـد هـي أن يعمل كـراعٍ. تؤكـد الأحاديـث الموثوقـة أنـه رأى التفاعـلات البشريـة مـن حيـث المسـؤوليات الممنوحـة مـن اللـه لتوفـير السـلامة والتوجيـه والرعايـة، في سـنن أبـي داود، عـلى سـبيل المثـال، نجـد هـذا الحديـث المنـير:

«روى عبـد اللـه بـن عمـر عـن رسـول اللـه أنـه قـال: أَلَا كُلُّكُـمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُـمْ مَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ، فَالْأَمِـيرُ الَّـذِي عَـلَى النَّـاسِ رَاعٍ، وَهُـوَ مَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ، وَالرَّجُـلُ رَاعٍ عَـلَى أَهْـلِ بَيْتِـهِ، وَهُـوَ مَسْـئُولٌ عَنْهُـمْ، وَالْمَـرْأَةُ رَاعِيَـةٌ عَـلَى بَيْـتِ بَعْلِهَـا وَوَلَـدِهِ، وَهِـيَ مَسْـئُولَةٌ عَنْهُـمْ، وَالْعَبْـدُ رَاعٍ عَـلَى مَـالِ سَـيِّدِهِ وَهُـوَ مَسْـئُولٌ عَنْـهُ، أَلَا فَكُلُّكُـمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُـمْ مَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ».[5]

نحـن نعلـم أن كلمـة «مسـؤول» تعنـي باللغـة العربيـة الفصحـى تقديم حسـاب عـن سـلوك الشـخص، لأن القـرآن فيـه هـذه الآيـة: ﴿وَلَا تَقْرَبُـواْ مَـالَ ٱلْيَتِيـمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَـنُ حَتَّىٰ يَبْلُـغَ أَشُـدَّهُۥ وَأَوْفُـواْ بِٱلْعَهْـدِ إِنَّ ٱلْعَهْـدَ كَانَ مَسْـُٔـولًا﴾[6] وهذه الأية:

﴿وَلَا تَقْـفُ مَـا لَيْـسَ لَـكَ بِـهِۦ عِلْـمٌ إِنَّ ٱلسَّـمْعَ وَٱلْبَصَـرَ وَٱلْفُـؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِـكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔـولًا﴾[7]

يكشـف هـذا أن القائـد هـو راعٍ مسـؤولٌ ومحاسـبٌ عـن سـلامة القطيـع وحمايتـه، وهـو موقـف تُعـززه تصريحـات أخـرى مـن تصريحـات محمـد:

رأى ابـن عمـر راعيـاً مـع بعـض الأغنـام وقـد وضعـت في مـكان سيء للغايـة رغـم أنـه رأى أن هنـاك مكانًـا أفضـل. فقـال لـه ويـلٌ لـك أيهـا الراعـي. انقلهـا! فقـد سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول: (كل راعٍ مسـؤولٌ عـن رعيتـه).[8]

لـم تكـن الصـورة التوارتيـة المجازيـة المتعلقـة بالرعـي مـن قبيـل الصدفـة. اعتقـد محمـد أن نبوءتـه هـي في الجوهـر نفـس الدعـوة التـي أُعطيـت لـ إبراهيـم ومـوسى وداوود وعيـسى وغيرهـم مـن الأنبيـاء، ورأى رعايـة القطعـان عمـلاً مشـتركاً لجميـع الأنبيـاء:

فعـن جابـر بـن عبـد اللـه: كُنَّـا مـع رَسـولِ اللَّـهِ ﷺ نَجْنِـي الكَبَـاثَ، وإنَّ رَسـولَ اللَّـهِ ﷺ قـالَ: علَيْكُـم بالأسْـوَدِ منـه؛ فإنَّـه أَطْيَبُـهُ. قالـوا: أَكُنْـتَ تَرْعَـى الغَنَـمَ؟ قـالَ: وهـلْ مِـن نَبِـيٍّ إلَّا وقـدْ رَعَاهَـا؟![9].

قد يميل المرء إلى قراءة الحديث بطريقة مجازيّة بحتة، وهو أن محمد كان يقول أن جميع الأنبياء كانوا مثل الرعاة بسبب عبء مسؤولياتهم اتجاه الآخرين. بمعنى أنهم يحرسون ويحمون رعاياهم. ولا شك في أن هذا المعنى متضمن في بيان محمد. ومع ذلك، لدينا أحاديث أخرى تكشف أنه قصد أيضاً أنه هو وغيره من الأنبياء كانوا حرفيّاً يرعون الماشية:

قال عبدة بن حزن : «افتخر أصحاب الإبل وأصحاب الغنم عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بُعِثَ دَاوُدُ، وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبُعِثَ مُوسَى، وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبُعِثْتُ أَنَا، وَأَنَا أَرْعَى غَنَمًا لِأَهْلِي بِجِيَادَ" [10]

وبالمثل

عن أبي هريرة عن الرسول أنه قال «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلاَّ رَعَى الْغَنَمَ" فَقَالَ أَصْحَابُهُ وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: " نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَىَ قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ». [11]

وفي قوله ذلك أراد أن يوضح أن الله هيأ جميع الأنبياء للاضطلاع بأدوارٍ قيادية بتعليمهم أولاً رعاية الأغنام، وهي مسؤولية تنطوي على التفاني والهدوء والصبر العظيم. وبالتأكيد اعتقد أن طبيعة الرعي الهادئة والصبورة، بخلاف تربية الخيل والابل، تزيد من هدوء الراعي.

عن أبي هريرة أن رسول الله قال « رَأْسُ الْكُفْرِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، والفَخْرُ والخُيَلاءُ في أَهْلِ الخَيْلِ والإبِلِ والفَدَّادِينَ أهْلِ الوَبَرِ، والسَّكِينَةُ في أهْلِ الغَنَمِ»[12]

وعلى هذا فقد يفترض المرء أنه طالما أن الهدوء صفة مرغوبة في القائد، فإن محمداً كان ليُسر برؤية النساء في مناصب قيادية. ولكن يبدو أن الحديث الشريف يُشير- إذا ما قرئ بدون انتقاد- بأنّ محمد يعتقد أنه لا ينبغي للنساء في واقع الأمر أن يتقلدن أدوار القيادة السياسية.

قال أبو بكرة: «حفظني الله بشيء سمعته من رسولِ اللهِ لما هلك كِسرى [يعني: ملك الإمبراطورية الساسانية] قال: منِ استخْلفوا؟ قالوا بنتُهُ [من المفترض أن تعني الملكة بيران- دخت[13]] قال :لنْ يَفلحَ قومٌ ولَّوْا أمرَهُم امرأةً»[14].

وبما أنّ هذا التأكيد يتناقض مع الوصف الإيجابي لملكة سبأ في القرآن بأنها زعيمة قوية وحكيمة ومستقلة [15]، وأنه لا يُنظر إلى أبي بكرة على أنه راوٍ ثقة [16] لا يتفق العلماء على موثوقية الحديث ومدى امكانية تطبيقه. بالرغم من أن الفقهاء يستطيعون إثبات أن الله قد اختار أشكالاً معينة من

القيادة العسكرية والدينية التي يجب أن يتولاها الرجال- على سبيل المثال أئمة المساجد وجنرالات الجيوش [17]- لا يمكن للمرء ببساطة أن يدعي أن النساء مستبعدات من أدوار القيادة السياسية والمجتمعية.

ويكشف القرآن أن التعيين الالهي في الإسلام هو الأساس لكافّة القيادات، وأن الله يُعطي الأشخاص الذين يختارهم أدواراً قيادية، وأن هذا التعيين يُفسر كلاً من القادة الجيدين والسيئين. يتحدث القرآن عن إبراهيم ونسله النبوي، قائلاً:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[18]

وبالمثل يقول القرآن في سورة أخرى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[19].

من الواضح أن بعض القادة لم يتم تعيينهم لصلاحهم، ويُعطي القرآن أمثلة حول لفظ (إمام) الذي ينطبق حتى على المعارضين الأشرار للإسلام:

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾[20]

وبالمثل:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[21]

من الواضح أن العمل الأساسي المرتبط بكلمة «إمام» هو تقديم الارشاد، كما توضح أية أخرى باستخدام الكلمة للكتب المقدسة نفسها:

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبشُرْى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [22]

وهذا لا يعني أن أتباع الإسلام ملزمون بالامتثال لتوجيهات أي قائد. يقول القرآن أن «المؤمنين» يجب أن لا يطيعوا العصاة والكفار ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[23]، بل يجب عليهم أن يطيعوا القادة الصالحين أخلاقياً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[24]

****

فهم السلطة

والقـرآنُ واضـحٌ بـأنّ النـاسَ في المجتمـع المؤمـن مطالبـون بالانصيـاع ليس فقط لتوجيهـات النبـيّ، ولكـن أيضـاً لتوجيهـات القـادة بينهـم «وأُولي الأمـر منكـم». يُشـير حديـث إلى أنّ هـذه الآيـة تتعلـق في البدايـة بتعيـين محمـد لـ عبـد اللـه بـن حذافـة ابـن قيـس بـن عـدي لقيـادة كتيبـة في غـارة[25]. بعبـارة أخـرى، كان اللـه يقـول بـأن العديـد مـن الأشـخاص الذيـن عينهـم النبـي كقـادة يسـتحقون الطاعـة التامـة.

ظهـر الجـذر الثلاثـي لـ (أ م ر) 248 مـرة في القرآن، أكثرهـا شـيوعاً كان (166 مـرة) هـو الأسـم (أمـرْ) و (77 مـرة) عـلى شـكل فعل الأمـر (أمـرَ)، وكلاهما يشـير إلى «القيـادة» أو «الأمـر»[26]. وظهـر الجـذر الثلاثـي للكلمـة (ط و ع) 129 مـرة في القـرآن، أكثرهـا شـيوعاً (72 مـرة) عـلى شـكل الفعـل (أطـاعَ)، والـذي يعنـي ببسـاطة «الطاعـة». وبالتـالي يظهـر جليـاً أن القيـادة وفقـاً للقـرآن، تنطـوي عـلى العلاقـة بـين القـادة الذيـن منحهـم اللـه سـلطة القيـادة والنظـام، وبـين المنقاديـن ممـن يتوجـب عليهـم طاعـة هـؤلاء القـادة.

إن الوحـي القرآنـي واضـح بـأن سـلطة الأنبيـاء جـاءت مـن عنـد اللـه: «وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِـن رَّسُـولٍ إلا لِيُطَـاعَ بِـإِذْنِ اللَّـهِ»[27]. وقـد مُنـح عيـسى السـلطة بهـذه الطريقـة وكان يجـب أن يُطـاع. وهكـذا نجـد في سـورة آل عمـران:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[28]

وهـذا بالطبـع يعكـس مـا نجـده في العهـد الجديـد، الـذي يقتبـس تعليمـات عيـسى لأتباعـه، «ان كنتـم تحبوننـي فاحفظـوا وصايـاي»، وبسـؤاله، «لمـاذا تدعوننـي يـا رب يـا رب وانتـم لا تفعلـون مـا أقولـه؟»[29]. لا ينبغـي للمـرء أن يندهـش عندمـا يجـد عيـسى يطلـب الطاعـة. لأنهـا كانـت امتيـازاً مُنحـت للأنبيـاء العبرانيـين مـن قبلـه، كمـا تكشـف التـوارة: « أقيـم لهـم نبيـاً مـن وسـط إخوتهـم مثلـك، وأجعـل كلامـي في فمـه، فيكلمهـم بـكل مـا أوصيه بـه، ويكـون أن الإنسـان الـذي لا يسـمع لكلامـي الـذي يتكلـم بـه باسـمي أنـا أطالبـه»[30].

وبالمثـل فـإن القـرآن يسـاوي بشـكل مبـاشر بـين الطاعـة للنبـي محمـد وطاعة اللـه في قولـه: « مـن يُطـع الرسـول فقـد أطـاع اللـه»[31].

نجـد هـذا أيضـاً صريحـاً في الحديـث المقتبـس عـن محمـد «مـن أطاعَنِـي فقَـدْ أطـاعَ اللَّـهَ، ومَـن عَصانِـي فقَـدْ عَـصَى اللَّـهَ، ومَـن أطـاعَ أمِـيرِي فقَـدْ أطاعَنِـي، ومَـن عَـصَى أمِـيرِي فقَـدْ عَصانِـي»[32].

لذلـك يمكـن للمـرء أن يـرى أن النبـي في موقـع قيـادي فريـد مـن نوعـه. وحتـى أكثـر مـن ضابـط عسـكري كبـير في عالـم اليـوم –الـذي يمنحـه وضعـه الرسـمي ومنصبـه داخـل التسلسـل الهرمـي سـلطة هامـة ومبـاشرة عـلى أولئـك ممـن هـم تحـت قيادتـه، بالإضافـة إلى القـدرة بالـشروع في اتخـاذ التدابـير الرسـمية ضـد أي شـخص يُخالـف التعليمـات القانونيـة– يمكـن للنبـي أن يُطالـب بالطاعـة التامـة لأي أمـر، وباتخـاذ العقـاب الالهـي لأي شـخص قـد يعـصي. كمـا جـاء في القـرآن:
﴿وَمَـن يَعۡـصِ ٱللَّهَ وَرَسُـولَهُۥ وَيَتَعَـدَّ حُـدُودَهُۥ يُدۡخِلۡـهُ نَـارًا خَٰلِـدٗا فِيهَـا وَلَـهُۥ عَـذَابٞ مُّهِيـنٞ﴾[33].

لا يعنـي هـذا أنّ الأنبيـاء يُطاعـون دائمـاً. الأمـر الـذي كان في كثـيرٍ مـن الأحيـان سـبباً لحُـزن محمـد عندمـا كان يجـد نفسـه معصيـاً. فعـلى سـبيل المثـال: أثنـاء معركـة أُحـد في شـهر مـارس مـن عـام 625 ميـلادي. عـصى أفـراد مـن جيشـه تعليماتـه الواضحـة وذلـك بتركهـم لتـلٍ مهـم مـن الناحيـة التكتيكيـة، مما تسـبب بهزيمـة عسـكرية[34] وقـد أشـار القـرآن مبـاشرة إلى هـذا العصيـان بقولـه:
﴿وَلَقَـدۡ صَدَقَكُـمُ ٱللَّهُ وَعۡـدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّـونَهُم بِإِذۡنِـهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِـلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُـمۡ فِى ٱلۡأَمۡـرِ وَعَصَيۡتُـم مِّـنۢ بَعۡـدِ مَـآ أَرَىٰكُـم مَّـا تُحِبُّـونَۚ مِنكُـم مَّـن يُرِيـدُ ٱلدُّنۡيَـا وَمِنكُـم مَّـن يُرِيـدُ ٱلۡأٓخِـرَةَۚ ثُـمَّ صَرَفَكُـمۡ عَنۡهُـمۡ لِيَبۡتَلِيَكُـمۡۖ وَلَقَـدۡ عَفَـا عَنكُـمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡـلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِيـنَ﴾[35].

حثّـت آيـة قرآنيـة أخـرى محمـد عـلى عـدم الشـعور بالإحبـاط، بـل أن يغفـر للعصـاة في أُحـد وأن يظـل مترفقـاً بهـم:
«فبمـا رَحْمَـةٍ مِّـنَ اللّـهِ لِنـتَ لَهُـمْ وَلَـوْ كُنـتَ فَظّـاً غَلِيـظَ الْقَلْـبِ لاَنفَضُّـواْ مِـنْ حَوْلِـكَ فَاعْـفُ عَنْهُـمْ وَاسْـتَغْفِرْ لَهُـمْ وَشَـاوِرْهُمْ فِي الأَمْـرِ فَـإِذَا عَزَمْـتَ فَتَـوَكَّلْ عـلى اللّـهِ إِنَّ اللّـهَ يُحِـبُّ المتوكلـين». [36]

في القـرن السـابع في الجزيـرة العربيـة، تـمّ التعبـير عـن طاعـة القـادة مـن خـلال تعهـد رسـمي بالـولاء يسـمى «البيعـة»، وهـي كلمـة مشـتقة مـن الجـذر العربـي لــ بيـع، التـي تدل عـلى البيـع والـشراء. ولذلـك كان هـذا التعهـد في الأصل معاملـة يتـم المصادقـة عليهـا بمصافحـة الأطـراف المعنيّـة[37]. وقـد انطـوت عـلى

مسـؤوليات ثنائيـة الاتجـاه، موافقـة القائـد بشـكل ضمنـيّ أو صريـح عـلى القيادة بعـدلٍ وحكمـة وربمـا بمنـح السـخاء، وبموافقـة الطـرف الآخـر عـلى الانصيـاع للتعليمـات وبتقديـم الخدمـة المطلوبـة وأي ضرائـب أو جزيـة منصـوصٌ عليهـا.

إن مفهـوم طاعـة محمـد هـي نفسـها طاعـة اللـه مثبـت وواضـح في المصـادر. يُخـبر القـرآن محمـد، الـذي وفي شـهر مـارس مـن عـام 628 للميـلاد، قبـلَ شـخصياً تعهـد أتباعـه بالمصافحـة (الـذي سـبق مبـاشرة معاهـدة الحديبيـة)، بـأن:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[38].

وهكـذا، فـإن مبايعـة محمـد كانـت أكثـر مـن مجـرد مسـألة مدنيّـة تفاعليـة، بـل كانـت أيضـاً ملزمـة دينيـاً. تكشـف المؤرخـة إيـلا لآنـداو تاسـيرون عـن مـدى جديتهـا:

«كان [تبـادل] التعهـدات مـع النبـي (والتـي كانـت تتـم بالمصافحـة) بمثابـة البيعـة مـع اللـه وشـكلت التزامـاً لا لبـس فيـه تجاهـه.... ويـشرح مفهـوم البيعـة هـذا وجهـة النظـر الإسـلامية بأنـه لا رجعـة فيـه. إن نقـض البيعـة التـي تـم تبادلهـا مـع النبـي نيابـة عـن اللـه يصـل إلى حـد الـردة، وهـو مثـل الكفـر، ويعاقـب عليـه بالمـوت» [39]

هنـاك المئـات مـن الأحاديـث التـي تُعـبر عـن الجديّـة التـي كان محمـد وأصحابه وأتباعـه ينظـرون بهـا إلى البيعة.

ومـع ذلـك، لا ينبغـي للمـرء أن يُخطـئ في اعتبـار هـذا التعهـد الرسـمي بديـلاً غـير مـرن قائـم عـلى الخـوف للقيـادة الجيـدة، وأن أتبـاع محمـد خافـوا منـه ومـن عواقـب نقضهـم، وأن طاعتهـم كانـت بسـبب ذلـك الخـوف فقـط. بـل عـلى العكـس مـن ذلـك، وكمـا سـيتبين أدنـاه، فقـد كان لمحمـد مواهـب رائعـة مـن الإلهـام والاقنـاع. وقـام أتباعـه عـلى خدمتـه بإخـلاص واحـترام وتعلـقٍ كبـير.

حتـى أن قسـم البيعـة لـه كان ألطـف في النيـة ممـا تُوحـي إليـه بعـض الآيـات القرآنيـة التـي تبـدو متوعـدة إلى حـدٍ مـا في أعـلاه فيمـا لـو قُرئـت بـدون سـياق. حيـث أنهـا تحتـوي عـلى مؤهـل «بـذل قصـارى الجهد».عـلى سـبيل المثـال، في صحيـح البخـاري، نجـد هـذا الحديـث: «كُنَّـا إذا بايَعْنـا رَسـولَ اللَّـهِ ﷺ عـلَى

السَّمْعِ والطَّاعَةِ، يقولُ لَنا: «فِيما اسْتَطَعْتُمْ».[40] على نحوٍ مماثل، عندما دخل محمد مكة عام 630 ميلادي على رأس جيش قوامه عشرة آلاف جندي فاتحاً لمسقط رأسه دون إراقة للدماء، مُسارعاً إلى مسامحة أهلها عن ثماني سنواتٍ من القتال وسنواتٍ عديدة قبل ذلك من السخرية والاضطهاد، وطلب منهم رسمياً التعهد الجماعي بالولاء. وأمام الكعبة، البيت الحرام وسط مكة، وقبل وعدهم بالاستماع إليه وطاعته، « قدر استطاعتهم».[41]

وعادةً ما كان العهد نفسه جنبًا إلى جنب مع مصافحة الأيدي يتضمن صيغة تنطوي على الوعد بالاستماع إلى النبي والامتثال لتعليماته، وعدم إشراك أي آلهة مع الله وبالعيش حياة كريمة وفقًا لتعاليم الإسلام، وأن يكونوا جيدين مع المسلمين الآخرين، وربما أيضًا القيام بمهام معينة، كالهجرة إلى المدينة المنورة أو المشاركة في غارة أو معركة نيابة عن النظام السياسي الإسلامي.

ترد عبارة «على السمع والطاعة» للنبي في كل حديث عن البيعة تقريباً ويضع على التابع مسؤولية إيجابية وليست سلبية، لمحاولة فهم نوايا محمد.

سواء أحب المرء المهمة أم لا، كان على التابع أن يطيع[42]. ومع إدراكه أن بعض القادة قد يعتمدون على مفهوم الطاعة هذا لإجبار التابعين على القيام بأشياء غير أخلاقية، أوضح محمد أن محاولة فهم ما يُطلب القيام به ولماذا (الاستماع) كان لا يقل أهمية عن تنفيذ التعليمات (الطاعة)، مع ضرورة التفكير الناقد لتحديد فيما إذا كانت تعليمات المهمة صالحة [43].

كان محمدٌ لطيفاً ومرناً عندما كان يُدرك أحياناً أن بالإمكان تحقيق منفعة كبيرة بإعفاء شخص ما من النذر. وعندما صدف أن أخبره شاب أن تعهده بالهجرة معه (المفترض إلى المدينة) قد جعل والديه يبكيان، عندها قال له بكل انسانية «ارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما»[44].

كما كانت الطاعة غير مطلوبة في حال انتهكت أي من التعليمات مبادئ الإسلام أو حتى الفطرة السليمة (المعروف بأنه جيد)[45]. على سبيل المثال، بعد أن أقسموا على طاعة قائد كتيبة والذي عينه النبي، كان بعض الجنود بطيئين في اشعال النار التي طلبها القائد. ثم غضب وأمرهم بأن يُضرموا

نــاراً ويلقــوا بأنفســهم فيهــا. أشــعلوا النــار كمــا ينبغــي، ولكــن وقبــل القــاء أنفســهم اعترضــوا وقالــوا للقائــد: «تبعنــا رســول اللــه ﷺ هربــاً مــن النــار (يقصــدون جهنــم). كيــف لنــا أن ندخلهــا الآن؟». أُخمــدت النــار وهــدأت أعصــاب القائــد. عندمــا ســمع محمــد بالقصــة، قــال، «لــو دخلوهــا (يعنــي النــار) لــم يزالــوا فيهــا إلى يــوم القيامــة، لا طاعــة في معصيــة، إنمــا الطاعــة في المعــروف». [46]

كمــا يمكــن للمــرء أن يتخيــل الحماســة التــي صاحبــت التعهــد بطاعــة محمــد. إن نقــض العهــد مــن شــأنه أن يثــير غضــب اللــه، وعــلى العكــس مــن ذلــك، فــإن الحفــاظ عــلى العهــد يجلــب المكافــآت الروحيــة بمــا في ذلــك الفــردوس (الموصوفــة في الآيــة الســابقة «أجــرٌ عظيــم») وأيضــاً التوفيــق والــبركات في هــذه الحيــاة. ومــع هــذا نجــد رجــالاً أقويــاء يتعهــدون بالــولاء مقابــل وعــود بمنفعــة دنيويــة. لدينــا ســجل بذلــك فعــلى ســبيل المثــال، عمــرو بــن العــاص، خصــم مكــيّ لمحمــد، والذي آخــيراً قســم الــولاء لمحمــد «بــشرط العفــو عــن خطايــاه الســابقة، وأن يعطيــه [محمــد] دوراً فاعــلاً في الشــؤون العامّــة، وقــد أعطــي ذلــك»[48]. أصبــح عمــرو بطــلاً اســلامياً كبــيراً، قــاد الفتــح الاســلامي لـــ مــصر وشــغل منصــب حاكمهــا في 646-640 و 664-658 الميــلادي.

لــم تكــن المكافــأة عــلى الطاعــة أمــراً غــير عــادي، ففــي نهايــة المطــاف، يتضــح مــن القــرآن أن الــولاء وطاعــة النبــي مــن شــأنهما أن يحققــا الفوائــد الدنيويــة. يقــول القــرآن فيمــا يتعلــق بإولئــك الذيــن أدوا بيعتهــم في الحديبيــة:

﴿لَّقَـدۡ رَضِـيَ ٱللَّهُ عَـنِ ٱلۡمُؤۡمِنِيـنَ إِذۡ يُبَايِعُونَـكَ تَحۡـتَ ٱلشَّـجَرَةِ فَعَلِـمَ مَـا فِـي قُلُوبِهِـمۡ فَأَنـزَلَ ٱلسَّـكِينَةَ عَلَيۡهِـمۡ وَأَثَـٰبَهُـمۡ فَتۡحًـا قَرِيبًـا﴾.[49]

****

القيادة التشاورية

في الآيـة القرآنيـة المذكـورة آنفـاً مـن سـورة آل عمـران، والتـي يثنـي فيهـا اللـه عـلى محمـد لكونـه «لطيفـاً وليـس «فظـاً غليـظ القلـب» رغـم معاناتـه مـن هزيمـة عسـكرية بسـبب عصيـان بعـض جنـوده، فـإن اللـه يطلـب مـن محمـد بـأن «يعفـو عنهـم ويسـتغفر لهـم». واللافـت للنظـر أنـه بـدلاً مـن أن يفـرض عـلى العصـاة أي شـكل مـن أشـكال العقـاب أو الاقصـاء، يقـول لمحمـد أن يتعامـل معهـم بهـذه الطريقـة» « وشَـاوِرْهُمْ فِي الأَمْـرِ فَـإِذَا عَزَمْـتَ فَتَـوَكَّلْ عَـلَى اللَّـه".

الشـورى هـي شـكلٌ مـن أشـكال التشـاور بـين الأقـران وصنـع القـرار التشـاركي موجـود بـين القـادة العـرب عـلى جميـع المسـتويات. وأصولهـا سـبقت الإسـلام [50] . وتنطـوي عـلى مناقشـة المشـاكل أو القضايـا مـن قبـل مجموعـات مـن الأقـران بهـدف تحديـد طريقـة للمـضي قدمـاً مـن خـلال الحـوار، والنقـاش القائـم عـلى الاحـترام واتخـاذ قـرار جماعـيّ. وتبـدو مناسـبة بشـكل مثـاليّ للمجتمعـات القبليـة، حيـث يمكـن لأفـراد القبائـل المختلفـة الاجتمـاع كأقـران لتقريـر الأمـور ذات الاهتمـام المشـترك، أو حيـث يمكـن لكبـار السـن أو الشـيوخ في القبيلـة الاجتمـاع لتقديـم المشـورة أو للعمـل كـوكلاء للمسـاءلة عـن الزعيـم.

كمـا يصـف القـرآن الشـورى عـلى أنهـا وظيفـة اجتماعيـة هامّـة لجميـع الناس في كل مـكان، وكوسـيلة ضروريـة لاكتسـاب الحكمـة. ويضـع الشـورى جنبـاً إلى جنـب مـع الصـلاة والعمـل الخـيري كسـلوك انسـاني أسـاسي:

﴿وَالَّذِيـنَ اسْـتَجَابُوا لِرَبِّهِـمْ وَأَقَامُـوا الصَّـلَاةَ وَأَمْرُهُـمْ شُـورَىٰ بَيْنَهُـمْ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُـمْ يُنْفِقُـونَ﴾ [51]

وهـذا يلخـص أسـلوب القيـادة الـذي اتسـم بدرجـة عاليـة مـن التشـاور والـذي حـاول محمـد بـكل اصرار أن يسـتخدمة طيلـة ثلاثـة وعشريـن عامـاً مـن زعامتـه. عـلى الرغـم مـن أن مجتمعـاً قـد أقسـم رسـمياً عـلى طاعتـه مـن خـلال البيعـة، وهـو مـا أخـذه عـلى محمـل الجـد، إلا أنـه تجنـب تحقيقهـا بقسـوة عـلى الآخريـن، مـدركاً أن النـاس مـن حولـه يمتلكـون وجهـات نظـر وأفـكار ورؤى قـد تسـاعده في اتخـاذ قـرارتٍ أقـوى مـن تلـك التـي يمكـن أن يتخذهـا بنفسـه. كمـا أن لهـم كرامـة يمكـن تعزيزهـا بإدماجهـم.

كان محمد يحب الأفكار الجيدة أياً كان مصدرها. ولذلك طلب المشورة بشكل روتيني، واستمع بشكل محايد، وأثنى على المساهمين، وفكر وقرر، ثم وثق بالله. لم تكن فقط عملية استماع للحصول على النصيحة. وقد سعى قدر المستطاع للحصول على الإجماع الذي كان يوافق عليه، وكان من الواضح أنه يستمتع بصنع القرار التشاركي.

وإدراكاً منه أنه كان نبي معين من الله وأنه رجل عادي في الوقت نفسه ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ عبارة غالباً ما كان يستخدمها [52]، فقد ظل قادرًا نفسياً على التغلب على هذا التوتر المتأصل، ولم يخلط أبدًا بين أفكاره وبين ما يوحى إليه من الله. وبالتالي، وعلى هذا النحو، فقد أوضح أنه يريد مدخلات من الآخرين بشأن الأمور التي كان يقررها بنفسه، بخلاف التوجيه الإلهي الذي يتم توصيله من السماء. وبالتالي أوجد بيئة مفتوحة وآمنة يستطيع فيها الناس مناقشته أو حتى مناقضته دون أن يُنظر إليهم نظرة انتقاص على أنهم قليلي احترام أو غير مخلصين. وبعيداً عن كونه الآمر الناهي بعلمه الكليّ، فقد كان صانع قرار شامل واستشاري وكانت أفكاره الخاصة قابلة للمناقشة والتحسين أو حتى للانتقاد البنّاء.

وبالفعل، تكشف أقدم السيَّر الموجودة، وهما السيرة النبوية لإبن هشام وكتاب المغازي للواقدي، أنه وقبل كل حدث كبير في حياة محمد، بما في ذلك الهجرة من مكة إلى المدينة في سنة 622 ميلادية وجميع الغزوات والمعارك اللاحقة، كان يتشاور مع المقربين الثقاة. على سبيل المثال، قبل الانتصار الكبير الأول للاسلام في معركة بدر في 13 مارس 624 ميلادية، ناقش النبي الخيارات أولاً مع دائرته الداخلية، متسائلاً فيما اذا كان ينبغي عليهم الانسحاب أو المضي قدماً. قال «انصحوني أيها الناس». وبدا أنهم يدعمون التقدم إلى المعركة، وقد تشجع محمد بشكلٍ خاص عندما وعد المقداد بن عمرو بأن محمد يمكنه الاعتماد على الدعم الكامل من أتباعه، على عكس قوم موسى الذين لا يريدون القتال معه [53].لم يتوقف محمد عند هذا الحد. ثم تشاور مع الأنصار، مواطني المدينة الذين استقبلوه بينهم وفي وسطهم، طالباً النصحية، متلقياً النصيحة الإيجابية التي تؤكد بأنهم سيحترمون بيعتهم «بالسمع والطاعة» وأنهم سيقاتلون بالفعل إذا رغب في المضي قدماً.

شـملت معركـة بـدر مثـالاً لافتـاً آخـر عـلى سـعي محمـد وبنشـاط للحصـول عـلى المشـورة قبـل اتخـاذ القـرار. عندمـا قـاد قواتـه المؤلفـة مـن 313 جنديـاً إلى وادي بـدر الرمـلي، جنـوب غـرب المدينـة المنـورة، اقـترح إقامـة معسـكره، وبالتـالي خـط قتالـه في موقـع معـين. ثـم بعـد ذلـك طلـب مـن أصحابـه النصيحـة في اختيـاره. سـأل الحُبـاب بـن المنـذر وهـو مـن الخـزرج «يـا رسـول اللـه، أمنـزلٌ أنزلكـه اللـه فليـس لنـا أن نتقدمـه ولا نتأخـر عنـه، أم هـو الـرأي والحـرب والمكيـدة؟[54]»

قـد يبـدو هـذا ضربـاً مـن الوقاحـة عـلى مسـمع عصرنـا الحديـث، إلا أنّ محمـد لـم يسـتهجنه. وردّ قائـلاً: «بـل هـو الـرأي والحـرب والمكيـدة». ثـم قـال الحُبـاب بـن المنـذر الحقيقـة صراحـةً للرجـل الـذي رآه رسـولاً للـه: «فـإن هـذا ليـس بمنـزلّ!» [55] . ثـم شرح مـبرراً، بـأن عليهـم أن يقيمـوا معسـكرًا بالقـرب مـن أبعـد الآبـار التـي يمكنهـم اسـتغلالها للحصـول عـلى الميـاه العذبـة، مـع حرمـان العـدو مـن تلـك الآبـار والآبـار القريبـة. لـم يكـن محمـد منزعجـاً لأنـه لـم يفكـر في هـذا الأمـر، ولـم يلدغـه النقـد الـذي وجهـه لإختيـاره، ووافـق عـلى الفـور عـلى نصيحـة الحبُـاب. وأمـر بنقـل المعسـكر إلى مـكان الآبـار المحـددة، وتمتـع في اليـوم التـالي بتحقيـق انتصـار كبـير عـلى قـوةٍ أكـبر بكثـير مـن قوتـه.

يـبرز الحُبـاب بـن المنـذر بشـكل متكـرر وإيجابـي في سـير محمـد المبكـرة، والمثـير للاهتمـام أنـه عـاد وصحـح الرسـول مـرة أخـرى فيمـا يتعلـق بتمركـز القـوات. ففـي بدايـة غـزوة الطائـف في فبرايـر لعـام 630 ميـلادي، بعـد سـت سـنوات مـن معركـة بـدر، حيـث نصـب محمـد معسـكره بالقـرب مـن أسـوار المدينـة، مـرة أخـرى طعـن الحُبـاب القـرار قائـلاً: «يـا نبـي اللـه إنّـا قـد دنونـا مـن الحصـن، فـإن كان عـن أمـر سـلمنا، وإن كان عـن الـرأي فالتأخـر عـن حصنهـم»[56]. وأوضـح أنهـم كانـوا في مرمـى سـهام العـدو، وكانـوا يعانـون مـن الإصابـات.

قـد يتصـور البعـض أن محمـد تحّمـل هـذا النـوع مـن التصحيـح قبـل سـت سـنوات لأنـه كان حينهـا قائـداً عسـكرياً حديثـاً -وأنـه الآن وبعـد انتصـاره في العديـد مـن المعـارك بالإضافـة لفتحـه مكـة- أصبـح يـرى نفسـه خبـيراً بمـا فيـه الكفايـة بحيـث سـيكون أمـر التصحيـح مزعجـاً لـه. ليـس هـذا فحسـب، بـل كان

نبـي معـين مـن اللـه والـذي كمـا يقـول القـرآن ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[57]. ومـع ذلـك لـم تكشـف المصـادر عـن أي فـزع أو ضغينة. بـل طلـب محمـد المتواضـع مـن الحُبـاب بـأن يجـد لهـم مكانًـا أفضـل ينسـحبون إليـه، وهـذا مـا فعلـه.

وتكشـف المصـادر أن حصـار الطائـف لـم يـسر عـلى مـا يـرام، وأن الخسـائر كانـت تتصاعـد بعـد ثمانيـة عـشر يومـاً عصيبـاً، ولذلـك طلـب محمـد النصيحـة مـن نَوْفَـل بـن معاويـة الدِّيـلي وهـو محـارب بـارع. هـل يجـب عليهـم الاسـتمرار أم كـسر الحصـار؟ وردّ نوفـل رداً بليغـاً، موضحـاً أن محمـد قـد دفـع بالفعـل بـ»الثعلـب إلى حجـره» وأنـه إن أصر محمـد فالنـصر سـيأتي في نهايـة المطـاف، ولكـن إن اختـار الانسـحاب فـإن الثعلـب لـن يسـبب أي ضرر[58]. أُعجـب محمـد بالنصيحـة وفكـر وأمـر بالانسـحاب. اشـتكى مستشـارون آخـرون بمـرارة، بعـد أن أمضـوا أكثـر مـن أسـبوعين سـعياً للنـصر، معتقديـن أنهـا نصيحـة سـيئة. كان مـن المحتمـل أن يكـون النـصر وشـيكًا. ظـل محمـد صبـورًا، ووافـق مـع رأي الأغلبيـة بوجـوب محاولـة هجـوم آخـر في صبـاح اليـوم التـالي[59]. إلا أن الهجـوم فشـل في تحقيـق ذلـك مـع العديـد مـن الضحايـا، ولذلـك عندمـا أمـر محمـد بالانسـحاب، فـإن الصحابـة الذيـن طالبـوا سـابقاً بمحاولـة أخـرى كانـوا مرتاحـين بالفعـل هـذه المـرة.

قـد يبـدو أن التشـاور واتخـاذ القـرارات الشـاملة لـم يحـدث إلا في وقـت الحـروب، ولكـن الأمـر لـم يكـن كذلـك. حتـى فيمـا يخـص المسـائل الاجتماعيـة والثقافيـة، كان محمـد يحـب التواصـل مـع النـاس والاسـتماع إلى وجهـات نظرهم، والإشـادة علنـاً وبشـكل روتينـي بـرأي الشـخص الـذي بـدأ النقـاش أو الذي سـاد رأيـه في نهايـة المطـاف، حتـى وإن كان مختلفـاً عـن رأيـه. كان يُـسر بالأفـكار الجيـدة، وتأكـد مـن أن الجميـع يعرفـون مـن الـذي قدمهـا دون أن يزعـم أنهـا مـن ابتـكاره، وكان يؤمـن بـأن الفضـل يجـب أن يعـود إلى مـن يسـتحق.

وحتـى (الآذان)، النـداء الإسـلامي للصـلاة والـذي يجـري خمـس مـرات في اليـوم، والـذي هـو الآن جـزءا لا يتجـزأ مـن الإسـلام، حتـى أنـه لا بـد أن يكـون قـد تمخـض عـن وحـي إلهـي، كان قـد نشـأ مـن مناقشـات بشريـة جـداً ومدخلات واسـعة النطـاق. اقـترح البعـض بـأن يُرفـع العلـم قبـل الصـلاة، ولكـن عندمـا

تمــت الإشــارة بأنــه يمكــن أن يُحجــب بالأشــجار أو الأبنيــة، ولا يمكــن رؤيتــه في الظــلام، اقــترح آخــرون النفــخ في البــوق كمــا كان يفعــل اليهــود، إلا أنــه تــم الطعــن في ذلــك عــلى أســاس عــدم معرفــة مــن يدعوهــم للصــلاة: اليهــود أم المســلمون؟. وكان التحــدي نفســه ينطبــق عــلى طريقــة قــرع الأجــراس، كمــا فعــل المســيحييون. وأخــيراً، اقترحــت مجموعــة أخــرى أن يكــون النــداء بصــوتٍ بــشري بدعــوة إســلامية محــددة، تكــون تمجيــداً للــه وفي نفــس الوقــت تكــون طريقــة متميــزة عــن المجتمعــات الدينيــة الأخــرى. قبلــت المجموعــة الفكــرة، ومــع ذلــك لا تــزال هنــاك حاجــة للإتفــاق عــلى التفاصيــل. أخــبر أحــد الصحابــة وهــو «عبــد اللــه بــن زيــد» أنــه حلــم بــأن شــخصاً علمــه تعبــيراً وترتيــلاً لمــا ســيصبح آذانــاً معتمــداً [60]، وأخــبر عمــر بــن الخطــاب بأنــه رأى نفــس الحلــم. ووافــق الجميــع عــلى ذلــك. ولأن النبــي كان يعتقــد أن بــلال بــن ربــاح، العبــد المحــرر، يتمتــع بصــوت هــو الأقــوى (ويذكــر أحــد الأحاديــث أن عبــد اللــه كان في الواقــع مريضًا في ذلــك اليــوم [61]، فقــد طلــب مــن عبــد اللــه أن يُعلــم بــلالاً الكلمــات، والــذي لبراعته أضــاف عبــارة «الصــلاة خــيرٌ مــن النــوم» لنــداء صــلاة الفجــر. وبالتــالي كان الأذان قــرارًا جماعيًــا شــاملاً صــادق عليــه محمــد بــكل سرور.

وهــذا لا يعنــي أن محمــد كان دائمًــا يُذعــن للنصحيــة. كان يعتقــد أنــه لا ينبغــي استشــارة أو الاســتماع إلا إلى شــخص معــروف وجديــر بالثقــة [63]. يجــب تجنــب «الجاهلــين «...، فَيَبْقَــى نَــاسٌ جُهَّــالٌ يُسْــتَفْتَوْنَ فَيُفْتُــونَ بِرَأْيِهِــمْ، فَيُضِلُّــونَ وَيَضِلُّــونَ».[64]

كان أحيانــاً يســتمع للنصيحــة إلا أنــه كان يتمســك بميولــه الأصليــة، وخاصــة اذا جــاءت النصيحــة مــن خــارج اجتمــاع شــوري، حيــث كان يســمع جميــع جوانــب القضيــة قيــد المناقشــة. فعــلى ســبيل المثــال، في معركــة بــدر، قــدّم أحــد الصاحبــة نصيحــة تصحيحيــة حــول الطريقــة التــي رتــب بهــا محمــد محاربيــه ليكونــوا في صفــوف. وقــد اســتخدم صيغــة مماثلــة « يــا رســول اللــه إن جــاءك هــذا بالوحــي فليكــن، وإلا فأعتقــد أنــه يجــب...:[65] ومــع عــدم وجــود مجموعــة شــورى للتعليــق عــلى هــذه النصيحــة، وعــدم وجــود اجمــاع للســعي إلى تحقيقهــا، رفضهــا الرســول بــكل لطــف. ومــن الجديــر بالملاحظــة أنــه خلــق بيئــة مفتوحــة شــعر فيهــا أصحابــه بحريــة تقديــم النصيحــة رغــم اعترافهــم بأنــه نبــي مختــار مــن اللــه.

وأشـهر مثـال عـلى اتخـاذ محمـد قـرارًا كبـيراً بعـد النصيحة يتعلـق بمـا يُعرف بمعركـة الخنـدق. وكانـت قبيلـة قريـش في مكـة قـد تحالفـت مـع قبائـل أخـرى لتشـكيل قـوة عسـكرية كبـيرة تقدمـت نحـو مدينـة محمـد «المدينـة المنـورة» في مـارس مـن عـام 627 ميـلادي بغـرض قتـل محمـد، أو عـلى الأقـل إنهـاء نفـوذه إلى الأبـد. عندمـا علـم محمـد بـأن قـوة قويـة سـتصل قريبـاً إلى المدينـة المنـورة، جمـع دائرتـه المقربـة ليطلـع عـلى تقييماتهـا وللإسـتماع إلى آرائهـا حـول أفضـل الطـرق للـرد. ويقـول المـؤرخ الواقـدي أن هـذه كانـت ممارسـة محمـد: «لقـد تشـاور رسـول اللـه ﷺ معهـم كثـيرًا في مسـائل الحـرب:[66]

لـم يكـن محمـد نفسـه يميـل إلى قيـادة الجيـش خـارج المدينـة لخـوض معركـة ضاريـة في وادي أحـد، حيـث كان قـد فعـل ذلـك بالضبـط قبـل عـام وفشـل، بعـد أن وافـق في ذلـك الوقـت عـلى الـرأي الجماعـي لأصدقائـه المقربـين عـلى تفضيلـه المعـرب عنـه بوضـوح خـلال فـترة طويلـة مـن التشـاور[67]. ولكـن هـذه المـرة دارت مناقشـة محتدمـة بسـبب الخـوف مـن تكـرار الفشـل.

ثـمّ تحـدث سـلمان الفـارسي، وهـو فـارسيّ اعتنـق الإسـلام، مشـيراً عـلى محمـد بأنهـم في بـلاد فـارس كانـوا يسـتجيبون لخطـر هجـوم الفرسـان بالتحصـين، أي بحفـر خنـدق بحيـث لا تسـتطيع الخيـول القفـز مـن خلالـه أو الخـروج منـه. خنـدق عـبر عنـق الـوادي المـؤدي إلى المدينـة المنـورة سـيمنع العـدو مـن الدخـول. لـم يُسـتخدم هـذا التكتيـك مطلقـاً في الجزيـرة العربيـة، ومـع ذلـك فـإن اقـتراح سـلمان «أدخـل السرور عـلى المسـلمين» وبالتـالي حصـل عـلى تأييـد محمـد[68].

وعندمـا رأى توافـق الأراء، وافـق وأمـر بحفـر خنـدق سـلمان[69]. حتـى أن محمـدا عمـل جاهـداً في الحفـر، مظهـراً لأتباعـه أنـه لـن يطلـب منهـم شـيئاً لـن يفعلـه بنفسـه. وبـدا الخنـدق عصيّـاً عـلى قـوة العـدو، والتـي كانـت ضعيفـة مـن الناحيـة اللوجسـتية ولـم تسـتطع مواصلـة هجومهـا في الحـر الشـديد، وهكـذا أنقـذ النظـام السـياسي الإسـلامي.

هنـاك حالـة رئيسـية واحـدة معروفـة لمعارضـة محمـد لـرأي مجلـس الشـورى. حدثـت في عـام 628 الميـلادي عندمـا قـاد محمـد ألـف وأربعمائة مسـلم مـن المدينة المنـورة إلى مكـة المكرمـة مـن أجـل «أداء العمـرة أو الحـج «الأصغـر». وأرسـلت قبيلـة قريـش في مكـة مندوبـين لإسـداء النصيحـة لمحمـد، الـذي كان يُعسـكر في الحديبيـة خـارج مكـة، بأنـه عـلى الرغـم مـن أن المسـلمين كانـوا يرتـدون ملابـس

الحجيج ويحملون القليل من السلاح لغايات الأضاحي أو لردع قطاع الطرق، فإنه لن يُسمح لهم بالمضي قدماً إلى مكة، وبعد المفاوضات، اختار محمد حل المسألة بشكل دبلوماسي بدلاً من الحرب، وأذن بصياغة معاهدة بينه وبين قريش.

وفي كل مرحلة من مراحل عملية التفاوض، تشاور مع مستشاريه، ولكن العديد منهم شعروا بأنه كان يتصرف بشكل ضعيف من خلال وعدهم بعمرة لا يستطيع القيام بها وبأن المعاهدة نفسها لا تليق بالنبي. أخبروه هذا بكل صراحة. حتى عمر بن الخطاب أحد المقربين من محمد والذي أصبح لاحقاً خليفته السياسي، انتقد وبشدة قرار النبي بقبول تسوية تفاوضية، خاصة بعد أن رفض سهيل بن عمرو، وهو رجل الدولة الماهر جداً وممثل عن قريش، بقاء أي ذكر لصفات الله أو أي اشارة إلى أن محمد هو رسول الله في نص المعاهدة [70].

أظهر النبي شجاعة أخلاقية هائلة خالف إجماع مستشاريه، ودخل في معاهدة مع عدوه السابق، واتفق على أن حالة السلام ستظل قائمة لمدة عشر سنوات وأن المسلمين سيؤدون فريضة الحج بعد عام.

ربما تطلب الأمر من محمد الخضوع للتنازل والمعاملة السيئة على المدى القصير، لكنه كان ذكياً بما يكفي ليرى ما لم يستطع مستشاروه رؤيته: أن يبتلع كبرياءه في ذلك اليوم، وأن يتخلى عن هدف الحج قصير المدى في مكة المكرمة، من أجل ضمان أكبر قدر ممكن من المكاسب السياسية على المدى الطويل: اعتراف قريش به على انه متكافئ في التفاوض (أي أنه لم يعد مجرد متمرد، بل كان قائدًا شرعيًا لنظام حكم معترف به والذي منح الآن وضع قبيلة كبرى)، عقد من السلام مع عدوه المتعنت ؛ والحق بأداء الحج من الآن فصاعداً.

وإن كان محمد قد تأذى بسبب غضب رفاقه المقربين وموقفهم المعارض، فإنه لم يسمح لهذا الألم بأن يضر بالعلاقات لفترة طويلة. بعد أن أكد الوحي القرآني بأن المعاهدة كانت «نصراً واضحاً» من الله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[71]، وتصالح محمد مع عمر وغيره من المعارضين[72]. وحرصاً منه على عدم بقاء أي جروح عاطفية، خصص محمد بعد أشهر

قليلـة جـزءًا مـن غنائـم الحـرب التـي أخـذت في خيـبر لأي مشـارك في المسـيرة إلى الحديبيـة ممـن لـم يكـن موجـوداً في خيـبر.

****

القيادة بالقدوة

وحقيقة أن محمد، الذي اعتبره أتباعه نبياً معيناً من الله وزعيماً سياسياً أقرب إلى زعيم قبلي، كان يكدح إلى جانب رفاقه في حفر الخندق الكبير خلال المعركة المذكورة أعلاه، تشهد على إيمانه بالقدوة في القيادة.

ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يعمل فيها جنباً إلى جنب مع أتباعه. فبعد وصوله إلى المدينة المنورة في عام 622 ميلادية، شرع في بناء أول مسجد في المدينة للصلاة الجماعية - مبني من الطوب الطينيّ وجذوع النخل والسعف مع حجارة كبيرة كإطارات بوابة [73]- جزء منه سيكون بمثابة مكان خاص به وبأسرته. ويشير ابن هشام إلى أن محمد نفسه انخرط في البناء، على أمل أن يؤدي ذلك إلى «تشجيع المسلمين على العمل»[74].

ويعلق القرآن على الطبيعة المثالية لقيادته – التي سعى دائماً إلى إظهار الاستعداد للقيام بما يطلبه من الآخرين، مهما كان شاقاً أو مزعجاً، وأنه يعتقد أن أفضل طريقة لتعليم السلوك الأخلاقي هي أن يظل دائمًا أخلاقيًا بنفسه، بقوله تعالى:

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[75]

ولم يكتف بإجهاد نفسه بحفر الخندق جنباً إلى جنب مع الكثير من الرجال ممن هم أصغر منه سناً، كان عمره آنذاك 56 عاماً، بل أنه لم يأكل أكثر من أي شخصٍ آخر، وأصبح يتضور جوعاً بعد ثلاثة أيام حتى أنه ربط حجراً بإحكام على معدته لتخفيف آلام الجوع [76]. وحاول أن يخفيه، إلا أنه وأثناء المجهود الشاق في محاولة لكسر صخرة، رأى رفاقه الحجر المربوط. شعر أحدهم بالقلق الشديد حتى أنه ذهب وطلب من زوجته أن تُعد وجبة صغيرة لـ محمد. وعندما علم أن الزوجة أعدت ما يكفي له فقط أو لإثنين آخرين، فاجأها النبي وزوجها الذي هتف قائلاً «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» (وهو تعبير يُقال عند نبأ وفاة))، بدعوة جميع من كان يعمل بالحفر للمشاركة في الوجبة [77]. ويُسجل التقليد الإسلامي هذه الحادثة بالمعجزة: لأن محمد لم يكن ليأكل دون غيره، كان الجميع متخمًا وكان هناك بعض الطعام المتبقي.

وكنبـي وقائـد للجماعـة، كان لمحمـد الحـق في معاملـة خاصـة، كأن يـأكل بشـكلٍ أفضـل أثنـاء الحمـلات مـع رجالـه. ومـع ذلـك فلـم يـأكل سـوى مـا أكلـه محاربـوه وعانـى الحرمـان - الحـر الشـديد والجـوع والعطـش والإرهـاق وعـدم الراحـة – بالتسـاوي معهـم [78]. فعـلى سـبيل المثـال عندمـا قـاد قـوة مـن أكثـر مـن ثلاثمائـة مقاتـل بقليـل إلى «بـدر» في مـارس 624 ميلاديـة، كان بينهـم سـبعون جمـلاً فقـط. لذلـك ركـب كل ثلاثـة أو أربعـة رجـال متراصـين عـلى جمـل [79]. لـم يطلـب محمـد أي معاملـة اسـتثنائية، عـلى الرغـم مـن أنّ أحـداً لـم يكـن ليسـتكثر عليـه حـق الركـوب بمفـرده، وقـد شـارك الجمـل مـع عـلي بـن أبـي طالـب وزيـد بـن حارثـة بشـكل غـير مريـح (بعـض المصـادر تذكـر مرثـد بـن أبـي مرثـد الغنـوي).

بوضـع مثـال كهـذا كان لـه تأثـير إيجابـي كبـير. فنحـن نعلـم عـلى سـبيل المثـال، أنـه عندمـا خـرج النبـي إلى تبـوك في شـمال الجزيـرة العربيـة عـلى رأس نحـو ثلاثـين ألـف جنـدي وذلـك بعـد سـت سـنوات مـن بـدر، كان الجـو حـاراً جـداً وكانـت الرحلـة طويلـة وشـاقّة ومسـببة للجـوع. إن اسـتعداد النبـي للمعاناة في الحـر الشـديد لوحـظ مـن قبـل رجالـه والمتخلفـين عـن الركـب والمتغيبـين. تلـكأ عبـد اللـه بـن خيثمـة السـالمي في المدينـة بعـد أن غـادر محمـد إلى تبـوك. وفي أحـد الأيـام قامـت زوجتـاه بتبريـد أكواخهمـا بـرش المـاء وبتجهيـز الطعـام لـه. حينهـا شـعر بالخجـل مـن أن محمـد كان يناضـل شـمالاً في الحـر، صرخ قائـلاً: «سـبحان اللـه! رسـول اللـه ﷺ قـد غُفـر لـهُ مـا تقـدم مـن ذنبـه ومـا تأخَّـر في الضِّـحّ والريـح والحـرِّ يحمـلُ سـلاحَهُ عـلى عُنُقـِهِ وأبـو خيثمـةَ في ظـلالٍ بـاردةٍ، وطعـامٍ مهيّـأ، وامرأتـين حَسـناوينِ، مـا هـذا بالنَّصَـفِ؛ واللـه لا أدخـلُ عريـش واحـدة منكمـا ولا أكلمكمـا حتـى ألحـق برسـول اللـه ﷺ» [80]. عـلى الرغـم مـن اعـتراض زوجاتـه إلا أنـه جثـا عـلى جملـه وشـد سرجـه وتعلـق بـه بإحـكام وانطلـق فـورًا خلـف محمـد. عندمـا أدرك الجيـش أخـيرًا، كان محمـد سـعيدًا ورحـب بـه دون أي تلميـح بالانزعـاج مـن تـردده في البدايـة.

شـمل العقـد الأخـير مـن حيـاة محمـد صراعـاً مسـلحاً وبشـكل مسـتمر تقريبـاً مصحوبـاً بشـبح المـوت الدائـم. لـم يكـن محمـد يحـب القتـال، وكان يفضـل حـل النزاعـات من خـلال الوسـاطة والدبلوماسـية، لكنـه كان مـدركاً أن الإكـراه والحرب

همـا في بعـض الأحيـان أمـران حتميـان أو ضروريـان، وأن الخـير قـد ينبثـق حتـى مـن القتـال العـادل والمتناسـب، فالقـرآن نفسـه يقـول:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.[81]

ومـرة أخـرى، قـاد محمـد بالقـدوة، واضعـاً نفسـه في نفـس خطـر المـوت الـذي طلـب مـن محاربيـه مواجهتـه. عـلى الرغـم مـن إيمانـه العميـق إلا أنـه كان إنسـاناً وفي بعـض الأحيـان كان قلقـاً للغايـة. يذكـر الواقـدي أنـه في معركـة بـدر، عندمـا رأى محمـد قـوة العـدو الأقـوى بكثـير تقـترب، أصبـح «خائفـاً أو مصدومـاً» داخل كوخـه الـذي أقيـم عـلى عجـل. فرفـع يديـه وطلـب مـن اللـه أن يتمـم وعـوده [82]. لا يذكـر ابـن هشـام الخـوف أو الصدمـة في روايتـه، لكنـه يُشـير إلى أن أبـا بكـر وهـو أقـرب الصحابـة إلى محمـد، أمسـك بيـده ونصحـه بالتوقـف عـن صلواتـه القلقـة خشـية أن يرتفـع هـذا القلـق إلى اللـه الـذي وعـده بالنـصر [83]. الحادثـة مذكـورة في العديـد مـن الأحاديـث، مـع إشـارة أبـي بكـر إلى الهـدوء في معظمهـا، عـلى الرغـم مـن أنـه لـم يُذكـر فيهـا أي صدمـة أو خـوف مـرة أخـرى [84]. قـد يكـون هـذا لأنـه حتـى وإن شـعر محمـد الانسـان بالقلـق، إلا أنـه وعـلى الفـور ضبـط أعصابـه وبقـوة حـثّ محاربيـة عـلى القتـال بالتقـدم وليـس التراجـع، وعـلى يقـين أنـه وإن سـقط أحـد فإنـه سـيدخل الجنّـة[85].

يكشـف ابـن هشـام كيـف أن جنـود محمـد كانـوا ملهمـين جـداً مـن وعظـه، لدرجـة أن أحدهـم وهـو «عمـير بـن الحمـام» ألقـى التمـر الـذي كان يأكله وأمسـك سـيفه وألقـى بنفسـه عـلى العـدو، وواحـد آخـر هـو عـوف بـن الحـارث خلـع درعـه الثقيـل وقاتـل حتـى قُتـل. ثـم أخـذ محمـد حفنـة مـن الحـصى متحديـاً ورماهـا بشـكلٍ رمـزي عـلى العـدو، وأمـر رجالـه بالتقـدم. وجـاء النـصر بعـد فـترة وجيـزة[86].

إن إصرار محمـد عـلى أن العـزم والحـزم في مواجهـة الخـوف همـا فقـط القادران عـلى تحقيـق النـصر وهـذا موجـود في العديـد مـن الأحاديـث التـي تقتبـس منهـا قولـه إن «التـولي يـوم الزحـف» مـن المعركـة أو «الهـروب مـن سـاحة القتـال» مـن أسـوأ الأعمـال البشريـة[87]. ويحـث القـرآن المؤمنـين عـلى التحـلي بالشـجاعة والثبـات في قولـه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[88].

والشجاعة ليست بالجرأة، بل هي التغلب على الرغبة البشرية الطبيعية في حفظ الذات وتجاهل الخطر لكي تعمل بإخلاص لصالح الآخرين. لا يستطيع الجميع التغلب على الخوف الذي يستحوذ عليهم أثناء المعركة، ولكن محمد كان يعتقد أن مثاله يمكن أن يقوي شجاعة الخائفين.

وخلال معركة أُحد نظم هو شخصياً محاربيه في صفوف ومجموعات كان يريدها، وضعهم بعناية حتى اعتقد أنهم سيثبتون فعاليتهم. ألقى خطابا حماسياً حضهم فيه على الصمود والشجاعة. ثم قاتل بين جنوده وعرّض نفسه للمخاطر لدرجة أنه أصيب في الواقع بقذيفة أصابت وجهه بجروح أفقدته الوعي لبضع دقائق. في إحدى المراحل، كانت قوات العدو تحتشد لقتله، وقام ستة من رفاقه المخلصين بصنع درع بشري لحمايته. ماتوا جميعاً دفاعاً عنه. أبو دجانه الذي استخدم جسده لاعتراض السهام التي أطلقت باتجاهه. أصيب بالعديد من السهام في ظهره لكنه نجا بأعجوبة. استمر النبي في القتال، ودافع عنه محاربون آخرون وهم يهتفون «أرواحنا فداك»[89].

ولا يعني هذا أنه حتى القيادة الأكثر إثارة وشجاعة سوف تمنع الخوف دوماً من التغلب على الناس في المعركة. فالبشر متقلبين ومتناقضين. فعلى سبيل المثال، في معركة حنين في عام 630 ميلادي، والتي انتهت بانتصار كبير وسخيّ للإسلام، كانت هناك نقطة تحول عندما تأرجحت الأحداث ضد محمد. حيث فاجأت قوة العدو المسلمين وهم يقيمون معسكرهم وأمطروهم بالسهام قبل أن تندفع عليهم سيراً على الأقدام وعلى ظهور الخيل من مواقع خفية، مجبرة الكثيرين على الفرار في ذعر واضطراب، حيث الخيول والابل تصطدم ببعضها البعض والصراخ وصيحات الرعب تملأ الأجواء.

تظهر هنا طبيعة محمد، لم يفزع ووقف شامخاً في الرِّكاب على ظهر بغلٍ أبيض في وسط الهرج والمرج، محمياً بشكل وثيق من قبل عشرة من الصحابة الأكثر ولاءً مع مائة آخرين يقاتلون حولهم ببسالة ضد أعدادٍ أكبر

بكثـير، لـوح محمـد بسـيفه وصرخ مـراراً عـلى جنـوده ليتوقفـوا ويجتمعـوا حولـه. ابـن عمـه أبـو سـفيان بـن الحـارث، الـذي كان قـد اعتنـق الإسـلام مؤخـراً، كبـح جمـاح بغـل محمـد الفـزع، مهدئـاً إيـاه فيمـا كانـت الفـوضى تُحيـط بـه [90]. كان لشـجاعة محمـد ودعواتـه الأثـر المنشـود. حيـث أعـاد القسـم الأكـبر مـن جيـش المسـلمين المذعـور تجميـع صفوفهـا وعـاد إلى القتـال، ليضمـن للنبـي محمـد نصراً كامـلاً بعـد وقـت قصـير.

الاخـلاص الشـخصي الـذي اسـتطاع محمـد أن يلهمـه كان شـيئاً حتـى أبـو سـفيان بـن حـرب (وهـو قريـب مقـرب لـ محمـد ولكنـه أيضًـا خصـم قـاد العديـد مـن الحمـلات العسـكرية الكبـيرة ضـده) كان عليـه أن يعـترف بـه. في عـام 625 الميـلادي تـم القبـض عـلى اثنـين مـن المسـلمين وتـم بيعهمـا كعبديـن في مكـة، وحكـم عليهمـا بالإعـدام انتقامـا لخسـائر في معركـة بـدر [91]. وواجـه كل مـن خبيـب بـن عـدي و زيـد بـن الدثنـة خطـر إعدامهمـا بـكل شـجاعة، حتـى بعـد علمهمـا بأنهمـا سـيموتان بشـكل مـروع بصلـبٍ مؤلـم وطعـنٍ بالرمـاح. وقـد رفـض كلاهمـا عروضـاً باطـلاق سراحهمـا نظـير تخليهمـا عـن الإسـلام وتنكرهمـا لمحمـد.

كانـا يُسـألان واحـداً تلـو الآخـر فيمـا اذا كانـا يتمنيـان لـو أن محمـد مكانهمـا، مقابـل عودتهمـا بأمـان إلى ديارهـم، وكانـا يجيبـان بأنهمـا لا يرغبـان بذلـك. ماتـا بشـكل مـروّع ولـم ينـددا بقائدهـم. ولاحقـاً ذكـر الأخنـف بـن شريـق أنـه لـم يـر أبـداً أبـاً مخلصـاً لابنـه كإخـلاص رفقـاء محمـد لـه. قـال أبـو سـفيان بـن حـرب والـذي اعتنـق الإسـلام في نهايـة المطـاف وأصبـح مسـلماً وقائـداً عسـكرياً عظيمـاً: «مـا رأيـت مـن النـاس أحـدا يحـب أحـداً كحـب أصحـاب محمـد محمـداً»[92].

****

التواصل المشترك

مما لا شك فيه أن محمد كان يتمتع بالتواصل المشترك: والقدرة على التواصل وجذب الناس العاديين من جميع مناحي الحياة، وكان هذا الأمر محوريًا في جاذبيته كقائد. أراد الناس اتباعه بسبب الود الذي كانوا يشعرون به معه، كان يعرفون أنه مختلف بالطبع، كان نبياً وقائداً، وبسلوك صالح على نحوٍ دقيق، لكنه لم يتبنى أبداً جو التفوق وبدا من نواحٍ عديدة أنه رجل عادي ذو مصالح عادية، ابتسم وبكى وأحب وكره أشياء كثيرة من نفس الأشياء كأي شخص آخر.

فعلى سبيل المثال، يُقال أنه أعجب بالمصارعة، وحتى كرجل في سن متقدمة، تمتع بالإثارة التي قد تبدو نشاطًا دنيويًا خالصاً. عندما كان في الخمسين من عمره تقريباً صادف وأن التقى بـ ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، أقوى رجل في قبيلة قريش آنذاك[93]، ولم يستطع أن يفوت فرصة مشاركة الإسلام مع ركانة، سائلاً إياه لماذا لم يقبل دعوته الدينية بعد، أجاب ركانة أنه قد يقبل إن تيقن من صحة رسالة محمد. وسأل محمد ركانة عما إذا كان سيقبل الرسالة إذا استطاع محمد أن يصارعه ويطرحه أرضاً، وافق ركانة، فقط ليجد نفسه مطروحاً أرضاً من قبل الرجل الذي يكبره سناً، وتحدى محمد بإعادة المحاولة وفعل وصرعه بدهشة. العديد من المسلمين اليوم أقل إلماماً بهذه القصة من الحديث الذي أصبح شائعاً والذي يعكس قدرة محمد على استخدام الأشياء اليومية لإيصال الحقائق الأخلاقية والروحية: «ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» [94]

كما استمتع محمد بسباقات الخيل والابل، وبالتالي نظم السباقات العامة، وأحيانًا كان يكافئ الفائزين من ماله الخاص [95]. تسابقت الخيول المدربة على مسافة ستة أميال بين الحَفياءِ وثنية الوداع، في حين تسابقت الخيول غير المدربة مسافة ميل واحد بين ثنية الوداع ومسجد بني زريق. قال النبي فيما بعد: « وَكُنْتُ فِيمَنْ أَجْرَى فَوَثَبَ بِي فَرَسِي جِدَارًا[96]» والحديث الشريف يصور الجو في سباقات كهذه بسخاء:

«كانـت لرسـولِ اللـهِ ﷺ ناقـةٌ تسـمَّى العضبـاءَ لاَ تُسـبقُ، فجـاءَ أعرابـيٌّ عـلى قعـودٍ فسـبقَها فشـقَّ عـلى المسـلمينَ، فلمَّـا رأى مـا في وجوهِهـم قالـوا : يـا رسـولَ اللـهِ سـبقتِ العضبـاءُ قـالَ : إنَّ حقًّـا عـلى اللـهِ أن لاَ يرتفـعَ مـنَ الدُّنيـا شيءٌ إلاَّ وضعَـه»[97].

آمـن النبـي أيضـاً بـأن الرمايـة هـي متعـة ممتعـة ومجزيـة في آنٍ واحـد، وينبغـي أن يتعلمهـا الصبيـان، كمـا تعلمهـا هـو نفسـه ومارسـها أيضـاً خـلال حياتـه:

«ارْمُـوا وَارْكَبُـوا، فَـإِنْ تَرْمُـوا خَـيْرٌ لَكُـمْ مِـنْ أَنْ تَرْكَبُـوا، وَقَـالَ: كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُـو بِـهِ ابْـنُ آدَمَ فَهُـوَ بَاطِـلٌ إِلَّا ثلاثـاً: رَمْيَـهُ عَـنْ قَوْسِـهِ، وَتَأْدِيبَـهُ فَرَسَـهُ، وملاعبتـه أَهْلَـهُ فَإِنَّهُـنَّ مِـنْ الْحَـقِّ[98]».

حتـى أنـه علّـم أنـه، إن تعلـم المـرء الرمايـة ثـم سـئم منهـا، فقـد رفـض أو صـار غـير شـاكراً عـلى مـا كان في الواقـع نعمـة [99].

وبطبيعـة الحـال، جلـب إتقـان الرمايـة فائـدة ملموسـة. فالجـراح التـي تسـببها السـهام تقتـل وتعطـل المزيـد مـن النـاس في معـارك العـرب أكثـر مـن السـيوف والحـراب. واسـتعداداً للقتـال كان محمـد يحـض بقولـه :» وَأَعِـدُّوا لَهُـمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِـنْ قُـوَّةٍ، ألا إنَّ الْقُـوَّةَ الرَّمْـيُ ألا إنَّ الْقُـوَّةَ الرَّمْـيُ، ألا إنَّ الْقُـوَّةَ الرَّمْـيُ [100]». وأضـاف: « مَـنْ عَلِـمَ الرَّمْـيَ ثُـمَّ تَرَكَـهُ فَلَيْـسَ مِنَّـا» [101].

ولأن سـباقات الخيـل والابـل وسـباقات الرمايـة كانـت مـن المهـارات المفيـدة جـداً للمحاربـين، وبالتـالي كانـت هنـاك حاجـة إلى إتقانهـا خـلال هـذه الحقبـة عندمـا كانـت الحمـلات تجـري كل عـام، فقـد سـمح محمـد بالمراهنـة عـلى مثـل هـذه الأنشـطة (مـع بعـض القيـود عـلى معرفـة النتيجـة المؤكـدة، ومـا اذا كان مـن الممكـن للمشـاركين وغـير المشـاركين وضـع رهانـات أو فوائـد).

وقـد تـم حظـر ألعـاب الحـظ والمقامـرة عـلى كل شـئ آخـر، اسـتناداً إلى الوحـي القرآنـي الواضـح والـذي لا جـدال فيـه. ومـع ذلـك، فـإن المهـارة والتدريـب في السـباقات ورمايـة القـوس والسـهام، بالإضافـة إلى الفائـدة المجتمعيـة الهائلـة مـن تعزيـز التفـوق في هـذه الأنشـطة القتاليـة الضروريـة، سـمح لمحمـد بتقديـم شيء مـن الاعفـاء. جـاء في الحديـث: « قـال رسـول اللـه ﷺ: لا سَـبْقَ إلاَّ في خُـفٍّ أَوْ في حَافِـرٍ أَوْ نَصْـلٍ»[102].

كان محمد يعرف بديهياً أن أفضل أمل له في بناء علاقة فعالّة بين القائد والأتباع هو خلق مجتمع متكافئ يستفيد فيه الجميع من الازدهار المتزايد لنظامه السياسي، حيث يرون جميعاً أنه بينهم ويسهل الوصول إليه.

كان التقارب يعني له الكثير. فكان يلقي التحية على كل من يمر به في الطريق، حتى الأطفال الذين كانوا يلعبون[103]، وكان معروفاً بأنه كان يخصص الوقت لأي شخص، بما في ذلك أو ربما على وجه الخصوص للفقراء والعاجزين.

وفي إحدى المرات، تواصلت معه في الطريق إمرأة تعاني من مشاكل عقلية وأخبرته بأنها بحاجة إلى شيء منه. ردّ عليها بلطف قائلاً: «: يا أمَّ فلان انظري أيَّ السكك شئتِ حتى أقضيَ لكِ حاجتَك» فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها [104]. وعلى نحوٍ مماثل، عندما بالَ أعرابي في المسجد ذات يوم، مما أثار غضب العديد من المسلمين، إلا أن محمد طلب بعدم منعه أو إيذائه. وبدلاً من ذلك، طلب إبريق ماء وأراقه في المكان الذي بال فيه الرجل، وأوضح لأتباعه أنه بُعث ميسراً وليس مُعسرا [105]. ووفقاً لأحد الأحاديث، فقد تحدث بهدوء إلى البدوي الذي يستذكر قائلاً: قام [محمد] وجاء إلي، بأبي وأمي، فلم يؤنب ولم يسب، فقال: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر اللَّه، والصلاة وقراءة القرآن»[106].

من الواضح أن محمد كان يحب الأطفال، وكثيراً ما شوهد وهو يلعب معهم أو يحملهم على كتفيه. وفي أحد الأيام بينما كان يخطب بأتباعه من على المنبر، لاحظ اثنين من أحفاده الصغار، الحسن والحسين يتمايلان ويتعثران، فنزل وأخذ يمسكهما وحملهما إلى المنبر[107]. كان مولعًا بشكل خاص بحفيدة واحدة هي أمامة، وفي إحدى المرات خلال صلاة الجماعة، التي كان يؤمها، استمتع باللعب معها:

«بينا نحنُ في المسجدِ جلوسٌ خرجَ علينا رسولُ اللَّهِ ﷺ يحملُ أمامةَ بنتَ أبي العاصِ بنِ الرَّبيعِ وأمُّها زينبُ بنتُ رسولِ اللَّهِ ﷺ وَهيَ صبيَّةٌ يحملُها على عاتقِهِ فصلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺ وَهيَ على عاتقِهِ يضعُها إذا رَكعَ ويعيدُها إذا قامَ حتَّى قضى صلاتَهُ يفعلُ ذلِكَ بِها»[108].

حتـى أنـه لاحـظ صبيـاً صغـيراً، وهـو شـقيق أنـس بـن مالـك ويكنـى بأبـي عُمـير،كان يحـب طائـراً صغـيراً، كان محمـد يسـتفسر عـن الطائـر في كل مـرة كان يـرى فيهـا الصبـي [109]. وقـد رسـخت هـذه الأعمـال في أذهـان أتباعـه اعتقادهـم بـأن الإسـلام للجميـع، حتـى للمهمشـين ومـن هـم أقـل منزلـة، وأن نبيهـم يهتـم لأمرهـم ولـه بالفعـل القُـدرة عـلى كَسْـب ودهـم.

كان محمـد يحـب اللباقـة والأخـلاق الحميـدة، لكنـه كان يكـره المكر والشـكليات والتسلسـل الهرمـي، أو أن يُعامـل بتملـق. فلـم يكـن يحـب أن ينحنـي لـه النـاس، أو أن يقبلـوا قدميـه أو أن يتملقـون لـه. بعـد هجرتـه إلى المدينـة أقـام في البدايـة في منـزل أبـي أيـوب، ونـام في الطابـق السـفلي بينمـا كان أبـو أيـوب وزوجتـه فوقـه. ووجـدا أنـه مـن غـير اللائـق أبـداً أن يكـون المـرء فـوق محمـد نبـي اللـه، وطلـب منـه تبـادل الأماكـن. لكنـه رفـض بـأدب وأخبرهمـا بأنـه يُفضـل الطابـق السـفلي لأن ذلـك أسـهل للضيـوف [110].

وعـلى الرغـم مـن اقـتراح أصحابـه أحيانـاً بـأن يرتـدي شـيئاً ملوكيـاً وخاصـة عنـد وصـول الوفـود إلا أنـه كان يرفـض ذلـك [111]، مفضـلاً ارتـداء الملابـس الخشـنة التـي يرتديهـا النـاس العاديـين. عندمـا كان يتلقـى هدايـا فاخـرة أو حتـى غـير ضروريـة، كان يسـارع في توزيعهـا عـلى رفاقـه أو عـلى الفقـراء. كان «عاديـاً» في طريقـة لباسـه ومتواضعًـا جـدًا في الطريقـة التـي حمـل بهـا نفسـه بـين رفاقـه لدرجـة أنـه عندمـا أتـى ذات مـرة بـدوي يدعـى ضمـام بـن ثعلبـة إلى المدينـة المنـورة ليسـأل النبـي المعـروف بعـض الأسـئلة، كا يتفحـص المسـلمين المجتمعـين في المسـجد ولكنـه لـم يتمكـن مـن تمييـز أي واحـد منهـم هـو محمـد [112].

ولعـل الأهـم مـن ذلـك هـو أن مجتمعـه اسـتطاع أن يـرى أنـه لـم يُثـرِ نفسـه عـلى حسـابهم أبـداً، بـل عـلى العكـس عمـل جاهـداً لرفـع مسـتوى معيشـة الجميـع والقضـاء عـلى الفقـر. وقـد فعـل ذلـك مـن خـلال التوزيـع الحكيـم والحصيـف لـكل مـن الصدقـات والـزكاه، التـي كانـت ضريبـة خيريـة إلزاميـة جمعهـا ممثلـو النظـام مقابل أجـر لتوزيعهـا عـلى الفقـراء والمحتاجين والمسـافرين الذيـن تقطعـت بهـم السـبل والمدينـين المعسريـن بالإضافـة إلى اسـتخدامها للمؤلفـة قلوبهـم ولتحريـر العبيـد، ولـشراء الأسـلحة والمعـدات الحربيـة في وقـت لـم يكـن فيـه جيـش دائـم..

لـــم يخصـــص محمـــد أي شيء لنفســـه أو لعائلتـــه أبـــداً، حتـــى أنـــه في احـــدى المناســـبات جعـــل حفيـــده الصغـــير الحســـن يبصـــق احـــدى التمـــور التـــي أُعطيـــت كصدقـــة قائـــلاً» «امـــا علمـــتَ أنَّـــا لا نـــأكلُ الصَّدقـــة!».[113]

وبصفتـــه نبيًـــا وزعيمًـــا كان يحـــق لـــه رســـميًا وفقًـــا للعـــرف العربـــي الحصـــول عـــلى مصـــدر دخـــل أســـاسي: خمـــس جميـــع الدخـــل المتحقـــق مـــن الحمـــلات [114]. وهـــذا الرقـــم أقـــل مـــن الربـــع الـــذي كان يأخـــذه عـــادة زعمـــاء عـــرب آخـــرون. والقـــرآن واضـــح أن هـــذا الخمـــس لـــم يكـــن لإثـــراء النبـــي محمـــد، بـــل كان لـــه ولأسرتـــه ليعتاشـــوا منـــه، وأيضـــاً وعـــلى وجـــه الخصـــوص، لتكريـــس مـــا رآه الأفضل لمحاربـــة الفقـــر والتفـــاوت:

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[115]

نحـــن نعلـــم مـــن الأحاديـــث ومصـــادر الســـيرة، خاصـــة لابـــن هشـــام والواقـــدي وابـــن ســـعد أن محمـــد كان منصفـــاً تمامـــاً في الطريقـــة التـــي خصـــص فيهـــا الأربعـــة أخمـــاس الأخـــرى مـــن أي مكافـــآت تولـــدت عـــن المعركـــة، بمنـــح المشـــاركين والمتغيبـــين المعتمديـــن حصصـــاً متســـاوية بغـــض النظـــر عـــن الحالـــة أو تصـــور القـــوة أو الضعـــف. كمـــا أوضـــح ذات مـــرة: «مـــا أُعْطِيكُـــمْ ولا أَمْنَعُكُـــمْ، إنَّمـــا أنَـــا قَاسِـــمٌ أَضَـــعُ حَيْـــثُ أُمِـــرْتُ»[116]. ونعلـــم أيضـــا أنـــه لـــم يأخـــذ أكثـــر مـــن حقـــه، وأنه أســـتخدم الخمـــس باســـتمرار للأغـــراض المذكـــورة في القـــرآن، باســـتثناء وحيـــد وهـــو المكافـــآت العرضيـــة لمـــرة واحـــدة للمحاربـــين مقابـــل الخدمـــة المتميـــزة أو للحـــث عـــلى الـــولاء مـــن القبائـــل الأخـــرى، التـــي دفعهـــا مـــن الخمـــس الخـــاص بـــه[117]. وفي بعـــض الأحيـــان مـــن الخمـــس اختـــار عـــدم قبـــول اســـتحقاقه (أي خمـــس الخمـــس) .[118]

وكثـــيراً مـــا كان يســـتخدم مالـــه الخـــاص لخدمـــة المجتمـــع بـــدلاً مـــن انفاقـــه عـــلى نفســـه. نعـــرف، عـــلى ســـبيل المثـــال، أنـــه وبعـــد طـــرد قبيلـــة بنـــي النضـــير مـــن المدينـــة، ممـــا أســـفر عـــن الاســـتيلاء عـــلى العديـــد مـــن ممتلكاتهـــم كحـــقٍ حـــصري لـــه (الطـــرد لـــم يـــأت مـــن خـــلال المعركـــة لذلـــك لـــم نكـــن غنائـــم عاديـــة)، أنفـــق محمـــد المـــال عـــلى الخيـــول والأســـحلة للجيـــش.[119]

كما عاش هو وأسرته ببساطة، فعلى سبيل المثال يأكلون الخبز المصنوع من الشعير المطحون بدلاً من الدقيق الأبيض المكرر، ليخصص الباقي للبرامج الاجتماعية. قبل وفاته بقليل، كان لديه القليل من المال المتبقي حتى أنه وضع درعه الحديدي كرهان مقابل الحصول على الشعير لعائلته [120]. وعندما مات، كل ما كان يملكه هو ذلك الدرع، وبغلته البيضاء، وقطعة أرض في خيبر كان قد حصل عليها كخُمس له، لكنه لم يعطها لأولاده، لأنه قال: «إِنَّا معشَرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ، ما ترَكْنا فهُوَ صدقةٌ» [121].

****

الرؤية الاستراتيجية

حقيقــة أن محمــد تجنــب مظاهــر القــوة والراحــة ورأى دوره كمســتخدَم، لا يعنــي أنــه كان يفتقــر إلى الطمــوح لمجتمعــه المتنامــي، بــل عــلى العكــس مــن ذلــك، فــأن رؤيتــه الإســتراتيجية، موهبتــه النــادرة المتمثلــة في قدرتــه عــلى رؤيــة النمــو المحتمــل للأفــكار الدينيــة التــي لــم تكــن تحظــى بشــعبية في البدايــة والتــي اعتبرهــا مهمــة، فضــلاً عــن الإطــار الاجتماعــي والســياسي الــذي ســيحتاج إلى إنشــائه للحفــاظ عــلى تلــك الأفــكار وحمايتهــا، هــي ميــزة قياديــة رائعــة. كان قــادرًا عــلى تقريــب المســتقبل، وكان لديــه رؤيــة تلســكوبية للجزيــرة العربيــة وللعالــم. كان بإمكانــه أن يــرى أشــياء بعيــدة كمــا لــو كانــت قريبــة، وكان قــادراً عــلى أن يجعلهــا تبــدو مرغوبــة وذات مغــزى للأخريــن لدرجــة أنهــم أرادوا القيــام بالرحلــة معــه.

حتــى عندمــا بــدأ دعوتــه وواجــه معارضــة شــديدة مــن المكيّــين التقليديــين الذيــن اتهمــوه بالمبتــدع لإدانتــه عبــادة الأصنــام التــي تكمــن في صميــم دور مكــة كمركــز للحــج، كان محمــد يتمتــع بــذكاءٍ ســياسي منقطــع النظــير وبصــيرة ثاقبــة. لقــد قلــب الاتهــام مــرة أخــرى عــلى المتهمــين، بحجــة مقنعــة هــي أن طريقتــه في فهــم وخدمــة اللــه لــم تكــن بدعــة ولا هرطقــة، لكنــه في الواقــع كان يحــاول فقــط اســتعادة مــا تعرضــوا لــه عــلى مــدى أجيــال مــن الخيانــة والأذى: الإرث المفقــود لإبراهيــم وإســماعيل ورســل اللــه الآخريــن. واضعــاً المكيــين في الخلــف، جاذبــاً الشــباب والإصلاحيــين والأتقيــاء والمتألمــين.

لقــد رأينــا فيمــا ســبق، في الطريقــة التــي اســتغل بهــا انتكاســة قصــيرة الأمــد في الحديبيــة لإيجــاد فرصــة طويلــة الأمــد، كيــف كان ســلوكه اســتراتيجياً وتطلعيّــاً. وحتــى خــلال لحظــات اليــأس القصــيرة، فإنــه لــم يــتردد أبــداً في اقتناعــه التــام أن، وبدعــم مــن اللــه، بوســعه إنشــاء مجتمعــاً توحيديــاً يضــم كافّــة الطوائــف، ويعمل فيــه «المؤمنــون»، حتــى لــو كانــوا مــن اليهــود والمســيحيين إن كانــوا متدينــين بالقــدر الــكافي وقبلــوا قيادتــه، ويمكــن لهــذا المجتمــع أن يزدهــر في خدمــة اللــه.. [122] وبغــض النظــر عــن القبيلــة أو المكانــة أو الثــروة، يمكــن لأي شــخص أن ينتمي لهــذا المجتمــع وأن يصبــح الجميــع موضــع اهتمــام . كانــت هــذه أشــياء مثــيرة، تجــذب وتلهــم المزيــد والمزيــد مــن النــاس مــع انتشــار الرســالة.

إن تصـور محمـد لمثـل هـذا المجتمـع أمـر لا جـدال فيـه. فبعـد وقـت قصـير مـن هجرتـه إلى المدينـة المنـورة عـام 622 ميـلادي، أسـس مـا يسـميه الكثـير مـن المسـلمين الآن بالدسـتور الجديـد للمدينـة المنـورة «دسـتور المدينـة»، وهـو ميثـاق أو معاهـدة بـين محمـد وأتباعـه – الذيـن كانـوا يعرفـون آنـذاك بالمهاجريـن والأنصـار- «المهاجـرون» المؤمنـون الذيـن سـافروا إلى المدينـة المنـورة و»الأنصـار» المؤمنـون الموجـودون هنـاك بالفعـل - وسـائر قبائـل المدينـة [123]. النـص موجـود في كتـاب «السـيرة النبويـة» لابـن هشـام وكتـاب الأمـوال لأبـي عبيـد القاسـم بـن سـلاّم.

ويختلـف الباحثـون حـول مـا إذا كانـت الأطـراف المختلفـة قـد وقعـت بالفعـل عـلى نسـخ، سـواء كان هنـاك اتفاقيـة واحـدة أو العديـد مـن الاتفاقيـات التـي جُمعـت لاحقـاً في سـجلات لتبـدوا وكأنهـا وحـدة متماسـكة، أو مـا إذا كانـت هنـاك مجـرد اتفاقيـات شـفوية بـين القـادة. ومـع ذلـك، فـإن قلـة مـن العلمـاء يجادلـون حـول الصفـة التاريخيـة للمعاهـدة.

اعتقـد محمـد أن اتفاقـه سـيكون بمثابـة أسـاس لنظـام حكـم دينـي جديـد مـن شـأنه أن يتجـاوز البنيـة القبليـة التنافسـية القديمـة عـن طريـق ربـط مختلـف القبائـل أو العشـائر الاسـلامية واليهوديـة والعربيـة الأخـرى في «مجتمـع واحـد [أُمـة] مـع اسـتبعاد الآخريـن» (انهـم أمـة واحـدة مـن دون النـاس)[124].

وبجمـع كل هـذه الكيانـات معًـا في اطـار مـا نطلـق عليـه الآن بالسياسـات الداخليـة والخارجيـة، احتـوى هـذا الاتفـاق عـلى تصريحـات الوحـدة والمسـاواة، والتوقعـات الأخلاقيـة، بـل وحتـى تعهـد الدفـاع المشـترك بـين الأشـخاص الذيـن لم ينضمـوا مـن قبـل: المؤمنـون الموحـدون مـن مختلـف الطوائـف الدينيـة والوثنيـين. لـم يكـن الاتفـاق يتحـدث عـن أي اندمـاج أو تهجـين عقائـدي أو طقـسي. وأكـدت الاتفاقيـة أن لليهـود دينهـم وللمسـلمين دينهـم[125]، لكنهـا أوجـدت أيضًـا إطـارًا شـاملاً للتعايـش والتسـامح ولمعايـير السـلوك الأخلاقـي وحـل النزاعـات والدعـم المتبـادل. وحـين نضـع في اعتبارنـا أن محمـد كان مؤخـرًا شـخصية مضطهـدة ومحـل سـخرية في مكـة، ثـم وافـداً جديـد إلى المدينـة المنـورة مـع أقـل مـن مائتـي تابـع بـين عـدة آلاف مـن المواطنـين الآخريـن الذيـن لا يزالـون يتبعـون زعمائهـم لبعـض الوقـت، فـلا يسـعنا إلا أن نسـتنتج أن رؤيتـه الإسـتراتيجية كانـت تتسـم بقـدر هائـل مـن الإبـداع والجـرأة والتطلـع إلى المسـتقبل.

أدرك محمد أن رؤيته كانت عظيمة. ولم يكن يسعى فقط لإصلاح مكة أو المدينة، وإعادتهما إلى التقوى والتوحيد الخالص، بل كان يسعى أيضاً إلى إيجاد طريقة يتعايش فيها البشر جميعاً. ليبدأ أولاً بعرب الحجاز- ومن ثم ينشر البشائر والتحذيرات لجميع الناس في كل مكان. كما قال «... وبعثت إلى الناس كافة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة»[126]

لقد كانت هذه بالفعل رؤية أعظم بكثير مما امتلك عيسى. ادعى عيسى بأنه جاء فقط من أجل خراف إسرائيل الضالة ولم ير أي إمكانية أو قيمة لاكتساب أي قوة دنيوية. جاء محمد برسالة ليس فقط للمكيين أو أهل المدينة، وليس فقط لعدد العرب المتزايد من القبائل الأخرى الذين أقام معهم تحالفات، ولكن إلى جميع البشر، وبعد كل شيء يقول القرآن»

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[127]

ومن خلال الاقتناع وقوة الشخصية والجاذبية تمكن محمد من اقناع أعدادٍ متزايدة من الناس بقبول هذه الرؤية العالمية الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية. كان التقدم خلال السنوات الأولى في المدينة بطيئاً ومتعثراً، على الرغم من أن محمد استخدم فهمه العميق للنظام القبلي إلا أنه تجنب أن يعمل كشيخ بنفسه، مما زاد من دوره القيادي ليتجاوز الدور المحدود كوسيط الذي ربما كان أهل المدينة قد توقعوه له في الأصل. بمهارة دبلوماسية بديهية واستثنائية، تفاوض مع شبكة من التحالفات المتزايدة الاتساع بين مجتمعه الإسلامي (وليس المدينة المنورة في حد ذاتها) وبين البلدات والقبائل المجاورة. وكغيره من القادة العرب، شرع أو قبل بعددٍ من التحالفات الذكية والفعالة من خلال أواصر الزواج.

بقيت القبائل اليهودية غير متجاوبة دينياً وشعرت بالنفور من رؤية مشاركتها في هذا المجتمع بنفس الشروط التي وضعها محمد. على الرغم من اعتناق العديد من اليهود للإسلام أو ارتباطهم بصداقات مع محمد والمسلمين، ومع قبول القرى والبلدات اليهودية المتناثرة لسلطته والعيش بدون مضايقات، إلا أن قيادة القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث في المدينة أخذت شعوبها إلى أنواع مختلفة من التمرد. وكانت النتيجة أنه وبعد أن أقام محمد قرابة خمس سنوات في المدينة، كان عدد اليهود الذين ما زالوا يعيشون هناك قليل نسبياً ولم يكن أي منهم يعيش في الوحدات القبلية.

ومـع ذلـك عـاش الهيـود في أماكـن أخـرى في الجزيـرة العربيـة، كمـا عـاش المسـيحيون، وبحلـول عـام 630 ميـلادي، عندمـا «فتـح» جيـش تحالـف محمـد المؤلـف مـن عـشرة آلاف جنـدي مكـة في عمليـة تحريـر غـير دمويـة تقريبـاً، كانـت هنـاك نسـخة شـبه كاملـة مـن رؤيـة محمـد الجريئـة لمجتمـع في معظـم أنحـاء شـبه الجزيـرة العربيـة. عاشـت الأقليـات اليهوديـة والمسـيحية دون مضايقـات مقابـل دفـع الجزيـة التـي أعفتهـم مـن الخدمـة العسـكرية ومـن دفـع ضريبـة الـزكاة الإلزاميـة. يجـدر هنـا التأمـل في تحـول حظـوظ محمـد السياسـية: ففـي العـام 622 هاجـر هـو وحـوالي سـبعين مسـلمًا مـن مكـة إلى المدينـة المنـورة وبعـد ثمانـي سـنوات فقـط تمكـن محمـد مـن قيـادة عـشرة آلاف جنـدي في الاتجـاه الآخـر. لقـد كان تغـيراً قويـاً وملحوظـاً.

ويتعـين علينـا أن نقـاوم إغـراء عـزو هـذا النجـاح إلى امتـلاك محمـد لـشيء أشـبه بالفهـم الحديـث لمـا نسـميه اليـوم «الإسـتراتيجية»، وخاصـة إذا كنـا نعنـي الإسـتراتيجية السياسـية أو الإسـتراتيجية العسـكرية. وسـيكون هـذا ببسـاطة مفارقـة تاريخيـة.

واليـوم نفهـم الاسـتراتيجية عـلى أنهـا تعنـي وضـع أهـداف معقولـة وقابلـة للتحويـل وعاليـة المسـتوى وطويلـة الأمـد. وهـذه هـي «الغايـات» التـي يتركـز الجهـد مـن جلهـا عـلى أسـاس «الوسـائل» المحسـوبة بعنايـة، والتـي هـي النـاس والمـوارد المتاحـة، وهـي الخطـوات المتسلسـلة التـي يلـزم اتخاذهـا لتطبيـق الوسـائل بالكميـة المثـلى في المـكان والوقـت المناسـبين.

لـم يقـدم محمـد أي إطـار اسـتراتيجي كهـذا لأنشـطته. لـو فعـل ذلـك، وطبـق عليـه حكمـاً عاديـاً، كان سـيدرك عـلى الفـور أن هدفـه النهائـي المنشـود، والـذي هـو خضـوع كل البـشر للإلـه الواحـد، لـن يكـون قابـل للتحقيـق في حياتـه بالوسـائل المتاحـة لـه.

مـن الواضـح أنـه سـعى إلى تحقيـق هـذا الهـدف المنشـود. يُسـمي القرآن نفسـه «تذكـرة للإنسـانية» «إن هـو إلا ذكـرٌ للعالمـين» وكمـا رأينـا أعـلاه، ينـص عـلى أن محمـد إن هـو إلا رحمـة للعالميـن [128]. يتحـدث القـرآن عـن اليـوم الآخـر، ﴿يَـوْمَ يَقُـومُ النّـاسُ لِـرَبِّ الْعَالَمِيـنَ﴾ [129]. في 306 آيـة مختلفـة يخاطـب القـرآن جميـع البـشر بشـكل مبـاشر بــ يـا أيهـا النـاس .

كان مـن الطبيعـي والمنطقـي أن يتـوق محمـد لهـذا الهـدف المنشـود. وفي النهايـة فـإن الشرائـع مـا هـي إلا أنظمـة معتقديـة متماسـكة تقـوم عـلى القيـم الكونيـة، أي أنهـا تعتمـد عـلى فكـرة أن مـا في القلـوب مـن أشـياء، والتـي قـد تكـون الإيثـار أو الحريـة أو المسـاواة أو الأمـان أو مزيجًـا مـن هـذه الأشـياء، مفيـد ليـس فقـط لبعـض النـاس ولكـن لجميـع النـاس وفي كل مـكان. لـم يعتقـد كارل ماركـس أن بعـض النـاس فقـط هـم المسـتفيدون مـن الشـيوعية، بـل كان يعتقـد بـأن الجميـع سيسـتفيد. ولا يعتقـد الديموقراطيـون أن الديمقراطيـة مفيـدة فقـط للنـاس في بلادهـم، بـل اعتقـدوا بأنهـا سـتكون مفيـدة لجميـع النـاس في كل مـكان. وبالمثـل، أراد محمـد كل الخـير لجميـع البـشر في كل مـكان. كان يؤمـن أن هـذه الأشـياء لا يمكـن أن توجـد إلا إذا خضـع النـاس للإلـه الواحـد، وعنـى هـذا في رأيـه أن كل النـاس في كل مـكان يجـب أن يخضعـوا للإلـه الواحـد.

إن طبيعـة المعتقـد الدينـي العميـق هـي أن الاعتبـارات المنطقيـة حـول الغايـات والوسـائل والطـرق غـير مهمـة نسـبيًا، ومـن المؤكـد أنهـا ضعيفـة بالمقارنـة مـع الاعتقـاد بـأن قـوة اللـه لا حـدود لهـا وأنـه قـادر عـلى خلـق التغيـيرات أو تحقيـق النتائـج التـي سـيراها الاسـتراتيجيون غـير المتدينيـين أنهـا مسـتحيلة. رأى محمـد اللـه بهـذه الطريقـة، واعتقـد أنـه، كنبـي اللـه، يمكنـه حتـى السـعي لتحقيـق أهـدافٍ اسـتراتيجية قـد تبـدو سـخيفة للآخريـن.

وفي النهايـة، آمـن محمـد أنّ للـه خطـة شـمولية، وأن مسـؤوليته الخاصـة هي في تحقيقهـا. وفي الواقـع كان يؤمـن بمـا أكـده القـرآن بـأن اللـه كان أفضـل المخططين «واللـه خـير الماكريـن»[130]. لهـذا اعتـاد أن يدعـو بـهذا الدعـاء: «ربِّ أَعِنِّـي ولا تُعِـن عـليَّ، وانصرنـي ولا تنـصر عـليَّ، وامكـر لي ولا تمكـر عـليَّ، واهدنـي ويـسِّر هُـدايَ إليَّ، وانصرنـي عـلى مَـن بغـى عـليَّ، اللهـم اجعلنـي لـك شـاكرًا، لـك ذاكـرًا، لـك راهبًـا، لـك مِطواعًـا، إليـك مُخْبِتًـا، أو مُنِيبـا، رب تقبَّـل توبتـي، واغسـل حَوْبتـي، وأجـب دعوتـي، وثبِّـت حُجَّتـي، واهـدِ قلبـي، وسـدِّد لسـاني، واسْـلُلْ سَـخِيمةَ قلبـي»[131].

وهـذا لا يعنـي أن محمـد لـم يُخطـط بنفسـه، مـن المؤكـد أنـه فعـل ذلـك. كمـا لا يعنـي أيضـاً أنـه لـم يُفكـر في الجوانـب العمليـة للغايـات والوسـائل والطـرق فيمـا يتعلـق بالخطـوات المتسلسـلة التـي يتعـين اتخاذهـا في سـعيه إلى تحقيـق

أهدافــه الكبــيرة. وقــد أدرك أن الاجــراءات تخلــق فرصــاً، وأنــه لتحقيــق أقــصى اســتفادة مــن هــذه الفــرص لا بــد مــن وجــود خطــط ومــوارد. فقــد أمــر بإجــراء تعــداد للمســلمين في المدينــة المنــورة في وقــتٍ مــا، وهــذا دليــل عــلى أنــه كان يحــاول تحديــد رأس المــال البــشري الــذي يتعــين عليــه أن يلعــب بــه[132]. كان يحتفــظ بقوائــم شــعبه ويقــوم بتحديثهــا بشــكل دوري ليتســنى لــه معرفــة القــوة التــي يســتطيع توظيفهــا عــلى مشــاكل معينــة [133]. وقــد أبقــى نفســه عــلى إطــلاع عــلى المــوارد الماليــة لمجتمعــه، حتــى أنــه كان يتحقــق مــن حســابات الــزكاة مــع الجبــاة عندمــا كانــوا يحــضرون لــه المدفوعــات [134]. خطــط بعنايــة في كل مرحلــة مــن مراحــل نمــو نظامــه وبمــوارد متناســبة لمــا يحتــاج إليــه للوصــول إلى المرحلــة التاليــة. و تكشــف المصــادر الأولى عــن العديــد مــن الحــالات التــي ابتكــر فيهــا سلســلة مــن الإجــراءات التــي مــن شــأنها أن تقــدم لــه مــا يريــد خطــوة بخطــوة.

فعــلى ســبيل المثــال وخــلال العامــين الحاســمين 627 و 628 ميــلادي واجــه خصومــاً أو أعــداءً إلى شــمال المدينــة المنــورة وإلى جنوبهــا. كان همــه الرئيــسي في الشــمال الشرقــي هــو قبيلــة غطفــان القويــة، التــي اتحــدت بفتــور مــرة واحــدة مــع المكيــين مــن قبــل فيمــا أصبــح معركــة الخنــدق في 627 الميــلادي. في ذلــك الوقــت انهــار التحالــف بســبب عــدم الالتــزام، ورداءة الطقــس، وســوء الامــدادات والمشــاحنات بــين غطفــان وقريــش (بتحريــض جزئــي ممــن دســه محمــد داخــل التحالــف). كان أيضــاً في شــمال المدينــة واحــة خيــبر اليهوديــة المحصنــة، حيــث اســتقر أفــراد مــن بنــي النضــير بعــد أن طردهــم محمــد مــن المدينــة في 625 ميــلادي بتهمــة الخيانــة خــلال معركــة أحــد. والذيــن ظلــوا بطبيعــة الحــال معاديــين وحاولــوا بتعصــب حــث وإغــراء القبائــل العربيــة الأخــرى للانضمــام إليهــم ضــد محمــد. وقــد تمكــن النبــي مــن التقليــل مــن احتمــال أو تأثــير مثــل هــذه التحالفــات مــن خــلال شــن غــارات عــلى تلــك الجماعــات، وغالبًــا مــا كان بأخــذ ماشــيتهم كتحذيــر لعــدم التحالــف مــع أعــداء الإســلام، ومــع ذلــك، بقــي الخطــر قائمــاً. وإلى الجنــوب مــن المدينــة كانــت مكــة، والتــي كانــت لا تــزال ملتزمة بتدمــير نظــام حكــم محمــد المتنامــي. بالنســبة لـــ محمــد كان تطهــير مكــة مــن عبــادة الــشرك مطمحــاً رئيســياً وكان يهــدف إلى إعــادة الكعبــة إلى اللــه الواحــد.

يجب علينا ألا نقلل من خطورة وضع محمد. ففي أذهان أعدائه ووفقاً لقواعد الحرب القبلية العربية [135]، فقد كان الحل الوحيد هو القضاء على مجتمعه. قال زعيم قريش أبو سفيان بن حرب لمحمد في رسالة بعد معركة الخندق واصفاً عزمه على تدمير النظام الإسلامي: «باسمك اللهم، فإني أحلف باللات والعزى [آلهته الوثنية] لقد سرتُ إليك في جمعنا هذا، وإنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلك»[136]. وفي مرحلة ما أقسم أبو سفيان على الامتناع عن إقامة علاقات جنسية إلى أن يهاجم نظام الحكم الإسلامي ويهزمه [137]. لم تكن الهزيمة العسكرية هي ما يسعى إليها فقط بل «الإبادة» كما فهم محمد تماماً[138].

وكان مصدر القلق البالغ لدى محمد هو أن تحالفاً جديداً، ربما يضم مكة وخيبر، سيتشكل ضده. وهذه المرة أكبر مما يمكن أن تتحمله قواته. علاوة على ذلك، فإذا أخرج كامل قوته من المدينة للتعامل مع خيبر في الشمال، فقد يقتحم المكيّون الشمال ويستولون على المدينة الخالية من الجنوب. وكان يعلم أيضاً أنه لا يستطيع أن يقود جيشاً جنوباً من المدينة إلى مكة، بينما يستطيع أحد الأعداء أو كلاهما في الشمال -غطفان ويهود خيبر الساخطين- الزحف إلى المدينة التي لا تتمتع بالحماية. ولذلك كان عليه أن يُنظم مجموعة من التحركات التي من شأنها أن تُزيل هذه التهديدات نهائيا وعلى نحوٍ حاسم [139].

جاءت هذه الفرصة عندما قاد صفوف الحجاج العزّل نحو مكة لأداء العمرة في أوائل عام 628 ميلادي. غادر المدينة بحراسة جيدة ولم يأخذ معه سوى ألف وأربعمائة رجل فقط. وكما ذكر أعلاه، أوقفت قريش الحجيج في الحديبية شمال مكة. ومع ذلك شعرت قريش بأنها مضطرة لاختيار الدبلوماسية بدلاً من السماح للمسليمن بدخول مكة دون عوائق الأمر الذي يجعلهم يبدون ضعفاء، أو محاربة الحجاج الأمر الذي من شأنه أن يضر بزعمهم بأنهم أوصياء محايدين للحجاج يستقبلون جميع الحجاج ويسكنونهم ويحمونهم. وفي محاولة من قريش لإظهار عزمها ولكن دون التسبب في إراقة الدماء، وافقت على توقيع معاهدة مع محمد تمنعه من دخول مكة تلك السنة، لكنها وعدته بالسلام لمدة عشر سنوات والحق في

أداء فريضة الحج في العام التالي، وقد اعتقدوا بشكل صحيح أن هذا سينهي أخيراً غارات المسلمين على القوافل المكية. والأهم من ذلك أن معاهدة الحديبية تضمنت بنداً يبدو أنه مُجدٍ، يسمح لكلا الطرفين بتشكيل تحالفات خاصة بهما دون انتهاك السنوات العشر من السلام المكفولة بينهما.

في حين أن فرض المعاهدة كان في نظر أصحاب محمد وأتباعه على أنه اذلال، إلا أن محمد رأى فيها مصالح استراتيجية هائلة محتملة. فالمعاهدة لم تمنحه رسمياً فقط مكانة متساوية مع قادة مكة، بل أعطته أيضاً حرية التحالف مع القبائل البدوية وغيرها من القبائل، والتي كان بإمكانه إغوائها واحدة تلو الأخرى بعيداً عن التأثير المكيّ. والأهم من ذلك أن المعاهدة كانت تعني أن بإمكانه الزحف شمالاً ضد خيبر وتدميرها كونها مركزاً للعداء دون أي تهديد بشن هجوم من الجنوب من قبل المكيين.

وهذا ما فعله بالضبط بعد عودته إلى المدينة، تحرك فوراً ضد خيبر في حصار انتصاري وبالتالي أزال وبشكل دائم التهديد الأخطر في الشمال. كانت خيبر قبل سقوطها قد ناشدت غطفان للمساعدة لكن دون جدوى، ووعدتهم بنصف محصولها من التمر كدفعة [140]. خدع محمد غطفان ليصدقوا بأن مدينتهم تحت تهديد وشيك، لذلك رفضوا الانضمام إلى القتال. عندما علم محمد بعرض خيبر لـ غطفان، فرض هذه النسبة من الانتاج على أنها الجزية المطلوبة له. عندما سمع يهود فدك (وهي واحة مزدهرة تقع شمال شرق خيبر) بهذا الترتيب سارعوا بعمل معاهدة مع محمد ووعدوه بالمبلغ نفسه [141].

بذكاء عاطفي كبير، أعطى محمد غنائم كثيرة أُخذت من خيبر إلى أولئك الذين قاموا برحلة الحديبية، بغض النظر عمّا اذا كانون قد قاتلوا بالفعل في خيبر(142). كانت هذه طريقته في تهدئة أي قلق متبقي بشكلٍ دائم. كما تزوج على الفور بـ صفية بنت حيي بن الأخطب [143]، وهي الابنة الأرملة لحاكم خيبر المقتول (وزعيم بني النضير المطرود من المدينة)، مما جعله وريثاً فعلياً للقيادة السياسية في خيبر [144]. يذكرنا زواجه من صفية كعمل من أعمال الدبلوماسية القبلية بزواجه السياسي من جويرية بنت الحارث، إبنة زعيم بنو المصطلق، والتي تزوجها محمد بعد هزيمة قبيلتها في عام 627 ميلادي. والآن وكونه قريب عن طريق الزواج، استطاع محمد أن يحرر

جميع أسرى بني المصطلق من العبودية: مائة عائلة [145]. وسرعان ما انضم بنو المصطلق إلى النظام الإسلامي.

كما تطلع محمد استراتيجياً إلى أفضل السبل لإدخال القبائل الجنوبية في نظامه السياسي المتنامي على نحوٍ مستمر. واعترافاً منها بالمكانة الرفيعة التي منحتها معظم القبائل والجماعات للقبيلتين الأكثر استقراراً ونفوذاً، قريش في مكة وثقيف في الطائف، فقد استنتج أنه إذا تمكن من الفوز على هاتين القبيلتين، فإنه سوف يجلب أيضاً الجماعات القبلية التابعة وحلفاء قريش والطائف. وهذ بالضبط ما أنجزه في عام 630 ميلادي. عندما سار نحو مكة دخلت قريش الإسلام فوراً، لتلحقها بفترة وجيزة ثقيف التي رأت أهمية الانضمام إلى ما أصبح وبشكل جليّ العرض الوحيد في المدينة. وباستثناءات قليلة، حذت جميع القبائل التابعة حذوهما في الوقت المناسب.

وبالتالي، فإن قدرة محمد على رؤية المستقبل البعيد، وتحديد أولويات الأنشطة وترتيبها لخلق العلاقات السببية والظروف التي ينشدها، وتقدير التكاليف والمنافع بشكلٍ فعّال، ما هو إلا خير شاهد على حنكته السياسية الاستراتيجية الإبداعية والفطنة والبراغماتية.

****

الاتصال الاستراتيجي

يمكن أن يعزى قدر كبير من هذا النجاح الاستراتيجي، الذي استمر حتى وفاة محمد في عام 632 ميلادي، وبالطبع بعد ذلك بتوجيهات خلفائه، إلى قدرته ليس فقط على شرح إرادة الله (لأن أتباعه كانوا ينظرون إليه على أنه الإناء الأخير للبشرية لفيض الوحي الإلهي) ولكن أيضاً إلى قدرته اللافتة للنظر على إيصال رؤيته الاستراتيجية الخاصة واقناع الناس بأنها تعد بمستقبلٍ واعد.

يرى المسلمون أن كلام محمد يأتي من مصدرين متميزين هما: من الوحي الإلهي ومن عقله كمصدر إلهام. وأياً كانت الطريقة التي يختار بها قراء هذا الكتاب رؤية كلماته المنطوقة، المسجلة في كل من القرآن والأحاديث النبوية، لا يسعنا إلا أن نستنتج أنه لا يوجد أي إنسان آخر تقريباً تحدث بتأثير واسع النطاق ومستمر مثله.

وحتى غير المسلمين الذين يرفضون وجهة النظر القائلة بأن الله نفسه ألف الكلمات القرآنية التي تحدث بها محمد لا يمكنهم أن ينكروا أن القرآن هو ثاني أكثر الكتب قراءة على نطاق واسع في العالم (الذي لم يسبقه في جمهور القرّاء سوى الكتاب المقدس المسيحي) وأن الملايين من الناس حفظوه كلمة بكلمة (على عكس الكتاب المقدس) وأن ما يقرب من مليار شخص يعيشون وفقاً لكلماته.

أما كلمات محمد «الأخرى» (أي تلك التي لا تُعتبر كلمات الله) فهي أقل شهرة بقليل من قبل المسلمين. وعلى الرغم من أنها لا تُعتبر مقدسة (ككتاب مقدس) إلا أن أقوال محمد المسجلة هي أساس الممارسة اليومية لأصول الدين التي يفسرها القرآن. لذا فمن المعقول أن نستنتج أن كلمات محمد الفعلية المنطوقة هي من بين الكلمات الأكثر شهرة واقتداءً في تاريخ البشرية.

وبتعزيز الرسالة القرآنية بسلاسة وبشكلٍ مستمر في الأسلوب والصور، استخدم محمد لوحة غنية من الألفاظ والأمثال والتشبيهات والاستعارات التي كان ينطق بها مراراً وتكراراً ويسهل تعلمها واستذكارها لينقل رؤيته

الدينيــة والاجتماعيــة والثقافيــة والسياســية المتعــددة الأوجــه مــن خــلال مجموعــة صغــيرة مــن الرســائل الرئيســية عــلى نحــوٍ مدهــش.[146]. ومــن ضمــن هــذه الرســائل التــي يتــم التواصــل بهــا باســتمرار، وحدانيــة اللــه والإلتــزام بإرضــاء اللــه مــن خــلال العبــادة والســلوك الاخلاقــي الدقيــق، ومــن خــلال دعــم التماســك الاجتماعــي، والكــرم المجتمعــي لمحاربــة الفقــر، ومــن خــلال القيــام بأعمــال الخــير الدائمــة للبــشر الأخريــن الذيــن يمكــن التعايــش معهــم، ومــن خــلال القتــال الشــجاع والحــازم لأولئــك الذيــن يختــارون العــدوان أو يرفضــون التعايــش.

ومثــل عيــسى، اســتطاع محمــد أن يرســم الصــور بالكلمــات. وهكــذا نتعلــم مــن محمــد أن تذكــر اللــه طــوال اليــوم كمــا في حديثــه لبــدوي عــلى نحــوٍ مشــجع لتحمــل جفــاف الصحــراء «لا يــزال لســانك رطبــاً مــن ذكــر اللــه»[147]. ونتعلــم أن القائــد ليــس فقــط «راعيــاً» كمــا أشرنــا أعــلاه، بــل أيضــاً «درعــاً لشــعبه» الــذي سيســتفيد دائمــاً مــن هــذه الحمايــة[148]. ونتعلــم أن الشــخص الــذي «يقطــع الرحــم» (العلاقــات الأسريــة) ســوف يحاســب عــلى ذلــك[149]. وكلمــات الغلظــة والغيبــة هــي مريــرة جــداً لدرجــة أنهــا «لــو مزجــت بمــاء البحــر لمزجتــه»[150]. وعــن الجنــة قــال «الجنــة تحــت أقــدام الأمهــات»[151] وأنهــا أيضــاً «تحــت ظــلال الســيوف»[152].

وفي جملــة واحــدة اســتطاع أن ينقــل حقائــق عميقــة. أخــبر الأنصــار ذات مــرة، بعــد أن وصلــه خــبر بــأن الجزيــة قــد وصلــت مــن البحريــن: «واللــه مــا الفقــر أخــشى عليكــم، ولكنــي أخــشى أن تبســط عليكــم الدنيــا كمــا بســطت عــلى مــن كان قبلكــم،...»[153]. وعــلى نحــوٍ مماثــل، شــدد عــلى أملــه في أن تُعامــل النســاء بعــدل ولطــف، وأوضــح بــذكاء وجهــة نظــره هــذه:

جَــاءَ رَجُــلٌ إِلَى رَسُــولِ اللَّــهِ ﷺ فَقَــالَ مَــنْ أَحَــقُّ النَّــاسِ بِحُسْــنِ صَحَابَتِــي قَالَ» أُمُّكَ».قَــالَ ثُــمَّ مَــنْ قَال»ثُــمَّ أُمُّــكَ». قَــالَ ثُــمَّ مَــنْ قَــالَ» ثُــمَّ أُمُّــكَ» .قَــالَ ثُــمَّ مَــنْ قَــالَ» ثُــمَّ أَبُــوك».[154].

لا شــك أن محمــد أدرك التأثــير الــذي يمكــن أن تحدثــه الكلمــة المنطوقــة. وعلّــق في أحــد الأحاديــث عــلى قــوة وبلاغــة الــكلام. بعــد ســماعه لزائريــن مــن المــشرق: «إِنَّ مِــنَ الْبَيَــانِ لَسِــحْرًا»[155]. عــلى الرغــم مــن أنــه ربمــا كان قصــد ذلــك بشــكل مختلــف للطريقــة التــي نســتعمل بهــا كلمــات كهــذه الآن، فربمــا كان يصــف نفســه بقولــه إن مــن البيــان لســحر.

واســـتخدم حججـــاً قصـــيرة وملخصـــة ومنطقيـــة، معتـــبراً نفســـه مبـــاركًا لأنـــه تلقـــى مـــن اللـــه موهبـــة القـــدرة عـــلى التحـــدث بإيجـــاز مـــع إبقـــاء المعنـــى رغـــم ذلـــك شـــاملاً (فُضِّلْـــتُ عَـــلَى الأَنْبِيَـــاءِ بِسِـــتٍّ أُعْطِيـــتُ جَوَامِـــعَ الْكَلِمِ...الـــخ) [156]. ومـــع ظهـــور الصـــدق واليقـــين عـــلى حـــد ســـواء اللذيـــن جعـــلا مـــن الســـهل تصديقـــه والوثـــوق بـــه، كان خطيبـــاً رائعـــاً ولـــه حضـــور كبـــير وتأثـــير تحويـــلي. في خطبـــه الصغـــيرة التـــي تناولـــت أفـــكاراً كبـــيرة حـــول تأســـيس وتنميـــة مجتمـــع عـــادل ومتكافـــئ بحيـــث ينتفـــع الجميـــع، أقنعهـــم بـــأن هنـــاك رؤيـــة واحـــدة قابلـــة للتطبيـــق للجزيـــرة العربيـــة والعالـــم: الرؤيـــة التـــي أعلـــن عنهـــا بشـــكل مقنـــع.

لا شـــك أن قـــرار محمـــد بإلقـــاء خطبـــة كل يـــوم جمعـــة كان في المقـــام الأول لتعليـــم ونـــشر القـــرآن، لكنـــه أيضـــاً منحـــه منـــبراً قويـــاً للوصـــول لأتباعـــه بشـــكلٍ مبـــاشر بأجندتـــه الكبـــيرة [157]. وفي أيـــام الجمـــع ألقـــى خطبـــاً قصـــيرة وواضحـــة وصارمـــة، كانـــت في الوقـــت نفســـه ذات طابـــعٍ دينـــي واجتماعـــي وثقـــافي وســـياسي، وفي تصـــوره، كانـــت حركتـــه الإصلاحيـــة الجديـــدة شـــمولية، شـــملت كل هـــذه العنـــاصر مـــع عـــدم وجـــود فاصـــل واضـــح بينهـــا. مـــن خـــلال تجميـــع مقتطفـــات مـــن الأحاديـــث يمكننـــا أن نـــرى في هـــذه الخطـــب الصـــورة الأكـــبر التـــي يتـــم التأكيد عليهـــا مـــراراً وتكـــراراً حتـــى يفهـــم الجميـــع مـــا كان اللـــه ومحمـــد يحـــاولان تحقيقه، وكيـــف يتكيـــف النـــاس مـــع تلـــك الخطـــة كأفـــراد وكمجتمـــع، ومـــا كان مطلوبـــاً منهـــم. وقـــد خلـــق هـــذا فهمـــاً مشـــتركاً للأفـــكار الكبـــيرة، وللأشـــياء التـــي جلبـــت معنـــى وتماســـكاً للأشـــخاص الذيـــن غالبـــاً مـــا شـــعروا بعـــدم القـــدرة عـــلى فهـــم المجتمـــع الفوضـــوي المربـــك الـــذي ولـــدوا فيـــه.

ومـــع ذلـــك نجـــد أيضـــاً في الخطـــب أمـــوراً عمليـــة هائلـــة، كالتحذيـــرات مـــن احتمـــال القيـــام بأنشـــطة مســـتقبلية معينـــة[158] وتوجيهـــات حـــول كيفيـــة إبـــرام اتفاقيـــات وعقـــود عادلـــة وشـــفافة مـــع الآخريـــن، وكيفيـــة التعامـــل مـــع المجاعـــة أو طلـــب الســـقيا مـــن اللـــه، وكيفيـــة التعامـــل عســـكرياً مـــع أي تهديـــد (وأعـــدوا لهـــم مـــا اســـتطعتم مـــن قـــوة)[159]، وحتـــى في كيفيـــة التـــصرف بشـــكلٍ لائـــق في الحـــرب، وتجنـــب أهوالهـــا كالقســـوة والتشـــويه [160].

تخبرنـــا الأحاديـــث أن بعـــض خطـــب الجمعـــة التـــي ألقاهـــا محمد قـــد كتبـــت[161]، ربمـــا للأجيـــال اللاحقـــة، ولكـــن أيضـــاً ليتمكـــن أولئـــك النـــاس الذيـــن يســـتطيعون

القـراءة، والذيـن كانـوا مجـرد أقليـة صغـيرة جـدًا في المدينـة، مـن سـماع كلمـات محمـد حرفيـاً. ومـن المفـترض أن نسـخاً مكتوبـة أرسـلت أيضـاً إلى مراكـز ومجتمعـات إسـلامية أخـرى في الجزيـرة العربيـة مـن أجـل الاسـتفادة منهـا. ونعلـم مثـلاً أن محمـد نفسـه قـد أمـر أن تـدون أول خطبـة لـه في مكـة بعـد فتحهـا لأبـي شـاه اليمانـي، رجـلٌ مـن اليمـن ليأخذهـا معـه.[162].

ومـن خـلال قيامـه بمـا نسـميه اليـوم «الاتصـال الاسـتراتيجي»، فقـد كان دومـاً حريـص عـلى التعبـير عـن رؤيتـه الاسـتراتيجية وتكرارهـا وتعزيزهـا لمجتمعـه المزدهـر، وكان حريصـاً أيضـاً، ومـع انتشـار الإسـلام وافتتـاح مسـاجد جديـدة، أن يفعـل الأئمـة الذيـن كان يعينهـم الـشيء نفسـه. ومـع علمـه أن الدعـاة الآخريـن سيفشـلون في الإقنـاع إذا مـا نُظـر إليهـم عـلى أنهـم عديمـو المعرفـة أو أنهم ليسـوا عـلى اطـلاعٍ واسـع، لهـذا فقـد حـرص كل الحـرص عـلى إرسـال رجـال تمتعـوا بأخـلاقٍ صارمـة ممـن كانـوا أسـاتذة القـرآن ويفهمـون رؤيتـه. وكان هدفهـم هـو نفـس هـدف محمـد: مسـاعدة المسـلمين عـلى فهـم العالـم المعقـد والغامـض والصعـب في كثـير مـن الأحيـان مـن حولهـم، والتحديـات التـي واجهوهـا بشـكلٍ جماعـي، وكيـف أنهـم سـيواجهون كل هـذه التحديـات معـاً بقـوة اللـه وبرحمتـه.

وحرصـاً منـه عـلى أن يكـون لـه وللخطبـاء المعينـين أكـبر جمهـور ممكـن في الخطـب والصلـوات المرتبطـة بهـا - التـي يعتقـد أنهـا توفـر فوائـد روحيـة عميقـة وليسـت لمجـرد نقـل المعلومـات - فقـد حظـر الأنشـطة التجاريـة المنتظمـة في ذلـك الوقـت في أيـام الجمعـة وفقًـا للتعليمـات القرآنيـة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَـا ٱلَّذِيـنَ ءَامَنُـوٓاْ إِذَا نُـودِىَ لِلصَّلَـوٰةِ مِـن يَـوۡمِ ٱلۡجُمُعَـةِ فَٱسۡـعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡـرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡـعَۚ ذَٰلِكُـمۡ خَيۡـرٌ لَّكُـمۡ إِن كُنتُـمۡ تَعۡلَمُـونَ﴾[163].

وعـلى جانـب مـن ذلـك، اسـتخدم محمـد أيضـاً صـلاة الجماعـة اليوميـة وصلاة الجمعـة كوسـيلة لتقويـة التماسـك المجتمعـي. كان عـلى الجميـع الحضـور وكان عليهـم التجمـع في صفـوف متراصـة (التحضـير المثـالي لتعليـم الانضبـاط الـلازم أثنـاء القتـال [164])، وكان عليهـم الوقـوف كتفـاً بكتـف، الأخـوة معـاً والأخـوات معـاً.

كان تصميـم المسـجد والشـعائر والطقـوس الدينيـة في الداخـل كلهـا مصممـة للمسـاعدة في توصيـل الحقيقـة العميقـة وهـي: أن الجميـع في هـذا المجتمـع الدينـي الجديـد كان لهـم قيمـة متسـاوية في نظـر اللـه، مـع عـدم تخصيـص أي شـخص

بمكانة أو امتياز إلا ما تمنحه لهم التقوى أو مخافتهم من الله. لم يتم تخصيص الصف الأمامي أبداً لمن يعتقد أنه أكثر أهمية من حيث الانتماء القبلي أو المركز أو الثروة أو العرق. كان الإسلام مجتمعاً متساوياً. كل من أحب الله ورسوله بما فيه الكفاية للحضور باكراً كان يصلي في الأمام. وبأخذ هذا في الاعتبار، والرغبة في سماع الخطب من قبل أكبر عدد ممكن من الناس، كشف محمد عن بصيرة روحية مدركاً أنها ستصل حتى إلى الأشخاص الأكثر بساطة:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ الْمَلاَئِكَةُ، يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ ...» [165].

لا شك أن محمد لم يعرف أبداً أن أرسطو قد حدد سابقاً ثلاثة عناصر مترابطة للخطاب الفعّال: الروح (ترسيخ مصداقية الرسالة من خلال الثقة في المتحدث)، والعاطفة (جذب مشاعر الجمهور من أجل خلق التعاطف والتواصل) والشعارات (مناشدة العقلانية من خلال المنطق والبرهان من أجل بناء الإيمان). ليس لدينا أي دليل على أن محمد قد وضع نظرية أو صاغ ما فعله كخطيب. ومع ذلك، فقد كان متحدثًا بارعًا شمل بشكل فطري جميع المكونات الثلاث لأرسطو دون أي فن أو عادات نسخ بشكل واعٍ.

أدرك بأن الطريقة التي يتحدث بها لا تقل أهمية عن المحتوى الذي يرغب في إيصاله. فعندما كان يتحدث وجهًا لوجه مع أي شخص، كان يولي اهتماماً كبيراً لدرجة أن هذا الشخص كان يشعر أنه /أنها ذات أهمية بالغة. لم يتحدث أبداً على الناس، ولم يقاطع أو كان يتدخل أبداً اذا كانوا يطيلون الحديث أو كان يرغب في إيضاح نقطة معينة، بل كان ينتظر.

كان يتحدث بتأني وباختيار الكلمات البسيطة والواضحة والمؤثرة في محادثاته وخاصة تلك الموجهة للحشود في المساجد أو قبل بدء المعركة. قال ابن سعد بأنه «لم يكن يتحدث بسرعة أو بعجرفة»، ولكن بفترات توقف تسمح للمستمعين بالمواكبة والتذكر لاحقاً [166]. كان يتحدث ببطء كافٍ حتى يتمكن الأشخاص البسطاء وغير المتعلمين من متابعته [167]. وقد أبقى خطاباته قصيرة، حتى الخطب الدينية، بحيث لا تُرهق أو تستنفد مدى تركيز المستمعين [168]. وقد أوضح ذات مرة أن أي قائد يعينه ينبغي أن لا

يُطيـل في خطابـه أو في صلواتـه (بشـكل منفـر) لأن مـن مبـين الجمهـور مـن هـم مـرضى وضعفـاء ومـن لديهـم احتياجـات [169].

كان يعـرف كيـف يخاطـب العقـل والمشـاعر، وأحيانـاً كان بارعـاً جـداً في مخاطبـة المشـاعر لدرجـة أنـه كان يدفـع جمهـوره للبـكاء. يتذكـر العربـاض بـن سـارية ذات مـرة ويقـول: «قَـامَ فِينَـا رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ ذَاتَ يَـوْمٍ فَوَعَظَنَـا مَوْعِظَـةً بَلِيغَـةً وَجِلَـتْ مِنْهَـا الْقُلُـوبُ وَذَرَفَـتْ مِنْهَـا الْعُيُـونُ»[170].

وقـد أدرك قيمـة تعزيـز مواضيعـه الرئيسـية، مسـتخدماً أسـلوب التكـرار للتركيـز عـلى النقـاط المهمـة. ويذكـر أنـس بـن مالـك، أنـه كلمـا أراد الرسـول أن تُفهـم الرسـالة بشـكل واضـح سـواء كانـت في المسـجد أو في سـاحة المعركـة « كان إذا تكلـم بكلمـة أعادهـا ثلاثـاً حتـى تفهـم عنـه..»[171]. يوضـح أحـد الأحاديـث أن هـذا لـم يكـن فقـط للتصريحـات الكبـيرة، ولكـن أيضًـا للمناسـبات الوجدانيـة عندمـا أراد أن يُشـدد عـلى نقطـة مـا:

جـاءت امـرأة مـن الأنصـار إلى النبـي بصحبـة أولادهـا، فقـال لهـا النبـي: «وَالَّـذِي نَفْـسِي بِيَـدِهِ إِنَّكُـمْ لأَحَـبُّ النَّـاسِ إِلَيَ» قَالَهَـا ثَـلاَثَ مِـرَارٍ».[172]

كثـيراً مـا كان محمـد يسـتخدم مـا يسـمى اليـوم بـ «الدعـوة والاسـتجابة» في خطبـه الموجهـة إلى جمهـور كبـير، كمـا هـو الحـال عنـد إلقـاء عظـة في المسـجد أو الحـث عـلى الشـجاعة قبـل المعركـة، وهـو تفاعـل لفظـي بـين المتحـدث والجمهـور يجمعهـم بطريقـة متقاربـة وقويـة. والـذي يشـمل عـلى أن «يدعـو» المتحـدث الجمهـور، عـادة بأسـئلة مـن المرجـح أن تثـير «اسـتجابة» شـفوية عاطفيـة، ويسـمى «الـرد» مـن الجمهـور. وهـو أداة فعالـة لسـد الفجـوة بـين المتحـدث والجمهـور وأصبحـت الآن منتـشرة في كل مـكان في التجمعـات السياسـية وحفـلات موسـيقى الـروك.

خـلال «حجـة الـوداع» الشـهيرة في سـنة 631 ميـلادي، والتـي هـي تحفـة خطابيـة، وقـف عـلى هضبـةٍ صغـيرة أمـام مـا يقـارب مـن مائـة ألـف حـاج، وصـاح فيهـم [173]:

«أي يوم هذا؟»

وفي انسجام تام، رد الحجيج، « يوم النحر!»

وكرر سؤاله مرتين قبل أن يسأل «أي بلدٍ هذا؟»

وفي انسجام تام، ردوا مرة أخرى، «البلد الحرام [أي مكة]!»

وكرر السؤال مرتين قبل أن يسأل: أي شهر هذا؟

وفي انسجام تام أيضاً رد الحجيج، «الشهر الحرام!»

فقال لهم «بلا شك، إن الله تبارك وتعالى قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا».

ثم ألقى النبي خطبته، مُجرداً تعقيدات الرسالة الإسلامية إلى أساسها. وتحدث عن الحاجة إلى المحافظة على الإيمان قويًا بالصلاة وذكر الله وسيادة القانون، والتكافل الاجتماعي وأهمية الأخلاق الحميدة. كانت هذه المواضيع محورية في رسالته على مدار السنوات العشرين الماضية. والآن أعاد التأكيد عليها مرة أخرى بقدر من اليقين والوضوح، مناشدًا كلاً من عقلانية وعواطف جمهوره. وفي الختام، مد يديه إلى السماء، وهتف بصوت عالٍ مرارًا وتكرارًا «ألا هل بلغت؟» وكانوا يرددون في كل مرة «نعم»[174].

وأدرك محمد أيضًا أن الجمهور قد يكون منجذباً تماماً بخطاب الشخص ومقتنعاً بتأكيداته الرئيسية، ولكن إذا غادر الناس دون فهم لما كان من المفترض أن يفعلوه بالأفكار، فإن العرض التقديمي سيكون مخيباً. وهكذا، ولضمان أن الأعمال تتبع الكلمات، وضع دعوات فعالة للعمل في خطاباته، التي عادة ما تكون عند اقتراب انتهاء أو في نهاية الخطبة. وهنا كان يخبر جمهوره بالدور الذي يمكنهم القيام به بعد مغادرتهم. وفي بعض الأحيان كان يعطيهم قضايا ملموسة للتعامل معها، وفي أحيان أخرى كان يُنشئ واجبا أخلاقيا للعمل دون تحديد المتطلبات المحددة. وفي كلتا الحالتين، كان القصد هو جعل الجمهور يتفاعل مع الأهداف التي تم تسليط الضوء عليها.

وربما كان مدركاً أنه قد لا يخاطب مثل هذا الحشد مرة أخرى، واختتم خطبة الوداع بدعوة جادة للعمل، هذه المرة في البداية بتعليمات للامتناع عن فعل شيء ما: «سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ! أَلاَ فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلاَّلاً، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ». ثم أنهى بعملٍ إيجابي، الشيء الذي يجب عليهم فعله الآن: « أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ»[175]

مـن السـهل الاعتقـاد بـأن الميـزة الكبـيرة التـي كان يتمتـع بهـا محمـد في التواصـل الاسـتراتيجي هـي أنـه عندمـا كان ينقـل الوحـي القرآنـي الجديـد (أي عندمـا كانـت تأتيـه آيـات جديـدة مـن خـلال الوحـي)، لـم يسـمعها أتباعـه عـلى أنهـا كلمـات الرجـل بـل كلمـات اللـه. لذلـك فـإن قـدرة الرسـائل عـلى المطالبـة بالطاعـة ونقـل الحقيقـة كانـت كبـيرة للغايـة.

كانـت هـذه بالضبـط الكيفيـة التـي فهـم بهـا العديـد مـن النـاس حـول محمـد الوحـي. ولكـن هـذا الواقـع يخفـي حقيقـة هامّـة: هـي أنـه وفي أوقـات مختلفـة لم يتلـق محمـد أي وحـي إلهـي لفـترات طويلـة (بعـد نـزول الآيـات الأولى، ربمـا لـم يتلـق المزيـد مـن الوحـي الإلهـي لمـدة ثـلاث سـنوات تقريبـاً) إلا أنـه وفي غضـون ذلـك اسـتمر في التعليـم والوعـظ والإرشـاد والقيـادة مـن خـلال موهبتـه الخاصـة في الخطابـة.

في الفـترة الفاصلـة بـين الوحـي القرآنـي، كان محمـد يتحـدث من حدسـه وفكره الخـاص، مشـدداً دائمـاً عـلى المصلحـة العامّـة عـلى الاحتياجـات الفرديـة، لإيقـاظ المترددين وإلهـام المغروريـن. خـلال الفـترة الأولى التـي جـاء فيهـا الوحـي بشـكل متقطـع، كان مقتـصراً عـلى فئـة معينـة ومجـردّاً، كان محمـد قـادراً بموهبتـه التخديريـة بالكلمـات عـلى تغيـير النـاس، ومعظهـم كان مـن فئـة الشـباب الذيـن ينجذبـون دائمـاً إلى كل مـا هـو جديـد وجـريء. وقـد سـاعدته هـذه القـدرة عـلى إنشـاء نـواة مخلصـة بشـده ومتفانيـة لمـا يمكـن، بعـد الهجـرة إلى المدينـة، أن يتوسـع بشـكل سريـع ليصبـح مجتمعـاً ملتزمـاً بنفـس الدرجـة.

كان مقنعـاً جـداً في خطابـه لدرجـة أن زعمـاء قبيلـة قريـش في مكـة، الذيـن اسـتاءوا مـن نفـوذه المتزايـد ولمـا اعتـبروه إهانـة لممارسـاتهم وإغـراء لشـبابهم، كان يـدور بينهـم نقاشـاً فيمـا إذا كان محمـد عرافًـا أو كاهنـاً أو سـاحرًا أو ممسوسـاً أو شـاعرًا.[176]. وبعـد مناقشـة كل احتمـال، خلصـوا إلى أن «أقـرب مـا يكـون إلى الحقيقـة هـو أنـه سـاحر، اشـترى رسـالة يفـرّق فيهـا بـين المـرء وأبيـه، وبـين المـرء وأخيـه، وبـين المـرء وزوجتـه، وبـين المـرء وعشـيرته»[177].

في مرحلـة مـا، جلـس «عتبـة بـن ربيعـة»، وهـو أحـد وجهـاء قريـش، مـع محمـد وحـاول بلطـف أن يتحـاور معـه، حتـى أنـه عـرض عليـه الثـروة والقيـادة وتوفـير الأطبـاء لتقديـم العـلاج الـلازم لمـا كان يُعتقـد أنـه مـسٌ أصـاب محمـد.

أصغى محمد إليه بصبر واحترام، ولم يقاطعه أبداً، قبل أن يتلو عليه رسالة قرآنية عن الأمل والتحذير. أصغى عتبة بانتباه وشاهد في ذهول محمد وهو يصلي ثم تحدث معه باحترام مرة أخرى. ثمّ عاد عتبة إلى أصحابه، الذين لاحظوا أن تعابير وجهه لم تكن عادية وسألوه عمّا حدث. أخبرهم بأنه جلس مع محمد وقال» أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثله قَطُّ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه»، وقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه [178].

ويحتوي القرآن على أصداء لمثل هذه الانتقادات، بما في ذلك قولهم:

« فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ» [179]

كما قدم القرآن أيضاً التصحيح:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[180]

ونحن نعلم بأن قوة خطابه كانت مؤثرة جداً لدرجة أن قلّة قليلة من الناس تمكنوا من مقاومة قدرته على الاقناع. بعد معركة حُنين، قسّم الغنائم، وأعطى النصيب الأكبر إلى أبي سفيان بن حرب، خصمه السابق والذي اعتنق الإسلام مؤخراً، وإلى مكيين آخرين الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً. فعل ذلك بحكمةٍ لضمان ولائهم، الذي كان لا يزال هشًا جداً في تلك المرحلة. ومع ذلك فقد أزعج هذا الأمر الأنصار الذين شعروا بأنهم ناضلوا لسنوات من أجل النبي، والآن يتم التغاضي عنهم. حتى أن البعض اعتقد بأن محمد وبعد فتحه ل مكة « مسقط رأسه» سوف يعيش هناك مرة أخرى ولن يعود إلى ميدنتهم «المدينة المنورة»، رغم أنهم قدموا له الملجأ والدعم المتواصل. فهل كان هذا التوزيع غير المتكافئ للغنائم نتيجة المحاباة؟ قالوا فيما بينهم ولقائدهم: إن كان من أمر الله صبرنا، وإن كان من أمر الرسول استعتبناه»[181]. ففي نهاية المطاف، كانت هذه هي بيئة الحوار المفتوح الذي تبناه محمد. سمح محمد للناس بالتعبير عن آرائهم فيما يتعلق بأية قرارات صادرة من رؤيته الخاصة وليست من الوحي. فعندما كان قد وصل إلى المدينة قبل ثماني سنوات، قال لجمع من الأنصار:

«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بشر».[182]

تروي أقدم مصادر السير الذاتية التبادل اللافت للنظر بين النبي والأنصار حول الغنائم التي أُخذت في حنين. وتكشف رواياتهم عن حنكة محمد السياسية وإتقانه للغة الاقناع الخطابي. عندما سمع عن استياء الأنصار جرّاء حرمانهم من غنائم المعركة، طلب التحدث إلى زعيم الأنصار سعد بن عبادة.[183] وأكد سعد مجدداً وجهة نظر الأنصار بأنه إن كان القرار من الله، فإنهم سيتحلون بالصبر، ولكن إن كان هذا القرار هو قرار محمد، فإنهم يريدون تفسيراً. فسال محمد سعد عن رأيه في ذلك، فأجاب « يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي؟»

ثم طلب محمد من سعد بأن يجمع المستائين من الأنصار، حيث أراد مخاطبتهم جميعاً بدلاً من الاقتصار على سعد وغيره من القادة. كان يعلم أنه من المهم أن يشعر الجميع بالشمول والتقدير. ثم عبّر عن تعاطفه معهم وبأنه يتفهم غضبهم، ناصحاً إياهم.[184] ثم ناشد عقولهم، موضحًا لهم أن الفوائد الروحية تفوق المكاسب المادية بكثير قائلاً:

« لَمْ آتِكُمْ ضلالاً فَهَدَاكُمْ الله بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللّهُ بِي؟ وَأَعْدَاءً فألف اللّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟».

قَالُوا: «الله وَرَسُولُهُ أَمَنّ وَأَفْضَلُ». ثم سأل لماذا لا يتكلمون أكثر لدعم قضيتهم قائلاً « ألا تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الأنصار؟ فأجابوا، «بماذَا نُجِيبُك يَا رَسُولَ اللّهِ؟» ثم تكلم محمد ببراعة نيابةً عنهم، واضعاً نفسه مكانهم، ومؤكداً على لطفهم معه، وبذلك أعاد لهم الشعور واليقين بأنه يقدرهم كثيراً:

«واللهِ لَو شِئتُم لقُلتُم فصدَقتُم وصُدِّقتُم: جئتَنا طريدًا فآوَيناكَ، وعائلًا فآسَيناكَ، وخائفًا فأمَّنّاكَ، ومخذولاً فنصَرناكَ».

وبعد إعادة التأكيد على الامتنان العظيم الذي يدين به لهم، نصحهم بعدم الاهتمام كثيراً بالشؤون الدنيوية، وخاصةً بعد أن أصبحوا متصالحين مع الله. ثمّ، مناشداً عواطفهم، طلب منهم التفكير بسؤال رئيسي واحد:

«.... أفَلا تَرضَونَ يا مَعشَرَ الأنصارِ أن يذهَبَ النّاسُ إلى رِحالِهم بالشّاءِ والبَعيرِ وتذهَبونَ برسولِ اللهِ إلى رِحالِكُم ؟ . فَوَالّذي نَفسي بيدِهِ، لَو أنَّ

النَّــاسَ سَــلَكوا شِــعبًا وسَــلَكتِ الأنصــارُ شِــعبًا، لسَــلَكتُ شِــعبَ الأنصــارِ»[185].

ثــم طلــب منهــم عــدم الشــعور بالاحبــاط، وقــال لهــم بأنــه كلمــا جاءته ثــروات البحريــن فإنــه ســوف يبديهــم عــلى أهــل مكــة وســيعطيها لهــم. وفي غضــون ذلــك، يجــب عليهــم التحــلي بالصــبر، عالمــين بأنــه ســيعود إلى مدينتهــم لا إلى مكــة، وبأنهــم ســينالون كنــوزاً في الجنــة تفــوق في عددهــا النجــوم. ثــم رفــع يديــه إلى الســماء ودعــى بصــوت مرتفــع « اللَّهــمَّ ارحَــمْ الأنصــارَ، وأبنــاءَ الأنصــارِ، وأبنــاءَ أبنــاءِ الأنصــارِ».[186]

وعنــد ســماع ذلــك، شــعر الأنصــار بالرضــا والتأثــر العميــق وبكــوا حتَّــى اخضلــت لِحاهُــم وقالــوا: رَضينــا باللــهِ رَبًّــا، ورســولِهِ قســمًا»[187]. حُلــت المســألة وتفرقــوا، ولــم يكــن أي مــن الطرفــين يحمــل أدنــى ضغينــة. كانــت تحفــة خطابيــة، واحــدة فقــط مــن العديــد المســجلة في المصــادر.

****

القيادة العسكرية

بالإضافة إلى الحدس السياسي القوي وقدرة وهبة التواصل، كان لدى محمد ما أسماه هو نفسه الفهم السليم «للحكم والاستراتيجية والتكتيكات» العسكرية (الرأي والحرب والمكيدة) [188]. من الصعب أن نزعم أنه في غضون عقد واحد فقط من الزمان، من 622 م إلى 632م، تحول بسرعة من قائد عسكري قليل الثقة ويفتقر إلى الخبرة إلى قائد عسكري ناجح جداً وناجح بشكل روتيني ومتمرس في المعارك وقادر على التعامل بمهارة مع الجيوش المؤلفة من آلاف المحاربين.

تميل الطبيعة القبلية للمجتمع العربي إلى العمل ضد نشأة أي قدرة قتالية واسعة النطاق. فقد عاشت القبائل والعشائر بشكل أساسي على فرضية أن حالة الحرب قائمة بين قبيلة المرء وبين جميع القبائل الأخرى ما لم تكن هناك معاهدة أو اتفاق مع قبيلة أخرى [189]. وكثيرا ما توحدت القبائل على وجه خاص للتعامل مع قضايا معينة، ولكن عندما كان الطابع العسكري لهذه التحالفات نادراً ما تكون طويلة الأمد وليست ترتيبات دائمة أبداً، والسبب في ذلك يعود إلى حدٍ ما للقيادة اللامركزية التي يسببها الشيوخ أو قادة من كل قبيلة أو عشيرة واحتفاظهم بالسلطة على شعوبهم. وفي بعض الأحيان، كانت الائتلافات تنحل عندما يشعر أحد أو أكثر من زعماء القبائل أو العشائر بأنه قد تعرض للإهانة من قبل زعيم آخر، أو أن يعتقد أنه هو وشعبه قد حققوا وحصلوا على قدر مقبول من الغنائم أو الرفعة، حتى لو ظل الهدف الرئيسي للتحالف غير منجز.

وإدراكاً منه لهذا، ورغبته في إيجاد وسيلة أكثر فعالية وموثوقية لتحقيق الأمن لأمته الآخذة في التوسع بوتيرة سريعة، ومعرفته بأن وجود قوة متماسكة وقادرة تحت قيادة مركزية (خاصة به) هي وحدها التي يمكنها أن تعمل كأداة التغيير المنشودة، شرع محمد بتحويل الميليشيات القبلية إلى ما أصبح بعد ذلك في ظل قيادة خلفائه جيشًا نظاميًا دائماً.

بالتأكيد، بحلولِ وقتِ معركةِ خيبر عام 628، كان محمد قد أعدّ إلى حد كبير الجيش الذي كان يعلم أنه سيحتاج إليه لتحقيق أهدافه الاستراتيجية.

ولـم يكـن يتألـف بعـد ممـن نسـميهم اليـوم بالمحترفـين، أي مـن جنـود متفرغـين تدفـع لهـم الدولـة مقابـل أدء تلـك المهمـة فقـط. كان لا يـزال مـن الناحيـة الفنيـة جيشـاً شـعبياً أو جيشـاً مـن المواطنـين تـم تشـكيله مـن السـكان المدنيـين لخوض معـارك معينـة أو للقيـام بمهـام معينـة. ومـع ذلـك، لـم يكـن المحاربـون يقومـون بـأي شـئ آخـر. ومـع التيـار المسـتمر مـن الغـارات الصغـيرة بـين المعـارك الكـبرى، فـإن نفـس الأشـخاص كانـوا منخرطـين وبشـكل دائـم في الشـؤون العسـكرية، وأصبحـوا منضبطـين وذوي خـبرة بشـكلٍ متزايـد، لـم يعـد يُنظـر إليهـم عـلى أنهـم مدنيـين أو أفـراد قبائـل، بـل كجيـش مسـلم - وهـو أول جيـش غـير قبـلي عـلى الإطـلاق في الجزيـرة العربيـة - ومـن الواضـح أن محمـد وحـده كان قائـده. عندمـا هجمـت هـذه القـوة عـلى مدينـة خيـبر في وقـت مبكـر مـن صبـاح أحـد الأيـام، صرخ مواطنوهـا المذعوريـن: «محمـد والجيـش»[190]

كان محمـد يكـره الحـرب ويسـعى إلى إيجـاد سـبل أخـرى لحـل النزاعـات. وقـد أدرك أن الحـرب لـن تكـون أخلاقيـة إلا إذا كان القتـال لأسـبابٍ عادلـة [191]. وكان هـذا يعنـي عـادة أن سـبب الحـرب هـو الدفـاع عـن النفـس، والاسـتباق ضـد الأعـداء الذيـن كانـوا يحشـدون القـوى ضـد النظـام الإسـلامي، وأمـن حـدود الجزيـرة العربيـة مـن القـوى الخارجيـة الكـبرى التـي قـد تخنـق نظـام الحكـم الإسـلامي في مهـده، وإظهـار القـوة الهمجيـة المعـدة لإجبـار القبائـل الأخـرى عـلى قبـول قيادتـه السياسـية (مـع الحـد الأدنـى مـن إراقـة الدمـاء أو عـدم إراقـة دمـاء).

حتـى أن عمليـات محمـد الاسـتباقية كانـت دفاعيـة في جوهرهـا. عـلى سـبيل المثـال، بعـد فـترة وجيـزة مـن فتـح مكـة، شـعر محمـد بأنـه مضطـر لبـدء عمليه هجوميـة واسـعة باتجـاه حنـين للقـاء قـوة تحالـف كبـيرة مـن قبيلتـي هـوازن وثقيـف، حيـث كشـفت لـه فـرق الاسـتطلاع أنهمـا كانتـا تسـتعدان لمهاجمـة مكـة [192]. وهكـذا تضمنـت معركـة حنـين عـلى قيـام محمـد بمسـيرة هجوميـة ليـضرب قبـل أن يُـضرب.

كمـا أدرك أنـه حتـى العمليـات الهجوميـة لا ينبغـي أن تنطـوي أبـداً عـلى الاسـتهداف المتعمـد أو الإيـذاء المتهـور للأبريـاء، وهـو مـا يقصـد بـه النسـاء والأطفـال والكهنـة وغيرهـم مـن الشـخصيات الدينيـة والمسـنين والعجـزة وعمـال

المزارع والبستنة، وحتى ممتلكات العدو ووسائل إنتاجه [193]. كانت هذه القواعد مبتكرة وتم تنفيذها بصرامة.

ومع ذلك، فهم محمد أنه وفي حال حدوث الحرب، كان لزاماً عليه أن يخوضها بقوةٍ وتركيزٍ وحزم. ونظراً لأن الإجراءات الدفاعية نادراً ما تُسفر عن نتائج حاسمة، فقد أصرّ على وجوب توجيه جميع العمليات العسكرية بشكلٍ عدوانيّ قدر المستطاع، وذلك من أجل تحقيق حرية العمل والمبادرة واستغلالها والحفاظ عليها. لأنه ومن خلال القيام بذلك فإن الخصم سيضطر دوماً إلى التصدي لأعمال المسلمين بدلاً من أن يكون قادراً على القيام بعملياته الخاصة.

كما أن العمل الهجومي الحاسم من شأنه أن يخلق الخوف لدى العدو، كما يشير القرآن «تُرهبون به عدو الله وعدوكم» [194]، وأن يردع وبشكلٍ حازم الأعداء الآخرين الذين قد يرغبون في اتباع أفعالهم:

«فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ»[195].

وقد أدرك محمد بشكلٍ صحيح أن تخويف العدو وحمله على اتخاذ قرار بعدم القتال أو التهديد أو التصرف باستهتار هي الطريقة المثالية لمنع إراقة الدماء من كلا الجانبين. هذا ما وصفه الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت بقوله الشهير بعد 1300 سنة بأنه أساس الحنكة السياسية: «تحدث بنعومة واحمل عصاً كبير وستذهب لمدى بعيد». شعر محمد بالرضا لأنه من خلال الأعمال الهجومية الحازمة، والكثير منها كان يقصد به أن يكون استعراضاً للقوة في ضوء الاصابات، فإن أي أعداء محتملين سيكونون أعقل من أن يتسببوا بالأذى. وقد ذكر قدرته على إثارة الرعب في الأعداء من مسافة بعيدة « نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر» كإحدى صفاته الفريدة .[196]

كما وأدرك محمد أيضًا بأنه يتوجب اتخاذ تدابير أمنية معدّة بعناية ومزودة بموارد كافية للسماح للجيش أو الكتيبة بحرية العمل الهجومي مع حماية مدينته ومواطنيه من خلال تحديد جميع مواطن الضعف أمام الهجمات العدائية والحد منها. وتذمر بعض القادة ممن تركهم خلفه لحماية المدينة بمن فيهم حبيبه علي بن أبي طالب من أنهم يفضلون كثيراً مرافقته في الحملات، بدلاً من القيام بما اعتبروه ليس أكثر من

«رعايــة النســاء والرجــال والأطفــال». [197] غــير مقدّريــن أهميــة هــذه المســؤولية الجليلــة.

وقــد عمــل محمــد وبــلا كلــل للحفــاظ عــلى الــروح المعنويــة لقواتــه، الذيــن عــادة مــا كانــوا يضطــرون للبحــث عــن الطعــام وتحمــل الحــرارة الشــديدة والمشــقة. وقــد فعــل ذلــك مــن خــلال انهماكــه المســتمر والتركيــز عــلى الثنــاء والتشــجيع المتكرريــن. بالخطابــة الرائعــة، شــدد مــرارًا وتكــرارًا عــلى نبــل القضية وضرورتهــا، وســلط الضــوء علنًــا عــلى شــجاعة الأفــراد، وكافــأ التميــز، وأعطــى الأشــخاص الناجحــين مســؤوليات متزايــدة الأهميــة. وفي القتــال، كان يدعــو بالأدعيــة المهيجــة للقــوات، مثــل «لا إِلَــهَ إِلَّا اللَّــهُ وَحْــدَهُ، أَعَــزَّ جُنْــدَهُ، وَنَــصَرَ عَبْــدَهُ، وَغَلَــبَ الأَحْــزَابَ وَحْــدَهُ، فَــلا شيءَ بَعْــدَهُ.»[198]. كان ذلــك معــززاً قويــاً للمعنويــات. فكيــف لهــم أن يشــكوا أو أن يخافــوا أو أن يخــسروا إذا كان اللــه يدعمهــم؟.

وقــد أثنــى القــرآن نفســه عــلى أولئــك الذيــن اختــاروا الخدمــة، معترفًــا بأنهــم يتفوقــون عــلى أولئــك الذيــن تهربــوا مــن الخدمــة كمــا وأنهــم يســتحقون كل مكافــأة ماديــة وروحيــة [199]. وبطبيعــة الحــال، كان هنــاك بعــض المتهربــين، الذيــن وصفهــم القــرآن بأنهــم مــرضى القلــوب، وغــير راغبــين بالرحــلات الطويلــة ومضايقاتهــا، وحريصــين عــلى البقــاء في منازلهــم مــع زوجاتهــم، ومترددیــن في المســاهمة ماليــاً عــلى الرغــم مــن ثرواتهــم، وحتــى أنهــم جبنــاء ويخافــون مــن الهزيمــة[200].

وباســتثناء هــؤلاء الأشــخاص، والذيــن كانــوا قلــة في الواقــع وقــد غُفــر لهــم لاحقــاً بعدمــا تــم تجنبهــم لفــترة وجيــزة، لــم يواجــه محمــد مشــكلة في الحصــول عــلى متطوعــين للخدمــة. وتتحــدث الأحاديــث عــن متطوعــين كثيريــن أدرجــت أســماؤهم في ســجلات عســكرية خاصــة[201]. كمــا وتظهــر أيضًــا أنــه وفي بعــض الأحيــان تطــوع الكثــير مــن الأشــخاص لدرجــة أنّ أســماءهم تجــاوزت القــدرة عــلى إدراجهــا في الســجلات.[202]

كان مفهــوم الوحــدة في قلــب القيــادة العســكرية لـــ محمــد. حتــى عندمــا كان يرســل كتائــب مــن القــوات ولــم يكــن قــادراً عــلى الذهــاب بنفســه، كان يعــين قائــداً واحــداً فقــط. وقــد فعــل ذلــك حتــى لــو كانــت الكتيبــة مكونــة مــن أفــراد مــن قبائــل أو عشــائر أو أشــخاص مختلفــين، وكانــوا جميعــاً يطيعــون ذلــك القائــد عــلى قــدم المســاواة، حتــى لــو كانــوا ينتمــون إلى قبائــل تختلــف في المكانــة

أو السـمعة، وأيـاً كانـت المجموعـة التـي ينتمـي إليهـا القائـد نفسـه. فالانقسـام والعصيـان عـلى أسـاس القبليـة أمـر غـير مقبـول:

قـال رسـول اللـه ﷺ: «وَمَـنْ قَاتَـلَ تَحْـتَ رَايَـةٍ عُمِّيَّـةٍ يَدْعُـو إِلَى عَصَبِيَّـةٍ أَوْ يَغْضَـبُ لِعَصَبِيَّـةٍ فَقُتِـلَ فَقِتْلَـةٌ جَاهِلِيَّـةٌ»[203].

ولـم يعـد المحاربـون المرسـلون في المهمـات يعطـون الـولاء عـلى أسـاس القبليـة، فقـد أصبحـوا الآن «مؤمنـين» و «إخـوة» متحديـن عـلى طاعـة قائـد واحـد. ونـرى إشـارة إلى هـذا المفهـوم في إيفـاد محمـد لـ عبـد اللـه بـن جحـش كرئيـس لسريـة نخلـة في ينايـر 624 م. ويـدوّن الواقـدي بـأن عبـد اللـه كان يلقـب بـ «أمـير المؤمنـين» خـلال تلـك الغـارة [204]. ولا ينبغـي لنـا أن نفـرط في قـراءة هـذه العبارة، فلـم تكـن لقبـاً أو رتبـة رسـمية تسـتحق الوقـوف عليهـا، كمـا أصبحـت لاحقـاً عندمـا اختارهـا خلفـاء محمـد السياسـيين، إلا أنهـا تـدل عـلى حقيقـة أن الغـارات كانـت بقيـادة أشـخاص أعطـوا المسـؤولية عـن عصبـة متماسـكة وموحـدة مـن الرجـال لا تحددهـا القبيلـة ولكـن الإيمـان.

ويمكـن رؤيـة إصرار محمـد الصـارم عـلى وحـدة القيـادة بوضـوح في معركـة ذات السلاسـل، والتـي كانـت رحلـة اسـتغرقت عـشرة أيـام شـمال المدينـة المنـورة. أرسـل بهـا عمـرو بـن العـاص مـع كتيبة مـن القـوات، عـلى أمـل أن يتمكـن عمرو مـن حشـد الدعـم المحـلي للحملـة القادمـة إلى سـوريا. وفي منطقـة العـدو، خـاف عمـرو وأرسـل إلى محمـد للحصـول عـلى تعزيـزات. حيـث أرسـل محمـد لأبـي عبيـدة بـن الجـراح بقـوات إضافيـة وتعليمـات واضحـة جـداً: " «لا تختلفـا»[205]. عندمـا وصـل أبـو عبيـدة إلى موقـع عمـرو، أصر الأخـير عـلى بقائـه في السـلطة. في حـين رفـض أبـو عبيـدة الانجـرار إلى خـلاف، وقـال لعمـرو إن النبـي كان قـد أصر عـلى ألا يتشـاجروا حـول الأمـر، وانصـاع بتواضـع إلى عمـرو قائـلاً: «إنـك إن عصيتنـي أطعتـك». قـال عمـرو متبجحـاً: «إذن أنـا قائـدك وأنـت فقـط مـدد لي». كان الامتثـال للنبـي أكثـر أهميـة مـن الاستسـلام للـذات، لذلـك اكتفـى أبـو عبيـدة بالقـول: «فدونـك»[206].

وتجـدر الإشـارة أيضًـا إلى أنـه كلمـا قـام محمـد بإرسـال غـارة، كان يجتمـع شـخصيًا مـع قائدهـا للصـلاة مـن أجـل سـلامة المجموعـة، ولـشرح أهـداف المهمـة، وللتعبـير عـن ثقتـه بـه. ولا بـدّ أن هـذا كان تمكينـاً كبـيراً. كمـا ونعلـم

أيضـاً بأنـه كان سـيشرح السـلوك الأخلاقـي الـذي يتوقعـه (عـلى سـبيل المثـال، عـدم إيـذاء النسـاء والأولاد والمسـنين، وعـدم التمثيـل بالقتـل)، وسـيشرح لـه أيضـاً بـأن يكـون «جيـداً» للأشـخاص الذيـن هـم تحـت سـلطته [207].

كان محمـد يوضـح وقبـل إرسـال أي قـوة في حملـة، وكان مـن المحتمـل أن تسـفر تلـك الحملـة عـن سـقوط ضحايـا، مـن هـو الرجـل الثانـي المعـين رسـميًا في القيـادة، لأنـه لـم يرغـب في حـدوث مشـاجرات بـين القبائـل أو شـكوك حـول القيـادة إذا تـوفي قائـد معـين في المعركـة. حتـى أنـه وفي بعـض الحـالات عـيّن القائد الثالـث في حـال سـقوط الأولـين. نـرى هـذا جليـاً قبـل معركـة مؤتـة، عندمـا عـيّن محمـد ابنـه الحبيـب بالتبنـي زيـد بـن حارثـة قائـداً، ولكـن « إِنْ قُتِـلَ زَيْـدٌ فَجَعْفَـرٌ، وَإِنْ قُتِـلَ جَعْفَـرٌ فَعَبْـدُ اللَّـهِ بْـنُ رَوَاحَـةَ» [208]. وحـدث أن استشـهد الثلاثة في المعركـة، ممـا دفـع خالـد بـن الوليـد إلى تـولي القيـادة مـن تلقـاء نفسـه. وقـد قبـل الجيـش قيادتـه وهـو يمتلـك حضـورا كبـيرا وقـدرة خارقـة، وسـجلاً حافـلاً بالنجـاح كمحـارب.

كان القتـال في الغـزوات والمعـارك ينطـوي عـلى مسـؤوليات جسـيمة ليـس فقـط للقـادة، ولكـن أيضـاً للمحاربـين. فقـد كان محمـد واضحـاً بـأن الجيـش الإسـلامي الجديـد الـذي كان يُنشـئهُ لـن يحتـوي عـلى العصيـان، أو السـعي لتحقيـق مكاسـب شـخصية أو رفعـة (وهـو مـا يتحقـق غالبًـا في الثقافـة العربيـة مـن خـلال التباهـي بالبسـالة المتهـورة عـلى حسـاب الصالـح العـام) ولـن يحـدث أيّ سـوءِ تـصرفٍ مطلقـاً. كمـا قـال: « الْغَـزْوُ غَـزْوَانِ فَأَمَّـا مَـنِ ابْتَغَـى وَجْـهَ اللَّـهِ، وَأَطَـاعَ الإِمَـامَ، وَأَنْفَـقَ الْكَرِيمَـةَ، وَيَـاسَرَ الشَّرِيـكَ، وَاجْتَنَـبَ الْفَسَـادَ، فَـإِنَّ نَوْمَـهُ وَنَبْهَـهُ أَجْـرٌ كُلُّـهُ وَأَمَّـا مَـنْ غَـزَا فَخْـرًا وَرِيَـاءً وَسُـمْعَةً، وَعَـصَى الإِمَـامَ، وَأَفْسَـدَ فِي الأَرْضِ، فَإِنَّـهُ لَـمْ يَرْجِـعْ بِالْكَفَـافِ».[209]

فالفسـاد، الـذي غالبـاً مـا يُترجـم بـبراءة وبطريقـة خرقـاء عـلى أنـه «أذى“ أو «إنحـراف»، يُشـير في الواقـع إلى أعمـال خطـيرة مـن القتـل غـير المـشروع أو العنف أو الفجـور أو العصيـان. وقـد تـمّ ادراجـه في القـرآن عـلى أنـه خطيئـة كبـيرة إلى جانـب القتـل [210]. ومـن حيـث سـلوك المحـارب، كان يعنـي قتـل الأبريـاء أو انتهـاك حقوقهـم، وعـدم إظهـار الرحمـة عندمـا يسـتوجب إظهارهـا، والتعذيـب والتشـويه والسرقـة مـن الغنيمـة، أو التـصرف بطـرق تمـزق التماسـك والزمالـة.

مـن الواضـح أنّ محمـداً لا يمكـن أن يدعـو القبائـل والشـعوب الأخـرى لخدمـة اللــه والعيــش وفقًــا لقواعــد أخلاقيــة صارمــة إذا كانــت تصرفــات جيشــه تمثــل مجموعــة مختلفــة مــن القيــم، حتــى تلــك التــي كانــت تُشــاهد عــادة في الجيــوش العربيــة في ذلــك الوقــت، فجيشــه يجــب أن يكــون مختلفــاً.

هــذا لا يعنــي أن محمــداً رأى أنّ اســتخدامَ القــوة يفتقــر إلى الفــن أو المكــر، بــل عــلى العكــس مــن ذلــك، فقــد كانــت رغبتــه في الحــد مــن المخاطــر والاصابــات مــن خــلال التغلــب عــلى أعدائــه بــذكاء أمــراً محوريــاً في قيادتــه العســكرية. كان يمتلــك شــعوراً غريبــاً بمــا نســميه اليــوم بخــدع الحــرب.

يذكــر القــرآن نفســه مثــل هــذه الخــدع بمــا في ذلــك، عــلى ســبيل المثــال، التراجــع المزيــف[211]. وبالمثــل يقتبــس حديثــاً عــن محمــد في قولــه: «الحــرب خدعــة». الحديــث صحيــحٌ ومؤكــدٌ وموثــوقٌ بــه. ويُمكــن العثــور عليــه في خمســة مــن مجموعــات الحديــث الســنية الرئيســية الســتة: صحيــح البخــاري[212]، صحيــح مســلم[213]، ســنن ابــن ماجــه[214]، ســنن أبــي داود [215] وجامــع الترمــذي [216]

عــلى غــرار القــادة العســكريين المتفوقــين آنــذاك والآن، اســتخدم محمــد الخــداع كســمة طبيعيــة لقيادتــه العســكرية، ويشــير الواقــدي إلى أنّ «رســول اللــه لــم يقــم بعمــل عســكري (غــزوة) دون التظاهــر بأنــه لــم يكــن يغــزو»[217]. أبقــى عــلى الاســتعدادات منفصلــة، وغالبًــا مــا أبلــغ القــادة عــن الوجهــات المقصــودة عبر رســائل لــم تُفتــح إلا بعــد انطلاقهــم (218)، كان يرســل محاربيــه بشــكل روتينــي للاختبــاء نهــارًا والســفر ليــلًا[192]، وكان يطلــب منهــم الســفر عــبر طــرق غــير متوقعــة أو غــير مطروقــة[220]، ونصــب الكمائــن في مناســبات متكــررة، لا ســيما خــلال الغــارات الصغــيرة الســابقة ضــد القوافــل التجاريــة التــي كانــت تســافر شــمالًا وجنوبًــا عــبر المدينــة المنــورة.

كانــت الإغــارة، وهــي نــوع مــن الصيــد غــير المــشروع، نشــاطًا راســخًا منخفض المخاطــر وقليــل الخســائر البشريــة شــائعًا في المجتمــع العربــي، وكان مرتبطــاً بطقــوس بلــوغ ســن الرشــد والمعتقــدات المنتــشرة حــول الســمات الأساســية للرجولــة: الجــرأة والشــجاعة والهمّــة. وينبغــي أن يُنظــر إلى الإغــارة عــلى أنهــا أقــرب للرياضــة مــن النشــاط المرعــب الــذي نســميه اليــوم الحــرب [221]. وفي جوهرهــا كان «المكــر» وليــس القســوة، ولهــا «قواعــد» عامّــة مفهومــة التــزم بهــا المشــاركون، مثــل عــدم قتــل غــير المقاتلــين.

إن فهـم محمـد البديهـي للحيلـة واضحـاً لا لبـس فيـه. عـلى سـبيل المثـال، مبـاشرة وبعـد هزيمـة المسـلمين في معركـة أحـد، لام الرسـول محاربـاً يدعـى سـعد بـن أبـي وقّـاص عـلى هتافـه بفرحتـه بانسـحاب قريـش إلى مكـة بـدلاً مـن مداهمتهـا المدينـة المنـورة، ولعلمـه بـأن هـذه الفرحـة سـوف تجعـل المسـلمين يبـدون مرتاحـين، وبالتـالي ضعفـاء في نظـر منتقديهـم، فقـال لـ سـعد: «اخفـض صوتـك. إن الحـرب لخدعـة، فلا تُـري الناس مثـل هَـذَا الفـرح بانصرافهـم،...»[222]

وبرغـم الهزيمـة، خـرج محمـد في اليـوم التـالي مـع محاربيـه المنهكـين والمضطهديـن ولكـن المخلصـين - والعديـد منهـم كانـوا جرحـى – فيمـا بـدى في ظاهـر الأمـر أنـه مطـاردة لقريـش المنتـصرة. وقـد فعـل ذلـك لإعطـاء قريـش انطباعًـا خاطئًـا بـأن جيـش المسـلمين كان سـليمًا وأنـه يتمتـع بـروح معنويـة عاليـة حتـى لا تفكـر قريـش في العـودة لمهاجمـة المدينـة المنـورة [223]. ومـن أجـل أن يعـزز حيلتـه، طلـب محمـد مـن رجالـه بجمـع الحطـب في النهـار وإشـعال عـدد كبـير مـن الحرائـق ليـلاً[224]. كمـا طلـب مـن معبد بـن أبـي معبـد الخزاعي، وهـو بـدوي كان متحالفًـا مـع محمـد سراً، أن يذهـب إلى معسـكر العـدو بقصـة أن محمـد قـد خـرج في أصحابـه يتحرقـون عليكـم تحـرق بجيـش «وأنـه لـم يـرَ مثلـه قـط » [255]. وكان لهـذا الأثـر المرجـو، حيـث قـاد أبـو سـفيان المتوتـر جيشـه عائـداً إلى مكـة مبـاشرة.

عندمـا سـار جيـش قـوي قوامـه حـوالي عـشرة آلاف مـن محاربـي قريـش وحلفائهـا إلى المدينـة المنـورة عـام 627 م، فيمـا عُـرف باسـم معركـة الخنـدق، بـدأوا حصـارًا طويـلاً. بعـد حـوالي سـبعة وعشريـن يومـاً، أرسـل محمـد نعيـم بـن مسـعود، وكان حديـث العهـد بالإسـلام، كجاسـوس إلى معسـكر العـدو لإعطـاء مشـورة خاطئـة ولـزرع الفتنـة بـين القبائـل المعاديـة. اسـتمعت قريـش لمعلوماتـه المضللـة غـير مدركـة أن نعيـم قـد اعتنـق الإسـلام. بعـد أن تعبـت قريـش واجهدتهـا الأحـوال الجويـة السـيئة، وصدقـت قصـص نعيـم، فقـدت عزيمتهـا في نهايـة المطـاف وانسـحبت، ورُفـع الحصـار عـن المدينـة المنـورة. أمـا فيمـا يتعلـق بهـذه المعلومـات المضللـة، قـال محمـد لصاحبـة المقـرب عمـر بـن الخطـاب أن الحيلـة كانـت فكرتـه هـو وليسـت وحيًـا مـن اللـه، وأنهـا خطـرت لـه لأن «الحـرب خدعـة».[226]

ومن المثير للاهتمام أنه وأثناء تلك المعركة، أرسل محمد أحد أصدقائه وهو حذيفة بن اليمان ليتسلل إلى معسكر العدو للحصول على معلومات. لم يتم اكتشاف حذيفة، حتى أنه جلس بمقربة من نار المخيم مع قادة العدو، وجلس بالقرب من القائد أبو سفيان بن حرب لسماعه يحذر قومه صراحة من احتمال خداع أو تجسس المسلمين عليهم وطلب من الجميع التحقق ممن يجلسون بجانبهم [227].

وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك العام، وأثناء الحملة على بني لحيان، أمرَ محمد جيوشة شمالاً باتجاه سوريا لإعطاء بني لحيان انطباعاً بأنهم آمنون في الجنوب [228]. ثم عاد جيشُ محمد وهاجمَ العدو من الخلف، مهددًا القبيلة في معسكراتها. وكما حدث لم تنجح حيلة محمد هذه المرة وتمكّن بنو لحيان من الفرار إلى التلال.

وبعد ستة أشهر وعندما أراد محمد أداء فريضة الحج الأصغر إلى مكة مع أتباعه العُزّل، كان ردُّه عندما علم أن قريش ستُغلق الطريق المحتمل إلى مكة من خلال قيادة أتباعه عبر ممر جبلٍي ضيق بدلاً من ذلك.[229]

وبالمثل عندما كان يخطط لحملته ضد مثيري الشغب في خيبر في مايو 628 م، ومرة أخرى أبقى محمد الوجهة سرية، قلقاً من أنه إذا كشف عنها، فقد تنضم قبيلة غطفان المتحالفة مع خيبر إلى المعركة وتوفر قوة ساحقة، كما تقدم على طول بعض الطرق التي من شأنها أن تضمن عدم تمكن غطفان من الانضمام إلى خيبر حتى لو سمعوا بتحركه [230]. وبالحفاظ على السرية، تمكن من القبض على أهل خيبر على حين غرة. ويروي الواقدي أنه عندما فتح أهل خيبر حصونهم فجراً حاملين معهم أدوات الزراعة للعمل «رأوا أن رسول الله قد حل بساحتهم. وصاحوا «محمد والخميس» فولوا هاربين حتى رجعوا إلى حصونهم»[231].

عند التخطيط لفتح مكة في يناير 630 م، أخفى عن مستشاريه المقربين بشأن نواياه حتى اللحظة الأخيرة منعاً لأي تسربٍ عرضي للمعلومات [232]. متوسلاً إلى الله بأن تنجح حيلته العسكرية بدعاء يلخص تمامًا معنى قوله: «الحرب خدعة»: « اللهُمّ خُذْ عَلَى قُرَيْشٍ الْأَخْبَارَ وَالْعُيُونَ حَتّى نَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً»[233]. وفي رواية مماثلة قال: «اللهُمّ خُذْ عَلَى قُرَيْشٍ أَبْصَارَهُمْ فَلَا يَرَوْنِي إلّا بَغْتَةً، وَلَا يَسْمَعُونَ بِي إلّا فَجْأَةً»[234]. وكما حدث، «لم تصل أي كلمة عن مسيرة النبي إلى قريش [235].

وفي نفس الحملة، استخدم محمد أيضاً وبذكاءٍ حيلة تكتيكية لإكتساب ميزة التأثير النفسي. وعندما حلّ الظلام على الطريق الذي كانوا يسلكونه، أمر كل واحد من محاربيه العشرة آلاف بإشعال النار في المعسكر، معطياً بالتالي انطباعاً بأن قوته كانت أكبر بكثير مما كانت عليه في الواقع.(236)

وبالتالي، ورغم أن هذا غيض من فيض للأمثلة المسجلة على استخدام محمد للخداع العسكري، فمن الواضح أنه نشرها بطريقة يمكن لأي باحث موضوعي أو ممارس للحرب أن يدرك ويعترف بأنها قيادة إبداعية وحكيمة وفعالة للغاية.

واذا كان أي قارئ يعتقد بأن محمد ربما استمتع في الواقع بالحرب من خلال القيادة الحكيمة للعمليات بمثل هذه الطريقة الذكية، أو من خلال رؤيتها على أنها لعبة ذكية وماهرة ليتقنها، أو بأنها كان عرضية حول الموت، فمن الجدير بالذكر أنه كان يكره الحرب بشدّة، وكما ذكر آنفاً، فقد وضع قواعد صارمة بشأن حماية الأبرياء. يمكننا أن نرى بعض هذه القواعد في تعليماته للجيش الذي أرسله إلى مؤتة في عام 629 م:

"أُغْـزُوا بِسْـمِ اللـهِ، فَقَاتِلُـوا عَـدُوّ اللـهِ وَعَدُوّكُمْ بِالشّـامِ، وَسَـتَجِدُونَ فِيهَـا رِجَالًا فِي الصّوَامِـعِ مُعْتَزِلِـينَ لِلنّـاسِ، فَـلَا تَعْرِضُـوا لَهُـمْ، وَسَـتَجِدُونَ آخَرِينَ لِلشّـيْطَانِ، فِي رُءُوسِـهِمْ مَفَاحِـصَ فَاقْلَعُوهَـا بِالسّـيُوفِ، وَلَا تَقْتُلُـنَ امْـرَأَةً وَلَا صَغِـيرًا مُرْضِعًـا وَلَا كَبِـيرًا فَانِيًـا، لَا تُغْرِقُـنّ نَخْـلًا وَلَا تَقْطَعُـنَ شَـجَرًا، وَلَا تَهْدِمُـوا بَيْتًـا"(237)

وهكذا وبالإضافة إلى الأبرياء حتى البنية التحتية ووسائل الإنتاج كان يجب أن تُترك وشأنها. استخدامه لكلمة («مسكن» أو «بيت») يوضح أنه كان يقصد ترك البيوت العائلية دون مساس. ونعرف أيضاً كيف شعر حيال الحاجة إلى حماية الأبنية الدينية. يدين القرآن الشر الكامن في تدمير المباني الدينية بما في ذلك المعابد اليهودية في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(238).

عندما محاولة تلخيص قدرة محمد على استخدام القوة العسكرية، يجب الاعتراف بأنه من الصعب مقارنة مهاراته بمهارات قادة التاريخ الاسطوريين مثل الإسكندر، وحنبعل أو هانيبال، وجنكيز خان وتيمور ونابليون ونيلسون ولي ورومبل وباتون. كانت الحرب جزءاً من حياته بقدر ما كانت جزءاً من

حياة هؤلاء القادة. ومع ذلك، فإن حرب محمد لم تكن تشبه في نطاقها أوطبيعتها أو غرضها تلك الأعمال الدموية التي قام بها هؤلاء المحاربون المشهورون.

وقد شن محمد ما يقرب ثمانين «غارة» - حوالي ثماني غارات في السنة على مدى عقد من الزمن، قاد منها 27 بنفسه(239)، مما قد يبدو عدوانيا وعنيفاً بشكل فظيع، إلا أن تلك الغارات لم تشمل دائماً الاحتكاك مع العدو ونادراً ما تسببت في وقوع إصابات، ناهيك عن الوفيات. وكان العديد منها مجرد استعراض للقوة بهدف إظهار القوة المتنامية لمجتمعه، ولمواصلة الضغط المستمر على الجماعات التي ربما تكون قد تحالفت مع أعدائه، أو للإستيلاء على قطعان الماشية وفقاً للأعراف الاجتماعية السائدة، وبطبيعة الحال لنشر الإسلام إلى أولئك الذين لم يسمعوا عن الرسالة بعد.

وحتى «المعارك» كانت أقل مأساوية بكثير مما بدت عليه في مستهل الأمر. يخبرنا ابن هشام والواقدي بأنه، إذا استثنينا الحصارات الدفاعية والهجومية، والتي وفي جميع الأحوال لم يُقتل بها أحد تقريباً، فقد كان هناك في الواقع أربع معارك ضارية فقط، أي معارك الاحتكاك التي استخدم فيها كلا الجانبان العنف المدبر والمناورة بشكل كبير في ساحة المعركة. ربما كانت عواقبها الاجتماعية والسياسية هائلة، إلا أنها كانت شبه خالية من الموت. ففي بدر كانت خسارة المسلمين أربعة عشر قتيلاً، وفي أحد سبعون قتيلاً، وفي مؤتة ثلاثة عشر قتيلاً (من قوة قوامها ثلاثة آلاف)، وفي حنين (حيث قاد محمد قوة قوامها اثنى عشر ألف مقاتل) كان حصيلة القتلى أربعة فقط. (240) وفي الحصار الأكثر دموية الذي نفذه المسلمون، وهو الهجوم على خيبر، أسفر عن مقتل خمسة عشر مسلمًا (241).

وحتى معركة الخندق الشهيرة، والتي يعرف معظم المسلمين جوانبها الأساسية إلى يومنا هذا، أسفرت عن ستة قتلى فقط من مسلمين (242). ولم تكن الخسائر التي أحدثوها أكبر بكثير. وفي الواقع أننا إذا جمعنا عدد الضحايا من كلا الجانبين في المواجهات التسع الرئيسية التي امتددت على مدى عقد من الصراع، فلن يتسنى لنا إلا أن نحصي مقتل 138 قتيل من المسلمين والحلفاء و216 قتيل من المعارضين.

ولذلك يجب علينا الامتناع عن النظر إلى محمد على أنه زعيمٌ عنيف أو أمير حرب. وعلى الأرجح أنه كان منخرطاً في الحرب مثل أي شيخ قبلي في تلك الفترة، وعلى الرغم من الإشارات المتكررة والدرامية للحرب التي تظهر في القرآن والأحاديث النبوية، إلا أنه سيكون من الخطأ أن نرى هذا النشاط من خلال العدسة الحديثة. وبدلاً من ترك ساحات القتال مليئة بالقتلى المجهولين، كما هو شائع الآن في الحرب، لم يكن هناك سوى عدد قليل جداً من الضحايا في صراعات محمد حتى أن كل واحد منهم تم تسميته في المصادر.

إن مركزية هذه الأنشطة العسكرية في قصص الأصل الإسلامي تدين بالكثير للطريقة التي تُبرز بها التقاليد الشفهية التي تنتقل من جيل إلى جيل كالأعمال البطولية والصفات النبيلة، والتي تُعد مثالية لما لها من مفعول سحريّ ومثير في القصص المروية حول نيران المعسكرات. وهكذا أصبح محمد البطل المثالي، تماماً مثل ما كان أجاممنون وأخيل وأوديسيوس في اليونان الكلاسيكية.

وإذا كان المرء يتساءل عن مدى براعته في هذا النشاط غير الدموي والذي كان يتعلق أكثر بكثير في إظهار الثقة والقوة ونوع من السلطة الرئيسية من مجرد إلحاقٍ بالموت أوالتسبب بالدمار، يجب على المرء أن يستنتج باختصار، أنه كان قادراً وفاعلا بشكل غير عادي. كان إنسانيًا وشجاعًا ومبدعًا وغير متردّد ومُلهمًا جداً لجنوده، بدا أنه يعرف دائمًا أفضل السبل لمواصلة الضغط على خصومه والبقاء متقدمًا عليهم بخطوة واحدة، حتى يضطروا دائمًا للرد على تحركاته دون أن يكونوا قادرين على تنفيذ مخططاتهم. واستغل السرعة وعنصر المفاجأة ووحدة القيادة، وتمكن من تحريك حتى القوى الكبيرة والمتماسكة بإحكام ومهارة عبر مسافات طويلة لفرض إرادته على خصومه بأقل قدر من الخسائر لكلا الجانبين.

****

تعظيم الامكانات البشرية

لم يؤمن محمد فقط بإلهام الناس وتحفيزهم، سواء في السلم الذي أحبه أو في الحرب التي كرهها، ولكن أيضاً بالتفويض المدروس للمسؤوليات. فمن خلال التفويض كان يعلم أنه قادر على تطوير ثقة وقدرة الأشخاص الذين يبدو أنهم يمتلكون إمكانات للتطور حتى يتمكنوا هم أنفسهم من الانتقال إلى أدوار قيادية. كان مدركاً أن التفويض يُعطي الناس إحساساً بالتمكين والتحفيز مما سيزيد من الانتاجية والفعالية وذلك لأن أولئك الذين تم تكليفهم بالمهام سيعملون بجهدٍ أكبر من المعتاد وذلك لاثبات أن الثقة بهم لم تكن في غير محلها.

ورأى أن للتفويض أربع مراحل متتابعة: الاختيار والتدريب والثقة والمكافأة. وبعبارة أخرى، كان يراقب قومه باستمرار، وخاصة الشباب والملتزمين منهم، باحثاً عن الإمكانات في الشخص الذي من الممكن أن يُعقد الأمل عليه. عندما كان يرى أن شخصاً لديه ذلك البريق الزائد، فإنه كان يقربه منه أو إلى شيخ آخر، حتى أنه قد يساعد في تدريب هذا الشخص من خلال القدوة والمشاركة المباشرة. وبعد ذلك وعندما يشعر أن هذا الشخص أصبح مستعداً لتحمل المسؤولية كان يفوضه بمهمة. وإن أُعتبر ذلك الشخص جاهزاً في بعض الأحيان فإن المهمة تكون كبيرة ومعقدة ومهمة بشكل غير عادي.

يجدر بنا أن نحلل كل خطوة من هذه الخطوات بمزيد من التفصيل، بدءًا من الطريقة التي رصد بها محمد المواهب داخل قومه. كما ذُكر آنفاً: كان يحب التعرف على قومه ومشاهدتهم في المسجد وفي منازلهم وفي التفاعلات الاجتماعية. في بعض الأحيان كانت زياراتهم للمنزل كضيوف أو كطلاب. حيث زاره بعض أصحابه في أيام متناوبة، وكانوا يجتمعون لمشاركة ما تعلمه كل منهم حتى لا يفوتهم تعليمه [243]. ذكر مالك بن الحويرث قائلاً: « أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا»[244].

أشبه ما يكون بـ أفلاطون في «اكاديميته» وأرسطو مع «ليسيوم»، ابتكر محمد أسلوبًا غير رسمي للتدريس أثناء التجوال، والذي لم يقتصر على

جلسـات مكثفـة داخـل منـزلٍ في مكـة (المعـروف باسـم «دار الأرقـم») فحسـب، بـل أيضًـا محادثـات واسـعة النطـاق ومناقشـات والنقـاش المكثـف كل يـوم أثنـاء سـيره مـع رفاقـه وطلابـه.

فهـو لـم يعلّمهـم فقـط بـل كان يراقبهـم أيضـاً وبعنايـة، مُـدركاً اهتماماتهـم، ونقـاطِ قوتهـم وضعفهـم. كان يتفحّـص تقواهـم وإبداعهـم وذكاءهـم، وفي وقـتٍ لاحـق عندمـا وقعـت الحـرب كان يراقـب لـيرى مـن يمتلـك الطاقـة والشـجاعة والعزيمـة.

خـلال معركـة الخنـدق، كان بحاجـة ماسّـة إلى معلومـاتٍ حـولَ تحـركات العـدو. ودعـا إلى متطـوعٍ للقيـام باسـتطلاعٍ خفـيٍّ وخطـير خلـفَ خطـوطِ العـدوّ. تطـوعَ رجـلٌ هـو الزبـير بـن العـوام. وللتأكيـد عـلى خطـورة المهمـة، أعـاد النبـي الطلـب مـرة أخـرى لمتطـوع. وتقـدم الزبـير مـرة أخـرى. وسـأل للمـرة الثالثـة، ومـرة أخـرى تطـوع الزبـير. وقـد سُرّ النبـي وأثنـى عليـه علانيـة قائـلاً: « إِنَّ لِـكُلِّ نَبِـيٍّ حَوَارِيًّـا، وَإِنَّ حَـوَارِيَّ الزُّبَـيْرُ بْـنُ الْعَـوَّامِ»[245]

كان دائمـاً سـعيداً مـع أولئـك الذيـن عملـوا بجـدٍ لدعـمِ خططـه عندمـا علمـوا أنهـا تنطـوي عـلى المشـقة أو الكفـاح، هـؤلاء كانـوا هـم الاشـخاص الجديـرون بالتأسـيس. مبـاشرة بعـد معركـة أُحـد، والتـي كانـت أول هزيمـةٍ لـــ محمـد، دعـا إلى أن يركـب المتطوعـون ليلحقـوا بالمنسـحبين مـن الخصـوم في اسـتعراضٍ للقـوة، وقال»مـن يذهـب في أثرهـم ؟»[246]. وقـد أثـارَ ذلـك حماسـاً شـديداً، لكنـه اختـار فقـط مـن بـين المتطوعـين أولئـك الذيـن قاتلـوا في اليـوم السـابق، ولـم يرغـب في أن يتظاهـر أيٍ مـن المتهربـين أو الجبنـاء بأنهـم كانـوا يركبـون بشـجاعة في أثـرِ العـدوّ في حـين أن العـدوّ كانَ يُغـادر بالفعـل.

ومـن بـين الذيـن اختارهـم محمـد شـقيقان كانـا قـد أُصيبـا بجـروحٍ خطـيرة في اليـوم السـابق. وبوجـود مطيّـة واحـدة لهمـا، كانـا حريصـين جـداً عـلى إظهـار قيمتهمـا بتناوبهمـا بـين الركـوب والسـير[247]. وكان مـن الطبيعـي أن يكـون مـسروراً بوجـود محاربـين بمثـل هـذه المثابـرة والثبـات.

كان محمـد يراقـب باسـتمرار باحثـاً بـين قومـه عـن أصحـاب المبـادرة، وكان أحيانـاً يسـأل: «مَـنْ يَأْخُـذُ عَنِّـي هَـؤُلاَءِ الْكَلِمَـاتِ فَيَعْمَـلُ بِهِـنَّ أَوْ يُعَلِّـمُ مَـنْ يَعْمَـلُ بِهِـنَّ؟» ومـن ناحيـة أخـرى لـم يكـن يحـب أن يقـوم النـاس بـأدوار أو مهـام تتجـاوز قدراتهـم [248]، ولـم يكـن يحـترم الأشـخاص الذيـن يبحثـون عـن المركـز

والسـلطة مـن أجـل مصالحهـم الخاصـة، بـدلاً مـن الرغبـةً في الخدمـة. وفي حديـثٍ كثـير الاقتبـاس، وأحيانـاً مـا يُسـاء الاقتبـاس منـه، قـال محمـد «يـا عبـد الرحمـن بـن سـمرة، «لا تَسْـأَلِ الإِمَـارَةَ، فَإِنَّـكَ إِنْ أُوتِيتَهَـا عَـنْ مَسْـأَلَةٍ وُكِلْـتَ إِلَيْهَـا، وَإِنْ أُوتِيتَهَـا مِـنْ غَـيْرِ مَسْـأَلَةٍ أُعِنْـتَ عَلَيْهَـا، وَإِذَا حَلَفْـتَ عَـلَى يَمِـينٍ فَرَأَيْـتَ غَيْرَهَـا خَـيْرًا مِنْهَـا، فَكَفِّـرْ عَـنْ يَمِينِـكَ، وَأْتِ الَّـذِي هُـوَ خَـيْرٌ».[249].

لـم يحـاول محمـد التقليـل مـن الـروح الرائعـة للعمـل التطوعـي التـي تثبـت دائمـاً فائدتـه الكبـيرة داخـل المجموعـات أو المنظمـات. فقـد كان معجبـاً بالرغبـة الصادقـة في الخدمـة التـي كثـيراً مـا رآهـا. كان بالفعـل يحـاول أن يقـول كمـا قـال إيسـوب ذات مـرة: «كـن حـذراً ممـا تتمنـاه». وجـاءت القيـادة مـع عـبء ثقيـل مـن المسـؤولية، لا سـيما في أن تكـون عادلـة بشـكلٍ صـارم، وكمـا لوحـظ في بدايـة هـذا التحليـل، «كلكـم مسـؤولٌ عـن رعيتـه» والمعنـى هنـا في الدنيـا ويـوم القيامـة.[250]

لقـد فهـم أيضـاً أن النـاس يتعلمـون بشـكلٍ أفضـل مـن خـلال العمـل. وعـادة مـا كان يقـول» إِذَا خَـرَجَ ثَلاَثَـةٌ فِي سَـفَرٍ فَلْيُؤَمِّـرُوا أَحَدَهُـمْ»[251]. يبـدو هـذا توقعـاً غريبـاً ومفرطـاً، وهـو مـا يذهـب إلى تفسـيره بعـض المفسريـن بالقـول أن النبـي يعنـي إمامـاً للصـلاة، أي أنـه يجـب عليهـم أن يقـرروا مـن منهـم هـو أكثرهـم علمـاً بالقـرآن وأحسـنهم سـلوكاً.

يجـب عـلى المسـلمين بالفعـل تعيـين إمـام للصـلاة، لكـن هـذه القـراءة محدودة لمـا قصـده محمـد بالفعـل. ومـن المنطقـي أكثـر، أنـه فهـم أن أي سـفر سـيتطلب عـلى الأقـل بعـض الإدارة واللوجسـتية (لتعلـم المهـارات الأساسـية التـي يمكـن البنـاء عليهـا لاحقًـا) وأن مسـؤولية هـذه الأمـور يجـب أن تـوكل لشـخص يتمتـع بأهليـة واضحـة.

عندمـا بـدأت غـارات القوافـل بعـد وقـت قصـير مـن الهجـرة إلى المدينـة المنـورة، قـاد محمـد بنفسـه بعـض البعثـات. وفي كل مـرة كان يغـادر فيهـا المدينـة كان يـترك شـخصاً مختلفـاً مسـؤولاً عـن المؤمنـين في المدينـة، وبالتـالي كان يشـارك النـاس في القـدرة عـلى تحمـل المسـؤولية، أو تعلـم مهـارات جديـدة أو تعميـق تدينهـم مـن خـلال خدمـة المجتمـع. وفي تتابـعٍ قصـير ولتوضيـح هـذه النقطـة، تـرك سـعد بـن عبـادة، وأبـو سـلمة بـن عبـد الأسـد وعبـد اللـه بـن أُبـي مسـؤولون.

لقـد كان حريصـاً جـداً عـلى تفويـض النـاس حتـى في سـنٍّ مبكّـرة، لأنـه كان يراهـم أنقيـاء، وغيوريـن ونشـيطين ومخلصـين وثابتـين. عـلى سـبيل المثـال، في عـام 616 م، عندمـا أرسـل مجموعـة ثانيـة مؤلفـة مـن حـوالي ثمانـين مسـلمًا إلى الحبشـة لطلـب اللجـوء مـن الملـك أرمـاح خـلال فـترة الاضطهـاد في مكـة، وضعهـم تحـت سـلطة جعفـر بـن أبـي طالـب. كان هـذا الشـاب، الـذي يبلـغ مـن العمـر 25 أو 26 عامًـا، أصغـر بكثـير مـن معظـم المهاجريـن، لكنـه كان قـد تتلمـذ وتـدرب تدريبـاً شـاملاً بشـكلٍ غـير رسـمي بالتعلـم مبـاشرة مـن محمـد وأبـو بكـر وآخريـن مـن كبـار السـن. كان جعفـر اختيـاراً ملهمـاً، فعندمـا ناقـش الملـك الحبـشي مسـألة طـرد اللاجئـين، تحـدث جعفـر ببلاغـة شـديدة وبشـكلٍ مقنـع عـن أوجـه الشـبه بـين تعاليـم محمـد وتعاليـم المسـيحية حتـى وافـق الملـك عـلى منحهـم اللجـوء [252].

قبـل عـام مـن مغـادرة محمـد مكـة إلى المدينـة المنـورة في 622 م، التقـى بـه اثنـا عـشر شـخصاً مـن أهـل المدينـة في العقبـة خـارج مكـة وعاهـدوه بالطاعـة والـولاء والامتثـال لقواعـده الأخلاقيـة. وعندمـا همّـوا بالعـودة إلى ديارهـم، طلبـوا منـه إرسـال ممثـل إلى المدينـة المنـورة مـن أجـل تعليـم القـرآن ودعـوة النـاس إلى الإسـلام. كان بإمـكان محمـد، والـذي كان يبلـغ مـن العمـر أكثـر مـن خمسـين عامـاً آنـذاك، أن يُرسـل أحـد رفاقـه المقربـين ممـن هـم في فئتـه العمريـة، إلا أنـه عـيّن مصعـب بـن عُمـير والـذي كان عائـداً مـن الحبشـة ولـم يتجـاوز عمـره ثمـانٍ وعشريـن عامـاًّ، كأول سـفير للإسـلام [253]. ولحـزن محمـد، تـوفيّ مصعـب في معركـة أحـد بعـد ثـلاث سـنوات.

بعـد فتـح مكـة عـام 630 م. انتقـل محمـد للدفـاع عـن نظامـه السـياسي ضـد القـوى التـي تحتشـد ضـده، وفي غيابـه كان بحاجـة إلى تعيـين قائـد كـفء وجديـر بالثقـة في مكـة المكرمـة، التـي لـم تكـن قـد اعتـادت بعـد عـلى الإسـلام. عـلى الرغـم مـن وجـود عـدد لا يحـصى مـن المسـلمين المخضرمـين ممـن يمكـن اختيارهـم، بمـن فيهـم أقـرب أصدقائـه أبـو بكـر وعمـر بـن الخطـاب وعثمـان بـن عفـان وصهـره عـلي بـن أبـي طالـب، إلا أن محمـد اختـار شـاباً يبلـغ مـن العمـر 21 عامـاّ أسـمه عتـاب بـن أسـيد، وطلـب منـه أن يـؤم النـاس وأن يتصرف كمـشرف [254]. كان في الواقـع أول إمـام (بعـد محمـد نفسـه) يقيـم صـلاة الجماعـة في مكـة بعـد فتحهـا. كان إداريًـا وقائـدًا جيـدًا وظـل في منصبـه في مكـة حتـى وفـاة محمـد بفـترة طويلـة.

وبالمثـل، عندمـا اعتنـق شـعب بنـي ثقيـف في الطائـف الإسـلام في عـام 630 م، عـيّن محمـد عثمـان بـن أبـي العـاص قائـداً جديـداً لهـم، عـلى الرغـم مـن صغـر سـنه، لما اشـتهر بـه مـن التقـوى. لقـد رأى فيـه شـيئاً مميـزاً، وقـد ثبـت صحـة ذلـك. بعـد حكمـه العـادل في الطائـف، عمـل عثمـان بـن أبـي العـاص لخلفـاء محمـد مـن بعـده كحاكـم لـكل مـن البحريـن (شرق شـبه الجزيـرة العربيـة) وعُمـان (جنـوب شرق شـبه الجزيـرة العربيـة).

كان محمـد مولعـاً جـدًا بأسـامة بـن زيـد، وهـو ابـن ابنـه بالتبنـي زيـد بـن حارثـة، ولسـنوات عديـدة كان أسـامة يركـب خلـف محمـد عـلى حمـاره [255]، وهكـذا تلقـى أسـامة تعليمـاً شـخصياً جـداً، حتـى أن محمـداً سـمح لأسـامة بدخـول الكعبـة معه، وهـو امتيـاز نـادر[256]. قاتـل أسـامة في معركتـه الأولى عندما كان في الخامسـة عـشرة مـن عمـره، وقَتَـل خطـأً جنديـاً مـن العـدو كان قـد نطـق بالشـهادة [257]. وقـد تـم تصحيحـه مـن قبـل كل مـن بشـير بـن سـعد وهـو قائـده في السرية ومـن قبـل النبـي. ومـع ذلـك، عندمـا كان أسـامة في التاسـعة عـشرة مـن عمـره، أوعـز إليـه محمـد بأنـه يريـد أن يرسـله إلى الشـمال كقائـد عسـكري لبعثـة استشـكافية كبـيرة للثـأر لمقتـل والـده زيـد. وكان في ذلـك إسـاءة للعديـد مـن المحاربـين الأكـبر سـنّاً منـه إلا أن محمـد تمسـك برأيـه. وكان أسـامة مسـتعداً ومناسـباً تمامـاً لهـذه المهمـة [258].

لـم يكـن هنـاك أي نـوع مـن المحسـوبية أو المحابـاة في قـرار محمـد، كان يعتقـد ببسـاطة أن أسـامة وعـلى الرغـم مـن صغـر سـنه، كان هـو الرجـل المناسـب للمهمـة. وكان محمـد في الواقـع، يعـارض وبشـدة تفويـض السـلطة أو المسـؤولية كبيرهـا وصغيرهـا لأشـخاص غـير مؤهلـين أو غـير جديريـن بهـا. وقـد كان يقـول بـأن الوثـوق بالأشـخاص الذيـن يشرفـون عـلى الأمـور عندمـا يكونـون غـير مؤهلـين، فـإن ذلـك علامـة مـن علامـات يـوم القيامـة[259].

أبـو ذر الغفـاري الـذي اعتنـق الإسـلام في وقـت مبكـر جـداً وأحـد أصحـاب الرسـول المقربـين، جـاءه ذات مـرة وطلـب منـه وعـد بمنصـبٍ عـام، وكان يأمـل في أن تحقـق لـه صحبتـه مطلبـه هـذا. ولكـن محمـد ضرب بكفـه عـلى منكبـه وأوضـح لـه بأنـه قـد أدرك ضعفـاً وأن المسـؤولية أمانـة، وأنـه لا يسـتطيع إلزامـه. وأضـاف أن توزيـع المسـؤوليات في يـوم القيامـة سـيكون مصـدراً للنـدم والخـزي مـا لـم ينطـوي عـلى الوفـاء المسـبق بالالتزامـات[260].

وبالمثل، عندما جاء رجلٌ آخر إلى النبي وقال « لقد استعملت فلانًا، لكنك لم تستعملني في أي شيء»، فأخبره محمد بلطف ودعم كبيرين أنه في الواقع، يجب عليه أن يقبل ما قد يبدو له في الوقت الحالي أمراً مجحفاً، وأنه حتى القادة من بعده سوف يتغاضون عن الرجل لصالح الآخرين، وطلب منه أن يصبر حتى يلاقيه يوم القيامة على الحوض حتى يوفّى كلٌ أجره [261]، إلا أننا لا نعرف نقاط الضعف التي رآها محمد في ذلك الرجل.

وربما كان تعيين شخص لقيادة كتيبة من القوات هو الشكل الأكثر شيوعاً للتفويض داخل مجتمع محمد. فلم تكن الغارات في العادة كما قد يتخيلها المرء في يومنا هذا: معارك تهدف إلى قتلٍ وهزيمةِ الأعداء لأغراضٍ سياسية. بل إنّ بعضها كان إما هجماتٍ مفاجئة صغيرة النطاق على قوافل غير محميّة أو محميّة بشكلٍ خفيف لتحقيق مكاسب ماديّة في الوقت الذي كان فيه النظام السياسي الإسلامي يُكافح مالياً، ومن ثم غاراتٍ صغيرة على البدو من أجل الماشية. وكان معظمها عبارة عن «استعراضٍ للقوة» بهدف السيطرة على طرق أو مناطق معينة، أو لثنيّ الجماعات عن التحالف مع قريش، أو لتشكيل تحالفات أو لهداية العشائر والبدو.

كانت هذه الغارات، والتي هي جزءٌ راسخ من الثقافة العربية، بالكاد عسكرية بطبيعتها، وشملت في معظمها أعداداً صغيرة من المقاتلين، والقليل من القتال وعدد قليل من القتلى أو بلا قتلى على الاطلاق. وتخبرنا المصادر أن «معركة عنيفة» حدثت بشكل خاص خلال إغارة قطبة بن عامر بن حديدة، بأمر من محمد على حي خثعم بناحية تبالة. ومع ذلك لم يكن هناك سوى عشرين مقاتلاً بالمجموع، يمتطون عشرة جِمال، لذلك ينبغي علينا أن نضع في اعتبارنا صغر نطاق مثل هذه «المعارك»[262]. فعلى الرغم من صغر خسائرها، إلى أنها أعطت النظام السياسي الإسلامي تجربة لا تُقدر بثمن، وعندما كانت تكلّل بالنجاح، كانت تزيد من هيبة النظام وسلطته. لا عجب أن محمداً رآى فيها تدريباً مثالياً لشبّانه.

كانَ اختيار محمد في بعض الأحيان لهؤلاء القادة لمجرد أنه رأى الإمكانات التي أراد تطويرها، وفي أحيان أخرى كان يختارهم بسبب معرفتهم المحليّة العميقة [263].. فعلى سبيل المثال، اختار ابن أبي العوجاء السلمي للإغارة

علـى بنـي سـليم، التـي كان ينتمـي إليهـا، واختـار غالـب بـن عبـد اللـه الليثـي في سريّـة إلى بنـي الملـوح مـن بنـي ليـث التـي جـاءَ منهـا [264]. وأرسـلَ النبـي عمـرو بـن العـاص، عـلى الرغـم مـن حداثـة عهـده بالإسـلام، ليقـود كتيبـة ضـد بَـلِيّ وقضاعـة، ولأن بـليّ كانـت مـن أقـارب أمـه، وكان محمـد يأمـل بـأن يكـون عمـرو قـادراً عـلى التجنيـد مـن بينهـم [265].

ومـن المثـير للاهتمـام أن عَمـراً رفـض السـماح لمحاربيـه بإشـعال النـار اتقـاءً للـبرد، ربمـا لأن النـار ستكشـف عـن مـكان وجودهـم. وقـد جادلـه بعـض المحاربـين ممـن خدمـوا لفـترة طويلـة، وممـا لا شـك فيـه أنهـم كانـوا مزوعجـين كيـف لحديـث عهـد بالإسـلام أن يحصـل عـلى تفويـض النبـي، لكـنّ عَمـراً كان يعلـم ذلـك حيـث قـال: «أمـرت أن تسـمع لي وتطيـع، إفعـل».[266]

أخـذ محمـد عـلى عاتقـه محاولـة تصحيـح العيـوب التـي لاحظهـا داخـل مرؤوسـيه، مـع الاقـرار بالطبـع بـأن التغيـير لابـد أن يأتـي في نهايـة المطـاف مـن الداخـل. بعـد اسـلام خالـد بـن الوليـد، المحـارب الموهـوب الـشرس الشـجاع والـذي تسـبب هجومـه مـن المؤخـرة في معركـة أحـد إلى هزيمـة محمـد، كان النبـي مـسروراً بطبيعـة الحـال بـأن خالـد يُقاتـل في صفّـه وليـس ضـدّه. غـير أنـه رأى بوضـوح أنّ خالـداً- وكمـا قـال عـن رفيـق شرسٍ آخـر هـو خـراش بـن أميـة- «أكثـر ميـولاً للقتـل»[267]. أدرك أن خالـداً كان مقاتـلاً موهوبـاً وشـجاعاً، وهـو مـا يمكـن أن يسـتخدمه إذا تمـت السـيطرة عليـه، ولكـن عدوانيتـه وميلـه الفطـري للعنـف يجـب أن يتـم تخفيفهمـا خـارج المعركـة.

وقـد تبـين في البدايـة بأنهـا مهمـة صعبـة، بعـد أن ميّـز خالـد نفسـه في معركـة مؤتـة عـام 629م، إلا أن محمـد شـعرَ بالضيـق عندمـا قتـل خالـد (مثـل خـراش بـن أميـة المذكـور آنفـاً) أشـخاصاً أثنـاء فتـح مكـة عـام 630، وهـي حملـةٌ كان مـن المفـترض أن تكـونَ خاليـةً تمامـاً مـن الدمـاء. بعـد ذلـك، ولبعـض مـن الوقـت أرسـلَ محمـد خالـداً في مهـامَ أُخـرى، ليسـت قتاليّـة ولكـن لدعـوة القبائـل إلى الإسـلام. كان يأمـل محمـد أن هـذا سـيُعلمه الهـدوء والصـبر. ومـع ذلـك فقـد كان قلقـاً مـن أن خالـد قـد يتجـاوز الحـدود، وبالفعـل فعـل ذلـك في إحـدى المناسـبات، عندمـا أرسـله محمـد إلى بنـي جذيمـة في كنانـة.[268]

عندمـــا رأى بنـــو جذيمـــة أن خالـــداً كان يتوســـطهم، أصابهـــم الذُعـــر وحملـــوا أســـلحتهم. طلـــب خالـــد منهـــم إلقـــاء أســـلحتهم، وأخبرهـــم بأنـــه لـــن يُلحـــق بهـــم أي ضرر. وسرعـــان مـــا امتثلـــوا لـــه وألقـــوا أســـلحتهم، وأخـــبروا خالـــداً بأنهـــم في الواقـــع قـــد اعتنقـــوا الإســـلام. رفـــض خالـــد هـــذا الإدعـــاء أو أســـاء فَهمـــه (لأنهـــم كانـــوا يتحدثـــون لهجـــةً مختلفـــة)، قـــام بتقييدهـــم وأعـــدمَ بعضهـــم. وكان عـــدد مـــن محاربـــي «المهاجريـــن» و»الأنصـــار» ممـــن كانـــوا في جيـــش خالـــد والذيـــن كانـــوا يعرفـــون جيـــداً تعاليـــم محمـــد حـــول العدالـــة، قـــد عصَـــوا خالـــداً بشـــكل مبـــاشر ورفضـــوا قتـــل أي شـــخص، ممـــا أثـــار انزعـــاج خالـــد. كانـــوا يعلمـــون بـــأن الطاعـــة ضروريـــة كمـــا هـــي العـــادة، والتـــي كانـــت تعاليمـــاً اســـلامية. ولكـــن، كمـــا هـــو موضـــح أعـــلاه، كان لا بـــد مـــن العصيـــان عـــلى عمـــلٍ مخالـــفٍ لكتـــاب اللـــه أو لنبيـــه. عندمـــا علـــم محمـــد بفظاعـــة عمـــل خالـــد، رفـــع يديـــه إلى اللـــه وهتـــف قائـــلاً «اللَّهُـــمَّ إِنِّـــي أَبْـــرَأُ إِلَيْـــكَ مِمَّـــا صَنَـــعَ خَالِـــدٌ!»[269]. ثـــم اســـتقرض [270] وأرســـل عـــلي بـــن أبـــي طالـــب بالمـــال كتعويـــض عـــن بنـــي جذيمـــة، وليدفـــع لهـــم الديـــة ولتعويضهـــم عـــن كل مـــا تلـــف وصـــولاً إلى آنيـــة الكلـــب. كان الغضـــب شـــديداً لدرجـــة أن عـــلي قـــام بتعويضهـــم بشـــكلٍ مفـــرط، الأمـــر الـــذي أثنـــى عليـــه محمـــد لاحقـــاً.

عندمـــا قـــدم خالـــد نفســـه لمحمـــد، «ابتعـــد النبـــي عـــن خالـــد غاضبـــاً منـــه»، وتجنبـــه لفـــترة مـــن الوقـــت ليُعلمـــه ثقـــلَ خطئـــه. حـــاول صحابيـــان مـــن المســـلمين مناقشـــة خالـــد ممـــا جعلـــه يحتـــج، ثـــم وبخـــه محمـــدٌ علنـــاً، وطلـــب منـــه أن يلتـــزم الصمـــت وأن لا ينتقـــد الصحابـــة، الذيـــن كانـــت مزاياهـــم تســـاوي ضعـــف أيّ جبـــل مـــن ذهـــب [قصـــد حرفيـــاً جبـــل أحـــد] يمكـــن أن يقضيـــه خالـــد في خدمـــة اللـــه[271]. إن السّـــخط الشـــديدَ مـــن النبـــي كان توبيخـــاً خطـــيراً ممـــا جعـــل خالـــد يغـــير مـــن ســـلوكه.

ومـــع ذلـــك، كان محمـــد يعـــرف أن خالـــداً مصـــدر قـــوة، وأنـــه إذا مـــا تمـــت الســـيطرة عليـــه، فإنـــه ســـيصبح بطـــلاً عظيمـــاً للمســـلمين. وقـــد ثابـــر بصـــبرٍ وعمـــل عـــن كثـــب مـــع خالـــد لتوجيهـــه قبـــل إرســـاله في مهـــام أخـــرى. كان خالـــد لا يـــزال يرتكـــب الأخطـــاء، عـــلى الرغـــم مـــن أنـــه لـــم يرتكـــب أخطـــاءً بنفـــس القـــدر مـــن الفظاعـــة كمـــا حـــدث مـــع بنـــي جذيمـــة. خـــلال حملـــة حُنـــين، صـــادف محمـــد مجموعـــة مـــن النـــاس متجمهريـــن حـــول جثـــة إمـــرأة مقتولـــة، فأرســـل النبـــي

شخصاً ليسأل عمّا حدث. وعندما عاد وأبلغ عن مقتل المرأة، قال الرسول أن النساء يجب أن لا يقتلن أبداً. عندما علم أن خالداً كان المسؤول عن الوحدة المسؤولة، أرسل محمد رسولاً لإرشاد خالد بألاّ يقتل النساء أبداً [272]. على الرغم من هذا الخطأ، أثبت خالد أنه لا يُقدر بثمن في السنوات المتبقية من حياة محمد، وفي وقتٍ لاحق غزا الشام (سوريا الكبرى) فيما يعتبره معظم المؤرخين العسكريين انتصاراً إستراتيجياً.

عندما قام محمد بتمكين المرؤوسين للقيام بمهام أو مسؤوليات معينة، حاول جاهداً عدم تقييد أيديهم، ولكن وبشكلٍ أكثر مرونة ترك لهم مجالاً للمبادرة والاحتكام. إن منح المرؤوسين حرية استخدام مبادرتهم لا يعني أن الجميع فعلوا ذلك، كان البعض أقل استعداداً من غيرهم. عندما قاد عمر سرية إلى بعض من هوازن في عام 628، تفرق الخصم قبل وصول قواته. اقترح دليل بدوي بأن يقوم عمر بمداهمة مجموعة بدوية أخرى مجاورة، الأمر الذي رفض عمر القيام به لأن محمد لم يأذن بذلك صراحةً[273]. وفي مناسبةٍ أخرى، واجه قائد السرية أبو سلمة نفس الموقف الذي واجهه «عمر»، ولكن عندما أدرك أن عدوه قد تشتت، أرسل ثلثي قواته لمداهمة مجموعاتٍ أخرى وأخذ الغنائم [274]. وقد كان النبي سعيداً بكلا القرارين.

ويروي الواقدي قصة إرسال محمد لبشير بن سعيد مع ثلاثمائة مقاتل إلى الجناب، عندما وصلوا إلى المنطقة المجاورة صادفوا قطيعاً من الماشية وتشاوروا فيما بينهم ما إذا كان عليهم الاستيلاء على القطيع، مما يعني أنهم لن يتمكنوا بعد ذلك من التحرك بسرعة أو بشكلٍ مفاجئ، أو ما إذا كانوا سيستمرون في مواجهة العدو كما تم تكليفهم. وبتنفيذ مبادرتهم، أخذوا الماشية مع أسيرين اللذين اعتنقا الإسلام وتم إطلاق سراحهم من قبل محمد [275]. وكانت مهمة ناجحة.

ولعل أفضل تعبير عن المبادرة التي مُنحت إلى من أُوكلت إليهم المهام هو ما حدث مع معاذ بن جبل في اليمن. فعندما أرسله محمد ليكون والياً ولجمع الزكاة، سأله كيف يحل أي خلافات [276]، أجاب معاذ أنه سيعتمد على الوحي القرآني. وعندما سأله محمد ماذا سيفعل إذا لم يجد الجواب الذي يحتاجه؟، قال معاذ بأنه سيحتذي بمحمد، ويحاول أن يفعل ما يعلم

بـأن النبـي سـيفعله. وعندمـا اسـتفسر محمـد عمّـا سـيفعله معـاذ إذا لـم يجـد مثـالاً مفيـداً، قـال بأنـه وفي هـذه الحالـة سـيجتهد لتطبيـق حكمـه الخـاص. كان محمـد مـسروراً بالإجابـة وربـت عـلى صـدر معـاذ باعتـزاز.

نـرى هنـا تعبـيراً مبكـراً لمـا سـمّاه علمـاء المسـلمين لاحقـاً بالاجتهـاد، والكفـاح العقـلي المسـتقل لإيجـاد إجابـات سـليمة للأسـئلة التـي يبـدو أنهـا تُركـت دون إجابـة مـن القـرآن وتعاليـم وممارسـات محمـد واجمـاع العلمـاء. وفي الواقـع اسـتخدم معـاذ شـكلاً مـن أشـكال كلمـة الاجتهـاد عندمـا شرح طريقتـه المقترحـة لمحمـد. حيـث قـال «سـأجتهدُ» أي أنـه سـيبذل قصـارى جهـده لإيجـاد المنطـق الصحيـح.

كمـا ونـرى هنـا أيضـاً نـوع التمكـين الـذي نسـميه اليـوم قيـادة المهمـة أو ضوابـط التوجيـه، والـذي يعنـي الثقـة بمرؤوسـيه المدربـين والموثـوق بهـم لاسـتخدام مبادرتهـم لتقديـم النتيجـة التـي يعرفـون أن رئيسـهم يريدهـا. ويشـجع هـذا النـوع مـن القيـادة عـلى المبـادرة وسرعـة اتخـاذ القـرار، ضمـن ضوابـط معقولـة وواضحـة ومتاحـة ومفهومـة عـلى نحـوٍ متبـادل. يُعلـم القائـد المـرؤوس بنوايـاه وكذلـك عـن مهمـة المـرؤوس الخاصـة وسـياقها. وبشـكل مثـالي يُخـبره بمـا هـو مطلـوب ولمـاذا هـو مطلـوب. وبمجـرد ابتعـاده عـن الرئيـس، يمكـن للمـرؤوس عندئـذ أن يُقـرر في إطـار حريتـه المفوضـة أفضـل طريقـة لإنجـاز المهمـة، واضعـاً في اعتبـاره مـا يعـرف أو يعتقـد أن الرئيـس سـيفعله إذا كان هنـاك.

قـد يكـون هـذا المبـدأ غـير عـادي في بعـض الثقافـات، ولكـن في الإسـلام كان هذا ولا يـزال طبيعيـاً جـداً. وبغـض النظـر عـن القـرآن نفسـه، فـإن السـنة النبويـة وجهـت كل السـلوكيات والأفعـال والعـادات. وقـد حـاول كل فـرد في مجتمـع محمد محـاكاة الطريقـة التـي كان يفعـل بهـا الأشـياء الرئيسـية والدنيويـة عـلى حـد سـواء، ليـس فقـط لأنهـم أرادوا نيـل رضـاه، ولكـن أيضـاً لأنهـم اعتـبروه شـخصاً مثاليـاً ونـادراً مـا يُخطـئ. يسـتخدم بعـض المسـيحيين اليـوم شـعار «WWJD» الـذي يعنـي «مـاذا كان يسـوع سـيفعل؟» للدلالـة عـلى الـضرورة الأخلاقيـة للتـصرف بطريقـة تنسـجم مـع مسـيحهم. قـام جميـع المسـلمين بهـذا عـلى مـدى ألـف وأربعمائـة عـام، وكان مثـال محمـد هـو محـور تركيزهـم كجانـب أسـاسي

لفهمهـم الدينـي. وجـدت هـذه السُـنّة مكتوبـة بعـد قـرونٍ قليلـة مـن وفاتـه في مجموعـة واسـعة مـن الأحاديـث ومجموعـة معياريـة للقوانـين والإرشـادات التـي تعتمـد عليهـا.

والأهـم مـن ذلـك أيضـاً، عندمـا أرسـل محمـد معـاذ بـن جبـل لولايـة اليمـن، قـدم لـه نصائـح إرشـادية حـول كيفيـة تـصرف القائـد الجيـد دائمـاً. ومـن الواضـح أنـه مـع الرعايـة اللطيفـة في الاعتبـار، بـدلاً مـن الاسـتغلال أو الإكـراه الـذي سـيؤدي حتمـاً إلى العـداء. قـال محمـد «يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّـرَا»[277].

آمـن محمـد بمكافـأة التفـوق أو الجهـد الخـاص، وقـدم للمسـاهمين المتميزيـن هدايـا مـن الأسـلحة والملابـس والخيـول والابـل، وحتـى الوظائـف الإداريـة (كتحصيـل الـزكاة) أو الأدوار القياديـة. هنـاك أمثلـة قليلـة قـد تثبـت بوضـوح هـذه الرغبـة في المكافـأة.

بينمـا كانـوا يسـيرون للقـاء قريـش في أُحـد عـام 625 م، كافـأ محمـد الحبـاب بـن المنـذر، الصحابـي الـذي كان قبـل عـام في معركـة بـدر قـد نصحـه وأشـار عليـه بـذكاء أيـن يضـع قواتـه. والآن كافـأ الحبـاب بـشرف حمـل رايـة الخـزرج إلى المعركـة.[278]

في عـام 627 م، قاتـل عبـد اللـه بـن عمـر إلى جانـب محمـد في معركـة الخنـدق عندمـا كان في الخامسـة عـشرة مـن عمـره فقـط، بعـد أن رفـض السـماح لـه بالقتـال في بـدر قبـل عامـين [279]. ولشـجاعته وخدمتـه المسـتمرة خـلال الغـارة عـلى بنـي قريظـة، كافـأ محمـد عبـد اللـه في عـام 629 م بتعيينـه في منصـب مُقـرئ، أو مُقـرئ قـرآن جماعـي.

خـلال معركـة خيـبر كان يأمـل في العثـور عـلى شـخصٍ جديـرٍ بمـا فيـه الكفايـة ليكـون حامـلاً للّـواء. ففـي الجيـش العربـي كان هـذا شرف عظيـم، وكان عـادةً مـن يُكلـف بـه قائـد معـيّن. لـم يتمكـن عـلي بـن أبـي طالـب في البدايـة مـن القتـال بسـبب مـرضٍ في عينـه، إلا أنـه شـعر بالخجـل مـن عـدم الانضمـام إلى محمـد فأخـذ مكانـه في المعركـة رغـم مشـكلة عينـه. تأثـر محمـد واعجـب بتصرفـه، ومنـح عليـاً شرفَ حمـلِ اللـواء [280].

بعـد بطولـة خالـد بـن الوليـد ونكرانـه للـذات في معركـة مؤتـة، عندمـا رفـع لـواء المسـلمين عاليـاً وحشـد القـوات لـه بمبـادرة منـه بعـد مقتـل ثلاثـة أخريـن مـن حامـلي اللـواء [281]. منحـه محمـد مكافـأة عظيمـة، حتـى أنهـا ظلـت حيّـة لمـدة 1400 عامـاً وهـي لقبـه بــ «سـيف اللـه»[282].

وعندمـا شـارك بعـضٌ مـن أهـل مكـة ممـن اعتنـق الإسـلام حديثـاً في معركـة حُنـين وأثبتـوا بالتـالي ولاءهـم، في الوقـت الـذي أعـرب فيـه بعـض مستشـاري محمـد عـن قلقهـم بشـأن مـدى إخلاصهـم، كافأهـم بأعـدادٍ كبـيرة مـن الإبـل [283].

وعندمـا عـاد عبـد اللـه بـن أنيـس مـن مهمـة قتـل خالـد بـن سـفيان بـن نبيـح الهـذلي، العـدو اللـدود والمتعنـت الـذي كان يحشـد قـوة ضـد محمـد، كافـأه النبـي بهديـة وهـي عصـا، قائـلا لـه « آيَـةٌ بَيْنِـي وَبَيْنَـكَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ" وقـد تأثـر عبـد للـه بـن أنيـس بذلـك فقرنهـا بسـيفه، وبقيـت معـه حتـى مـات، ثـم ضمـت في كفنـه ودفنـت معـه [284].

كان محمـد يُركـز عـلى الأشـخاص والمهـام، وفي بعـض الأحيـان كان يُصـاب بخيبـة أمـل عندمـا تُـترك المهمـة غـير مكتملـة، وخاصـةً إذا كان يعتقـد أن الفريـق الـذي كلّفـه بهـا -حتـى وإن لـم يكـن القائـد نفسـه- قـادر عـلى إدارتهـا. أراد أن يـرى المبـادرات. بعـد أن فشـلت إحـدى السرايـا قـال بصيغـة لـوم: «أعجزتُـم إذ بعثـتُ رجـلاً منْكـم فلـم يمـضِ لأمـري أن تجعلـوا مَكانَـهُ مَن يمـضي لأمـري؟»[285]

لـم يكـن يحـب أن يُلّـح عـلى النـاس ليفعلـوا شـيئاً كان قـد طلبـه منهـم. فـإذا طلـب شـيئاً مـا، فإنـه كان يحـب أن يسـأل مـرة واحـدة فقـط، كمـا أراد أن يتـم ذلـك بشـكلٍ صحيـح وأن يكتمـل بالدرجـة التـي طلبهـا [286]. عندمـا طلـب مـن خالـد بـن الوليـد تدمـير صنـم «العُـزّى»، عـاد خالـد وأكـد لـه أنـه فعـل مـا طلب منـه. فسـأل محمـد عمّـا فعلـه، لكنـه لـم يكـن سـعيداً بالجـواب. فقـال لـه «فإنـك لـم تهدمهـا، فارجـع إليهـا فاهدمهـا»[287]

ومـع ذلـك كان متسـامحاً جـداً عندمـا تُرتكـب الأخطـاء، وليـس مـن المعـروف عنـه أنـه وبّـخ أي شـخص لإخفاقـه حتـى في المجـال العسـكري، إذا كان قـد أظهـر جهـداً حقيقيـاً. كمـا قـال «وَإِذَا أَمَرْتُكُـمْ بِأَمْـرٍ فَأْتُـوا مِنْـهُ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ» [288]. فإذا كانـت النتائـج ناقصـة ولكـن الجهـد كان حقيقيـاً، لـم ينتقـد أبـداً. كان يؤمـن أنـه

«فَـإِنَّ الإِمَـامَ أَنْ يُخْطِـئَ فِي الْعَفْـوِ خَـيْرٌ مِـنْ أَنْ يُخْطِـئَ فِي الْعُقُوبَـةِ»[289].

كمـا علّـمَ أيضـاً أن المسـلمين يجـب أن لا يُفصحـوا علنـاً عـن أخطـاءِ بعضهـم البعـض، ولكـن حمايـةً لكرامـة أولئـك الذيـن أخطـأوا أو فشـلوا، فينبغـي عليهـم دائمـاً أن «يسـتروها»، أي أن يكتموهـا. قـال «.. ومـن سـتر مسـلمًا سـتره اللـه يـوم القيامـة»[290]. لقـد مـارس بشـكلٍ صـارم مـا كان يعـظ بـه. يتذكـر أنـس بـن مالـك، وهـو شـاب كان بالنسـبة لمحمـد مـا نسـميه اليـوم بالمسـاعد الشـخصي، قـال «خَدَمْـتُ النَّبِـيَّ ﷺ عَـشْرَ سِـنِينَ فَمَـا قَـالَ لِي أُفٍّ قَـطُّ وَمَـا قَـالَ لِـشَيْءٍ صَنَعْتُـهُ لِـمَ صَنَعْتَـهُ وَلاَ لِـشَيْءٍ تَرَكْتُـهُ لِـمَ تَرَكْتَـهُ»[291].

عندمـا عـادَ جيشـه مـن هزيمـة مؤتـة، احتشـد العديد مـن المدنيـين في الشـوارع وسـخروا واسـتهزأوا بهـم لفشـلهم. حتـى أن البعـض قذفوهـم بالأوسـاخ، بينمـا سـارع محمـد إلى وقـف هـذه المعاملـة السـيئة قائـلاً للنـاس « ليسـوا بفرَّارٍ ولَكنَّهـم كُـرَّارٌ إن شـاءَ اللَّـهُ»[292].

كمـا أنـه كا متسـامحاً بشـكلٍ ملحـوظ عندمـا كان يُعـصَى، الأمـر الـذي بالتأكيـد لـم يحـدث كثـيراً، ولكـن يمكـن العثـور عـلى بعـض الحـالات في المصـادر الأولى. وهـذا ليـس بالأمـر المُسـتغرب لأنـه حتـى قـوم مـوسى عصـوا مـوسى. فالكثـير مـن البـشر ضُعفـاء وحمقـى وعُصـاة بطبيعتهـم، حتـى مـع وجـود نبـي بينهـم لـم يكـن ذلـك دائمـاً كافيـاً لتغييرهـم. ويُسـجل الواقـدي أنـه عندمـا وقّـع محمـد معاهـدة الحديبيـة، لـم يتمكـن أتباعـه في البدايـة مـن إدارك أهميتهـا الاسـتراتيجية وأعتبروهـا إذلالاً.إذ كانـوا مسـتائين وغاضبـين، فرفضـوا أمـره بحلـق رؤوسـهم وذبـح الأضاحـي [293]. كان غاضبـاً جـداً، إلا أنـه لـم يسـتطع أن يُجبرهـم عـلى الامتثـال لتعليماتـه، إلى أن (وبنـاءً عـلى نصيحـة زوجتـه أم سـلمة) قـامَ وحلـقَ رأسـه وذبـح أُضحيتـه. الأمـر الـذي جعلهـم يشـعرون بالخجـل مـن أنفسـهم، وفعلـوا أخـيراً مـا طلبـه منهـم. وأظهـر الوحـي بـأن المعاهـدة كانـت في الواقـع انتصـاراً عظيمـاً، وسـامحهم تمامـاً دون أي مشـاعر سـيئة متبقيـة.

وبالمثـل وقبـل التقـدم نحـو مكـة في عـام 630 م طالـب النبـي بالسريّـة التامّـة، كمـا ذُكـر أعـلاه. ومـع ذلـك، أرسـل أحـد الرجـال وهـو حاطـب بـن أبـي بلتعـة مُخـبراً إلى مكـة لتحذيرهـم مـن خطـط محمـد [294]. تـم اعـتراض المُخبر، واسـتدعى محمـد حاطـب. وتوسـل وطلـب الصفـح، موضحـاً أنـه عـصى النبـي خوفـاً عـلى

ابنـــه وعائلتـــه الذيـــن لا يزالـــون مقيمـــين في مكـــة دون أي روابـــط عائليـــة قويّـــة يمكــن أن تحميهــم، تأثــر محمــد وغفــر لـــ حاطــب.

لا يعنــي هــذا أنــه تســامح مــع العصيــان بــين أولئــك المكلّفــين بمهــام رئيســية. ومــن المعــروف أنــه قــام بطــرد ممــن تــمّ تعيينهــم اذا انحرفــوا عــن التعليمــات الواضحــة دون ســبب. وخــلال المســيرة إلى مكــة، أصرّ بحــزمٍ وبشــكلٍ متكــرر عــلى أنــه يريــد فتحهــا دون إراقــة الدمــاء. وعندمــا علــم أن ســعد بــن عُبــادة، وهــو أحد قــادة الكتائــب الأربعــة القويــة المتقدمــة نحــو مكــة، قــد صرّح علنــاً أن هــذه كانــت حربــاً ولــن يكــون هنــاك رحمــة، أعفــاه محمــد مــن القيــادة عــلى الفــور [295].

كان محمــد غــير متســامح أيضــاً مــع أي شيء أقــل مــن الســلوك الأخلاقــي الدقيــق، كمــا يظهــر في حالــة خالــد بــن الوليــد أعــلاه، فقــد أوضــح ذلــك علنًــا عندمــا كان مســتاءً مــن ســوء ســلوك شــخص مــا. وخــلال معركــة خيــبر، كان منزعجــاً بشــكل خــاص عندمــا عثــر عــلى مــا كان مخبــأ في سرج أحــد المحاربــين وكان قــد خبــأ أكثــر ممــا يســتحقه الرجــل مــن الغنيمــة. لــم يعاقبــه جســدياً لكنــه عاملــه بقســوه وأعلــن عــن ذنبــه. [296].

كان غــير متســامح بشــكل خــاص مــع الســلوك غــير الأخلاقــي لأي شــخص في موقــع المســؤولية. وقــال «مَــنِ اسْــتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُــمْ عَــلَى عَمَــلٍ فَكَتَمَنَــا مِخْيَطًــا فَمَــا فَوْقَــهُ كَانَ غُلُــولاً يَأْتِــي بِــهِ يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ»[297]. في وقــت مــن الأوقــات اســتعمل رجــلاً يدعــى ابــن اللتبيــة لجمــع الصدقــات المطلوبــة مــن بنــي ســليم. وعندمــا عــاد إلى المدينــة، أعلــن للنبــي كل مــا جمعــه مــن مــال، ثــم أظهــر لــه هديــة قــال إنــه حصــل عليهــا لنفســه. كان محمــد غاضبــاً مــن أن ابــن اللتبيــة أخــذ هديــة شــخصية أثنــاء جمــع الصدقــات ولأنــه افــترض أن محمــد ســيأخذ شــيئًا لنفســه. فوقــف عــلى المنــبر وقــال:

«مَــا بَــالُ الْعَامِــلِ نَبْعَثُــهُ فَيَجِــيءُ فَيَقُــولُ هَــذَا لَكُــمْ وَهَــذَا أُهْــدِيَ لِي. أَلاَّ جَلَــسَ فِي بَيْــتِ أُمِّــهِ أَوْ أَبِيــهِ فَيَنْظُــرَ أَيُهْــدَى لَــهُ أَمْ لاَ لاَ يَأْتِــي أَحَــدٌ مِنْكُــمْ بِــشَيْءٍ مِــنْ ذَلِــكَ إِلاَّ جَــاءَ بِــهِ يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ إِنْ كَانَ بَعِــيرًا فَلَــهُ رُغَــاءٌ أَوْ بَقَــرَةً فَلَهَــا خُــوَارٌ أَوْ شَــاةً تَيْعَــرُ» [298].

ثم رفع يديه وقال «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟».

أدرك محمــد أن المعــاصي الكبــيرة لا يُمكــن أن تمــر دون عقــاب، وكان عازمــاً

بشـــكل خـــاص عـــلى معاقبـــة أي شـــخص يهـــدد تماســـك مجتمعـــه علنـــاً. فعـــلى ســـبيل المثـــال، وخـــلال معركـــة أحـــد، اســـتغل الحـــارث بـــن ســـويد بـــن الصامـــت، وهـــو مقاتـــل مســـلم مـــن بنـــي أوس، الســـتار الدخانـــي الناجـــم عـــن فـــوضى المعركـــة لقتـــل المجـــذر بـــن زيـــاد وهـــو مقاتـــل مســـلم مـــن بنـــي الخـــزرج، كانتقـــام لثـــأرٍ دمـــوي[299]. عندمـــا علـــم محمـــد بهـــذا العمـــل الدنـــيء، والـــذي كان يُمثـــل أســـوأ مـــا في النظـــام القبـــلي القديـــم والـــذي حـــلّ محلـــه الإســـلام، فضـــلاً عـــن انعـــدام الـــشرف في تقديـــم القضايـــا الشـــخصية عـــلى الصالـــح العـــام في وقـــت الأزمـــات. جعـــل الرجـــال في مســـجد قبـــاء يصطفـــون وأخبرهـــم عـــن الفعـــل الشـــنيع الـــذي ارتكبـــه. توســـل الحـــارث طالبـــاً المغفـــرة، مُدعيـــاً أن الشـــيطان قـــد أغـــواه ليقـــوم بفعلتـــه، بـــل ووعـــد بدفـــع الديّـــة وبصيـــام شـــهرين وتحريـــر رقبـــة وإطعـــام ســـتين مســـكيناً. بقـــي محمـــد غـــير متأثـــراً بتوســـلاته، فقـــد روّعتـــه جريمـــة قتـــلِ مســـلمٍ لمســـلم، وكان يعلـــم أن عليـــه أن يُثبـــت وبوضـــوح أن المجتمـــع الإســـلامي قـــد حـــل الآن محـــل العصبيـــة القبليـــة. وأمـــر بإعـــدام الحـــارث، وهـــو مـــا تـــم تنفيـــذه حســـب الأصـــول.

****

وكما أنه لا يمكننا أن ننسب الفهم الحديث للاستراتيجية إلى محمد دون فرض مفارقة تاريخية جادّة – أي أن ننسب المفاهيم والنظريات المستخدمة الآن، والتي بالتأكيد لم تكن معروفة في القرن السابع- لا يمكننا استخدام إطار دبلوماسي حديث لفهم الكيفية التي تفاوض بها مع المجتمعات والقبائل والأنظمة السياسية الأخرى.

واليوم أصبحنا ننظر إلى الدبلوماسية باعتبارها فن إدارة المفاوضات بين الممثلين المتخصصين («الدبلوماسيين») للدول. ويشمل ذلك: عرض موقف الدولة والدفاع عنه والتفاوض والمساومة؛ والحوار الآخر لتعزيز أهداف السياسة الخارجية للدولة.

عاش محمد في عصر ما قبل الدولة. وشملت الأنظمة السياسية المعترف بها – وهي التنظيمات الاجتماعية المختلفة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية – الواحات والمدن من مختلف الأحجام التي غالباً ما كان لها تأثير على المناطق المحيطة من مختلف القبائل والعشائر بمختلف الأحجام والنفوذ، والتي كانت موجودة أحياناً بمفردها أو مع قبائل وعشائر أخرى داخل تلك المدن؛ بالإضافة إلى مجموعات من العرب الرعويين شبه الرُّحل الذين يعيشون مع قطعانهم في الثغور وفي أماكن أخرى. نظّم كل نظام نفسه من خلال هويته المشتركة، والتي عادةً ما كانت إحساس القرابة أو صلة الأنساب، والتسلسل الهرمي الصغير (باستثناء القادة غير الوراثيين)، والقدرة على الحصول على الموارد (غالباً من خلال التجارة ولكن في بعض الأحيان من خلال المداهمات) ومن ثم تعبئتها من أجل الرفاهية المثلى للناس. جميع هذه المجموعات كانت مترابطة، مما يعني أنه لا يمكن لأي منها أن تعيش فعلاً دون أن يكون لها بعض التجارة على الأقل مع المجموعات الأخرى، ومع ذلك لم يكن لديها شيء آخر يجمعها معًا، وبالتأكيد ليس لديها أي شعور بأنها «شعب».

في الوقت الحاضر، أصبح الدبلوماسيون ممثلين لحكومات الدول. ابتكر محمد نوعاً من الحكم – بمعنى أنه ابتكر وعبّر وفرض المعايير الدينية

والأخلاقيـة والاجتماعيـة والثقافيـة والاقتصاديـة- ولكنـه لـم يكـن يملـك دولـة ولم يكـن لـه حكومـة بـأي شـكلٍ مـن الأشـكال الحديثـة المعروفـة. يُمكننـا القـول في الغالـب بأنـه أنشـأ أُمـة متزايـدة الاتسـاع، بحيـث أن مجـال نفوذهـا حـلّ محـل البنيـة القبليـة التقليديـة القائمـة عـلى الأسرة والعشـيرة، وعـلى الرغـم مـن ذلـك بـدت وعملـت كقبيلـة أكثـر ممـا نطلـق عليـه اليـوم اسـم الدولـة. وكان دور محمـد أقـرب مـا يكـون لـدور شـيخ القبيلـة منـه إلى أي مـن أدوار رئيـس الدولـة التـي نعـترف بهـا اليـوم، مثـل الملـك أو الرئيـس أو رئيـس الـوزراء أو المستشـار أو حتـى المرشـد الأعـلى.

ومـع ذلـك، فـإن محمـد، الـذي تمتـع بسـلطة ونفـوذ كبيريـن في جـزءٍ كبـير مـن شـبه الجزيـرة العربيـة بحلـول وفاتـه عـام 632، بعـد عقـد واحـد فقـط مـن نيلـه المـذاق الأول لمـا يمكـن أن نسـميه اليـوم عـلى السـلطة السياسـية كوسـيط في المدينـة، كان لابـد لـه مـن تكويـن علاقـات وتحالفـات مـع القبائـل والجماعـات والبلـدات المجـاورة وغيرهـا مـن الأنظمـة السياسـية. وكان هـذا جـزءًا رئيسـياً مـن قيادتـه.

وربمـا يُمكـن أن نسـمي هـذه الأنشـطة دبلوماسـية، مـن دون أن نحـاول دفـع المصطلـح إلى مجـال المفارقـة التاريخيـة غـير المناسـبة. مـن الواضـح أنّ محمـداً -مهمـا كانـت تسـميتنا لهـذه الأنشـطة- كان بارعاً فيهـا بشـكلٍ اسـتثنائي، وماهراً في رؤيـة الفـرص وفي اسـتغلال الظـروف وتعزيـز المصالـح وتحقيـق النتائـج النافعـة. وكقائـد كانـت هـذه إحـدى قدراتـه العظيمـة.

كمـا ذُكـر أعـلاه، في قلـبِ مفهـوم محمـد للقيـادة كان البيعـة، تعهـد الطاعـة الـذي يربـط النـاس بعضهـم ببعـض، وعـادة بموافقـة أحدهـم عـلى الاسـتماع للآخـر وطاعتـه في مقابـل الحمايـة والرعايـة وحتـى المكافـأة. وهـذا المفهـوم يكمن في صميـم دبلوماسـيته. باختصـار، تصـور أن تكـون جميـع القبائـل والعشـائر والمجموعـات الأخـرى مرتبطـة بـه، كرسـول اللـه وكأداة لخلـق عالـم عـادل ومتسـامح، مـن خـلال تعهـدات الـولاء والطاعـة. وكان يعتقـد أن هـذا مـن شـأنه أن يخلـق عالمـاً مـن التقـوى والاسـتقرار والتماسـك والأمـان. ولتحقيـق ذلـك، قـام بالتواصـل مـع مجموعـاتٍ أخـرى داخـل الجزيـرة العربيـة وخارجهـا، بهـدف خلـق عالـم يخـاف اللـه.

واليوم يزعم العديد من الباحثين في الدبلوماسية، كما قال هانز مورغنثاو، أن الجوانب الرئيسة للدبلوماسية تشمل: وضع الأهداف بناءً على تقييم واقعي للقدرات الفعلية والحقيقية والقوة، تحديد تلك الأشياء بالذات في السياسات الأخرى؛ تحديد مدى توافقها أو اختلافها، وضع استراتيجيات ومسارات عمل لزيادة المواءمة وتقليل الاختلافات. وللقيام بالدبلوماسية على وجه فعّال، وفقاً لمورغنثاو والعديد من المعلقين المعاصرين، فإن العملية الدبلوماسية لديها ثلاث أدوات متاحة لها: الإقناع والتسوية والإكراه (بمعنى التهديد بالقوة أو بالعقوبات القاسية).[300]

لم يتصور محمدٌ أبداً أهدافه وأنشطته الدبلوماسية على هذا النحو، وربما لم يرسم لها قط مخططاً واعياً بأي طريقة تشبه المخطط أو حتى الخطة. ولكنه كان يضع نصب عينيه وضعاً نهائياً واضحاً، وكان يتمتع بأهلية فطرية بديهية لحمل المجتمعات والشعوب الأخرى على القيام بما يريد. وفي أوقات مختلفة قام بكل ما يعتبره المنظرون المعاصرون المبادئ الأساسية للدبلوماسية، واستخدم كل الأدوات الثلاث المذكورة آنفا.

ومن الواضح أنه كان يأمل في أن يتمكن عادةً من تحقيق أهدافه من خلال الاقناع، الذي يحتل مركز كل الجهود الدبلوماسية. وكان يؤمن بأنّ الحقائق داخل الإسلام بديهية، وأنه في حال تمكن من إيصال هذه الرسالة إلى المجتمعات الأخرى، فقد تتبناها على أساس معقوليتها ووعودها بالمكافآت الروحية.

وبعد أن ترسخت شرعيته وسلطته الكبيرة، على وجه الخصوص بعد صلح الحديبية وما تلاه من نجاحٍ في خيبر. أرسل محمد دعوات مكتوبة إلى قادة المجتمعات المحليّة داخل الجزيرة العربية وخارجها.

وامتداداً لحسن الضيافة والكرم اللذين كانا مألوفين ومتوقعين من شيوخ المجتمع العربي، رحّب أيضا في المدينة المنورة بالعديد من وفود القبائل والعشائر والمجموعات البدوية التي رغبت في معاهدته أو على الأقل الاستماع إلى وجهة نظره. لقد مدهم بممرٍ آمن وبالترحيب. لم يُسلم الجميع، ولكن الذين دخلوا في معاهدات معه عادوا إلى ديارهم بضمانات السلامة والتعايش القائم على التعاون، بشرط دفع الزكاة في حال إسلامهم أو بدفع الجزية إن لم يُسلموا.

ويمكـن العثـور عـلى مثـالٍ واضـحٍ للدبلوماسـية التـي يتضمنهـا تفاعلـه مـع هـذه الوفـود في حالـة مسـيحيي نجـران، وهـي بلـدة في جنـوب غـرب الجزيـرة العربيـة وشـمال اليمـن. أرسـل محمـد إليهـم رسـالة سـلّمها كل مـن خالـد بـن الوليـد وعـلي بـن أبـي طالـب، لـم يكـن للرسـالة تأثـير حقيقـي، لـذا أرسـل محمـد رسـولاً ليـشرح الإسـلام.

ورداً عـلى ذلـك، أرسـل المسـيحيون إلى المدينـة المنـورة وفـدا مؤلفـاً مـن سـتين شـخصاً، بينهـم علمـاء للقـاء محمـد [301]. وبمباركـة محمـد صلـوا في المسـجد باتجـاه الـشرق وليـس باتجـاه مكـة [302]. ربمـا تكـون هـذه هـي المـرة الأولى التـي صـلى فيهـا المسـيحيون في مسـجد. وعـلى الرغـم مـن ربـاط التوحيـد ومـن جهـوده المضنيـة، لـم يتمكـن محمـد والمسـيحيون مـن التوصـل إلى أرضيـة مشـتركة حـول بعـض القضايـا اللاهوتيـة، ومـع ذلـك ظـل محمـد مضيافـاً موفـراً لهـم الطعـام والمسـكن.

ورغـمَ فشـل كلا الطرفـين في إقنـاع الآخـر، إلا أنهمـا عمـلا عـلى إيجـاد علاقـة مقبولـة لهمـا. وكان المسـيحيون يوفـرون ألفـي ثـوب مرتـين في السـنة، بالإضافـة إلى إعـارة الـدروع والأسـلحة في حالـة نشـوب حـرب مـع اليمـن. وفي المقابـل ضمـن محمـد التعايـش الآمـن والعلاقـات الوديـة وضمـان الحريـة الدينيـة الكاملـة دون مضايقـات أو تدخـل [303]. كمـا وطلـب المسـيحيون أيضـاً ان يُرسـل محمـد معهـم رجـلاً حكيمـاً يمكـن ان يخـدم كقـاضٍ. وفي سـعيهم لهـذا التعيـين الرفيـع، تمنـى العديـد مـن أصحـاب محمـد أن يتـم اختيارهـم، حيـث كان عمـر يرفـع نفسـه عـلى أمـل أن يلاحظـه عندمـا قـام محمـد بتفحـص المسـجد، إلا أن محمـداً اختـار أبـو عبيـدة بـن الجـراح.[304]

ونظـراً لعـدم قدرتـه عـلى إدارة كل الأمـور الدبلوماسـية بنفسـه، فقـد اسـتمر محمـد بإرسـال الرسـل إلى الأنظمـة السياسـية العربيـة والخارجيـة، الكبـيرة منهـا والصغـيرة والقويـة والضعيفـة والمسـتقرة والبدويـة. لـم يكـن هـؤلاء دبلوماسـيين بالمعنـى الحديـث الذيـن يُمكنهـم التفـاوض بشـكل مسـتقل بالنيابـة عـن سياسـة معروفـة. فبـدلاً مـن ذلـك، حملـوا الرسـالة الروحيـة للإسـلام والبيانـات المكتوبـة والشـفوية التـي تؤكـد نبـوة محمـد وآمـال التعايـش السـعيد والمثمـر للطرفـين بشـكلٍ مثـاليّ في إطـار الإسـلام، ومـن خـلال اتفاقيـات عـدم الاعتـداء في حـال لـم

يكـن كذلـك. كمـا أنـه توقـع عـدم تعـرض هـؤلاء الرسـل لـلأذى، ومـن مبـدأ المعاملـة بالمثـل فإنـه لـم يسـجن أو يُلحـق الأذى برسـل الأنظمـة الأخـرى[305].

وقـد تطـور ذلـك لاحقـاً في الفقـه الإسـلامي إلى فقـه يسـمى «أمـان» أو «حصانة دبلوماسـية"».[306]. بالنسـبة لمحمـد، بقـي الرسـول المسـلم المُرسـل إلى مـكان آخـر ممثـلاً عنـه، وبالتـالي لا يـزال تحـت حمايتـه. وكان المُمثـل القـادم إليـه نيابـة عـن مجتمـع آخـر ضيفـاً، مـع الحقـوق التـي تكفلهـا لـه الأعـراف العربيـة، وكان أيضـاً تحـت حمايتـه. وقـد أخـذ هـذا الأمـر عـلى محمـل الجـد قائـلاً: «مَـنْ قَتَـلَ نَفْسًـا مُعَاهَـدًا لَـمْ يَـرَحْ رَائِحَـةَ الْجَنَّـةِ، وَإِنَّ رِيحَهَـا يُوجَـدُ مِـنْ مَسِـيرَةِ أَرْبَعِـينَ عَامًـا»[307].

وكان يؤمـن بشـدة بهـذا الحـق في الأمـان إلى الحـد الـذي جعلـه عندمـا سـمع (عـلى نحـو مغلـوط) أن مبعوثـه الخـاص إلى مكـة قـد قُتـل أثنـاء محاولـة أداء مناسـك الحـج التـي أفضـت إلى ابـرام صلـح الحديبيـة، يشـعر بصدمـة شـديدة حتـى أن أتباعـه تعهـدوا باسـتعدادهم للزحـف إلى مكـة إذا لـزم الأمـر، بغـض النظـر عـن النتيجـة التـي قـد يقررهـا اللـه[308].

فقـد أمـر محمـد رسـله الدبلوماسـيين بـأن يكونـوا حازمـين في سـعيهم إلى التوصـل إلى ترتيبـات سياسـية، ولكـن أيضـا بإيصـال الرسـالة الدينيـة بلطـف. ففـي نهايـة المطـاف، حـثّ القـرآن الكريـم المؤمنـين عـلى أن يكونـوا لطفـاء في مشـاركة رسـالته:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[309]

ويقول القرآن أيضا أن الله أمر موسى بأن ينقل الرسالة برفق إلى فرعون:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[310]

في البدايـة لـم يكـن لـدى محمـدٍ الكثـيرَ ليقدمـه للقبائـل والجماعـات الأخـرى باسـتثناء الفوائـد الروحيـة التـي جـاءت مـع الإسـلام، ولكـن بعـد أن بـدأ في توطيـد سـلطته وحتـى في تحقيـق بعـض الثـروة مـن عـام 622 فصاعـدًا، كان قـادراً حينهـا عـلى تحسـين عروضـه. قـدم حوافـز كانـت أحيانـاً كافيـة لإغـراء المجتمعـات الأخـرى بإنهـاء تبعيتهـا أو تحالفاتهـا مـع مكـة، ومـن ثـم الدخـول في حظـيرة الإسـلام، وإن تعـذر ذلـك فالتفـاوض عـلى اتفاقيـات التعايـش السـلمي.

كانـت إحـدى الوسـائل لتحقيـق ذلـك هـي تخصيـص حصص مـن الغنائـم التي يتـم تحقيقهـا خـلال غـارة أو معركـة، فقـد منحتـه الانتصـارات العسـكرية الكبيرة المتزايـدة، ولاسـيما النجاحـات الكـبرى كمعركـة حُنـين، القـدرة عـلى إجتـذاب أو الاحتفـاظ بـولاء مختلـف الجماعـات التـي أدركـت أن قبـول الإسـلام أو عـلى الأقـل قبـول سـلطة محمـد يمكـن أن يجلـب ليـس فقـط الفوائـد الروحيـة، ولكـن أيضـا المكاسـب الدنيويـة. وقـد سـبق أن ذُكـر أعـلاه الحصـة السـخيّة جـداً مـن الغنائـم التـي مُنحـت لأبـي سـفيان بـن حـرب وأبنائـه وغيرهـم مـن كبـار الشـخصيات المكيّـة ممـن هـم حديثـي العهـد بالإسـلام كوسـيلة «لكسـب قلوبهـم».[311]

فـرّ أحـدُ أعـداء محمـدٍ اللدوديـن، وهـو رجـلٌ مـشركٌ يدعـى صفـوان بـن أمية، مـن مكـة المكرمـة إلى اليمـن عندمـا دخلهـا جيـش محمـد، ولـم يعـد إلا عندمـا تلقّـى وعـداً بالأمـان. ظـلّ مُـشركاً، وطلـب مـن محمـد إمهالـه شـهرين للتفكـير في خياراتـه. وعـلى الرغـم مـن أن صفـوان سـبق لـه وأن نظـم ومـوّل الحـرب ضـده، إلا أنّ محمـداً ردّ بأنـه يمنحـه أربعـة أشـهر. تـودد محمـد بـذكاء إلى هـذا الخصـم العنيـد، وطلـب منـه إعارتـه دروعـاً وأسـلحة، وسـأل صفـوان عمّـا اذا كان عليه أن يفعـل ذلـك، فأجابـه محمـد بأنـه مجـرد طلـب وديّ وأن صفـوان سـوف يسـتعيد ممتلكاتـه، فوافـق. ثـم ان محمـد ذهـب لأبعـد مـن ذلـك، فدعـا صفـوان ببراعـة للقتـال مـع المسـلمين في معركتـي حُنـين والطائـف، ووافـق صفـوان. وبعـد أن أصـاب محمـد غنائـم كثـيرة، لاحـظ أن صفـوان كان معجبـاً بالقطعـان الكبـيرة مـن الماشـية والأغنـام التـي كانـت تمـر أمامـه. فسـأله محمـد عمّـا إذا كان يحـب مـا يـراه، فأجـاب المـشرك بأنـه كذلـك بالفعـل، فأجابـه محمـد بـأنّ كلّ ذلـك ملـكٌ لـه، وبـدون أيـة شروط اعتنـق صفـوان الإسـلام عـلى الفـور [312]

قـد ينظـر المـرءُ الى هـذه الإغـراءات باعتبارهـا دليـلاً عـلى أن الخضـوع لمحمـد، أو اعتنـاق الإسـلام لـم يكـن صادقـاً، بـل كان يسـتند فقـط إلى الفوائـد الملموسـة التـي يمكـن تحقيقهـا مـن خـلال القيـام بذلـك. ومـن المؤكـد أن محمـد قـد حـثّ عـلى الإخـلاص، لعلمـه بأنهـا صفـةٌ دينيـة يمدحهـا ويحـثّ عليهـا القـرآن. وكان يكـره بشـدة النفـاق. ومـع ذلـك كان رجـلاً عمليـاً أيضـاً. ويبـدو أنـه لـم يحكـم عـلى دوافـع المـرء، تـاركاً هـذا الحـق للـه، مُفضـلاً بـدلاً مـن ذلـك قبـول الأفعـال. وكمـا قـال أحيانـاً بشـأن هـذه المسـألة بالـذات «إِنِّـي لَـمْ أُومَـرْ أَنْ أَنْقُـبَ

عَـنْ قُلُــوبِ النَّــاسِ..»[313]. أدرك بعقلانيــة أنــه يســتطيع بســهولةٍ كبــيرةٍ تغيــير معتقداتهــم بمجــرد دخولهــم المجتمــع بــدلاً مــن بقائهــم خارجــه.

في كثــير مــن الأحيــان عندمــا كانــت تلتقيــه الوفــود في المدينــة المنــورة، كان يُكافــئ أولئــك الذيــن يقبلــون الإســلام بـــ (جوائــز) قيمــة كالهدايــا المصنوعــة مــن الفضــة [314]. كان لديــه مبلــغ معيــاري «للجائــزة»، وطلــب مــن بــلال أن يُعطيــه لــكل مــن اعتنــق الإســلام مــن الوفــود، إلا أنــه كان يُعطــي أحيانــاً مبلغــاً إضافيــاً إذا علــم أن شــخصاً مــا أتــى مــن قبيلــة فقــيرة أو أنــه كان ينقُصــه المــال مــن أجــل رحلــةِ العــودة. قــد يــرى النقــاد المعــاصرون أن هــذا الأمــر غــير مستســاغ أو عــلى الأقــل شيء غــير عــادي للقيــام بــه، لكنــه يتفــق مــع الوحــي القرآنــي بــأن مكافــأة الإيمــان بطــرق ماديّــة ســوف يُعــزز الإيمــان ويخلــق عرفانــاً طويــل الأمــد. ومــن الناحيــة السياســية، ســيؤدي ذلــك إلى اســتمرار الــولاء.

عندمــا قــدم إبراهيــم بذريتــة إلى مكــة فإنــه تــضرع إلى اللــه قائــلاً: ربنــا إنــي أســكنت مــن ذريتــي بــوادٍ ليــس فيــه زرع ولا مــاء بجــوار بيتــك المحــرم، وإنــي فعلــت ذلــك بأمــرك؛ لكــي يــؤدوا الصــلاة بحدودهــا، فاجعــل قلــوب بعــض خلقــك تَنــزع إليهــم وتحــنُّ عليهــم، وارزقهــم في هــذا المــكان مــن أنــواع الثمــار؛ لكــي يشــكروك عــلى عظيــم نعمــك. فاســتجاب اللــه دعــاءه:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[315]

وربمــا كان نظــام «المكافــأة» الــذي يتبعــه محمــد يمثــل إغــراءً، وهــو أســلوب دبلومــاسي يتســم بالاحــترام الشــديد لكســب النــاس الذيــن قــد يحتاجــون بخــلاف ذلــك إلى أســبابٍ مختلفــة للتوصــل إلى اتفــاق غــير الإقنــاع الفكــري البحــت، لكنهــا مــن المؤكــد لــم تكــن رشــوة: المــال المدفــوع للحــث عــلى نــوع مــن الســلوك غــير الأخلاقــي. وفي الواقــع لا يكشــف المصــدر الأول عــن أي أمثلــة عــلى تقديــم محمــد لأي رشــاوى، ناهيــك عــن أي شيء غــير أخلاقــي.

لــم يســاوم محمــدٌ عــلى الأمــور الدينيــة، لكنــه غالبــاً مــا فعــل ذلــك في المســائل الدبلوماســية، مثــل قبولــه معاهــدة الحديبيــة مــن أجــل التوصّــل إلى حــلٍ مفيــد للجميــع، حتــى لــو كان ذلــك يعنــي التخــلي عــن الأهــداف قصــيرة الأجــل. لقــد أدرك أن التعنــت والجمــود كانــا غــير مفيديــن في المفاوضــات، وفي بعــض الأحيــان

كان يتراجع أو يلين في مطالبه. حقيقة أن مفاوضاته غالباً ما أسفرت عن اتفاقات بعدم اعتداء، بدلاً من قبول الطرف الآخر للإسلام، تثبت أنه يمكن أن يقبل بالإنجاز الجزئي بدلاً من الإنجاز الكليّ على المدى القصير. والغريب أن العديد من الدول اليوم لا تُقدم تنازلات لدولة أخرى إلا عندما تكون ضعيفة. إلا أنّ محمداً الدبلوماسي غالباً ما فعل ذلك خلال سنوات قوته. لقد فهم تماماً أنه إذا كان الناس سيحترمون اتفاقاتهم، فإن احتمال حدوث هذا سيكون أكبر إذا شعروا أن النبيّ قد استمع لهم وأنه كان عادلاً في معاملتهم. يذهب الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك. كان محمد يعرف أن الله لا يريده أن يُجبر الناس على اعتناق الإسلام، فقد كان القرآن واضحاً في هذا ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[316].

على الرغم من أنه قد لا يكون واضحاً للعديد من القرّاء، إلا أن القرآن نفسه يُشير في الواقع في سورة التوبة إلى عمل كبير يتمثل في التسوية الدبلوماسية الانسانية والمتسمة بالرحمة التي كان محمد ملزماً بالقيام بها: الوفاء بوعود الحج بالضيافة والحماية في مكة التي قطعتها قريش على نفسها للوثنيين. ولا نعرف مع من أو كيف جرت أي مفاوضات. ولكن ما حدث واضحاً من القرآن الذي أكد في سورة أخرى أن الاخلال بالالتزامات التعاقدية أمر محظور تماماً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾[317]. في الواقع فإن أطول آية منفردة في القرآن (في سورة البقرة 2.282) تغطي موضوع القسم والعقود.

تبدو الآية الخامسة من سورة التوبة، والتي غالباً ما تُسمى بـ «آية السيف»، تصريحاً عنيفاً على نحو غير عادي لنبي كان قد دعا للتسامح والسلام والمصالحة. ولكنه من الصحيح بنفس القدر أنه عندما تُقرأ في سياق الآيات التي قبل وبعد الآية الخامسة، وعند الأخذ بالاعتبار ظروف نزولها على محمد، فليس من الصعب على القرّاء أن يفهموا أنها تشتمل، وكعمل من أعمال التسوية السياسية، على فترة سماح لغير المؤمنين الذين كانت لديهم اتفاقيات قائمة مع قريش. وهذه هي آية السيف:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

حقيقــة أن الآيــة تبـدأ بالفعــل بالحــرف العربــي «فــاء»، المترجــم هنــا «إذن»، يشــير إلى أن خطهــا المنطقــي ينســاب مــن الآيــة أو الآيــات التــي تســبقها، وفي الواقع فــإن الآيــات الأربــع الســابقة تــشرح الســياق.

وتعطــي الآيــة (1) الســياق التاريخــي باعتبــاره انتهــاكاً لمعاهــدة الحديبيــة. بعد عامــين مــن توقيــع المعاهــدة، هاجمــت قبيلــة بنــو بكــر المتحالفــة مــع قريــش، قبيلــة بنــي خزاعــة، التــي انضمــت إلى جانــب المســلمين. وقــد اعتــبر محمــد الهجــوم عــلى نحــو صحيــح انتهــاكاً للصلــح، مــدركاً أن الهجــوم عــلى حليــفٍ يُشــكل مــن الناحيــة الفنيــة هجومــاً عــلى مجتمعــه [318]. لــم يســتطع الســماح لهذا الأمــر بالمــرور، ولــم يكــن يريــد ذلــك. ولــم يكــن الأمــر يتعلــق بالســماح لســوء ســلوكِ حليــفٍ صغــيرٍ بإجبــاره عــلى ذلــك، لقــد رأى ضرورة أن يُظهــر لحلفائــه الآخريــن أنــه ســيحترم دائمــاً تحالفاتــه معهــم. لذلــك فتــح مكــة بســلام وطهــر الكعبــة (حيــث دمــر مــا لايقــل عــن 360 صنمــاً بداخلهــا).

وفيمــا يتعلــق بفــترة التطهــير هــذه، تضمــن الوحــي القرآنــي عــلى تحذيرٍ شــديد الصرامــة، مفــاده أن أي شــخص يريــد القيــام بالحــج الوثنــي إلى مكة، أو الاســتمرار في الطقــوس غــير الأخلاقيــة داخلهــا، فعليــه أن يفهــم أنــه مــن الآن فصاعــداً لــن يُســمح لــه القيــام بذلــك. ولــن يتــم التســامح مــع الــشرك وعبــادة الأوثــان مــرة أخــرى داخــل مدينــة الإســلام المقدســة، ومنــذ ذلــك الوقــت فصاعــداً، ســتكون مدينــة مكرســة للــه وحــده. كمــا تقــول الآيتــان (17 و 18) مــن ســورة التوبــة:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾

تــم الكشــف عــن الآيتــين 2 و 3 مــن خــلال محمــد لإعطــاء المشركــين أو عبــدة الأصنــام الذيــن يقيمــون في مكــة وضواحيهــا وكذلــك أي حجــاج مشركــين أو وثنيين ممــن يعــبرون عــلى طــول طــرق التجــارة التــي يســيطر عليهــا المســلمون وطــرق الحــج، تحذيــرًا واضحًــا لهــم بــأن عليهــم الكــفّ أو المغــادرة. وشــملت النصــوص القرآنيــة بســخاء فــترة للعفــو - احــترام الاتفاقيــات التــي عقدهــا الوثنيــون مــن قبيلــة قريــش - تســتمر حتــى نهايــة موســم الحــج الحــالي. وهكــذا، كعمــل مــن

أعمال التسوية السياسية المحدودة الوقت، منح محمد المشركين وعبدة الأصنام العرب في مكة فترة سماح من أربعة أشهر.

توضح الآية 4 أنه خلال فترة العفو هذه، كان يجب أن يُترك المشركون أو عبدة الأصنام في مكة دون أن يمسّهم أحد بسوء لكي لا يصبح المسلمون أنفسهم ناقضين للوعد:

﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

وبعد أن أوضح أن التهديد بالعنف سيينطبق فقط على أولئك الذين تجاهلوا التحذيرات واستمروا في ممارسة الشرك أو عبادة الأصنام في المدينة المقدسة وما حولها، وكانوا لا يزالون على درجة من الحمق بما فيه الكفاية لكي لا يغادروا بعد انقضاء الأشهر الأربعة. والآية رقم (5) (آية السيف) حذرتهم بوضوح من أنه سيكون هناك تطهير مسلّح أو تنقية يخاطرون فيه بوضوح بتعرضهم للقتل.

وفي الواقع، فإن للآية فقرة ثانوية، فبعد التوجيه باستئصال وقتل أي شخص تجاهل التحذيرات الواضحة والمغلظة، واستمر على الشرك أو عبادة الأصنام في المدينة المقدسة، أوعزت للمسلمين بأن يتذكروا بأن عليهم أن يكونوا رحماء «فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ»مع أولئك الذين تابوا وقبلوا التزامات التائبين وفق الاسلام. وعلاوة على ذلك، يتبع آية السيف مباشرة آية خيرية على نحو غير عادي، حيث أنّ أياً من الوثنيين الذين يطلبون الحماية أو الحصانة في حال حدوث أي عنف مستقبلي لا يجب استبعادهم من ذلك العنف فحسب، بل يجب اصطحابهم إلى مكان آمن.

﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾[319].

أما بقية سورة التوبة فتحتوي على المزيد من الشرح للمسلمين حول سبب حاجتهم الآن للقتال والقتال الشرس، لكل من حنث بيمينه أو انتهك حُرمة الأماكن المقدسة، على الرغم من الآمال السابقة بالسلام وفقاً لشروط معاهدة الحديبية والبيعة التي قام بها محمد عندما دخل مكة. من الواضح أن هذه الآية لم تكن تتطلب العنف ضد كل من هو غير مؤمن، بل اقتصرت على أولئك الذين تجاوزوا إتفاقياتهم الدبلوماسية القائمة، كما توضح الآيتان (11 و12):

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِى ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأَيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝١١ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾

وحقيقة أنّ محمداً كان يُفضل الإقناع وكان بوسعه أيضاً توظيف التسوية في الأمور الدبلوماسية، كما تظهر في هذه الحالة، لا يعني أبداً أنه كان حريصاً على تجنب اللجوء إلى الإكراه الدبلوماسي. فإرسال رسول إلى فدك في الوقت الذي كان يُحاصر فيه خيبر كان بالتأكيد عملاً من أعمال الدبلوماسية القسرية. وسرعان ما توصلت فدك إلى تسوية معه.

وكانت المسيرة التي انطلقت إلى مكة عام 630 قهرية تماماً من الناحية الدبلوماسية، وهي حقيقة لا يمكن اخفاؤها بحقيقة أنها كانت غير دموية. عندما هاجم بنو بكر، المتحالفون مع قريش، بني خزاعة المتحالفين مع المسلمين، انطلق أبو سفيان زعيم قريش على الفور إلى محمد في المدينة وناشده بعدم حمل هذا الأمر ضد قريش مطالباً بإعادة تأكيده على معاهدة الحديبية. وبمهارة كبيرة، حافظ محمدٌ على مكانته الأخلاقية العالية بينما رفض نظيره العصبي.

ثم بدأ محمدٌ بتجميع جيشٍ ضخم قوامه عشرة آلاف من محاربي المدينة والحلفاء لقيادتهم نحو مكة، في الوقت الذي كانت فيه مكّة - التي فقدت العديد من حلفائها إلى جانب المسلمين وكانت تعاني من نقص الغذاء الآن حيث سيطر المسلمون وحلفاؤهم على معظم المناطق والطرق حول مكة [320]- غير قادرةٍ عسكرياً على المقاومة. ولا يمكن أن يُنظر إلى هذا على أنه تهديد باستخدام القوة الذي تم إعداده ببراعة لإجبار القيادة المكيّة على تسليم المنطقة المقدسة إلى النظام الإسلامي. بعبارة أخرى، أحدث محمد لدى خصومه توقعاً بتكاليف ضخمة كافية لكسر دوافعهم في مواصلة معارضتهم لرغبته في الإصلاح الديني.

كان محمد يحلم منذ فترة طويلة بفتح مكة، وعمل بلا كلل لتطوير القوة الكافية، من خلال الدبلوماسية الذكية مع القبائل والجماعات الأخرى، لجعل تهديده يبدو وشيكاً وقابلاً للتصديق تماماً وأنه لا يُقاوم على الإطلاق. ومع ادراكه لهذا الحشد، عاد أبو سفيان إليه للمرة الثانية، للتفاوض على التسوية الآن.

وأوضح محمد أنه لن يقبلَ بأقلّ من إنهاء الشّرك في مكة، وإدراكاً منه أنّ محمداّ لا يمكن إيقافه، تفاوض أبو سفيان على استسلام مكة. وهكذا تفوق محمد على القيادة المكيّة بحنكة سياسية بارعة، مما أجبرها على الخضوع لإرادته بدون استخدام القوة.

ولا بدّ من القول أنه لم يحدث أي إكراه ديني. حتى عندما أقسم المجتمعون من أهل مكة ببيعتهم لمحمد أمام الكعبة، لم يُجبروا ليصبحوا مسلمين. واختار الكثير منهم القيام بذلك بمحض إرادتهم، وفي الأيام والأسابيع التالية قام المزيد منهم بالدخول بالإسلام.

في حين يُصر منتقدو الإسلام على أن محمد أكره القبائل والجماعات العربية دينياً، وليس فقط دبلوماسياً، إلا أنه لا يمكنهم أن يغفلوا عن ملاحظة أن العديد من السرايا التي أرسلها محمد لم يكن هدفها عسكرياً ولم تتسبب في أي وقوع للقتلى. بل كانت بدلاً من ذلك إما لمهام «دعوية» (لدعوة الناس إلى الإسلام) أو استعراضاً للقوة ليثبت لقادة القبائل أنه يمتلك قوة حقيقية وأنهم قد يحسنون صنعاً بالتحالف معه. أصدر قادة السرايا دعوة للإسلام وتهديداً قسرياً بأنه إذا لم يخضعوا لسلطة محمد، فإن القتال سيتبع ذلك. للوهلة الأولى، يبدو أنّ المصادرَ الأوليّة تدعم هذا. فعلى سبيل المثال يخبرنا ابن هشام أنه، بعد بضعة أشهر من فتح مكة:

بعث الرسول خالداً بن الوليد... إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره بدعوتهم إلى الإسلام ثلاثاً قبل أن يقاتلهم. فإن استجابوا، فعليه أن يقبل منهم ؛ وإن رفضوا قاتلهم. ... فانطلق خالد إليهم قائلاً: أسلموا تسلموا، وأرسل فرساناً في كل الاتجاهات يدعون الناس إلى الإسلام، فأسلم الرجال.[321]

ومع ذلك، يجب التمييزُ بشكلٍ واضح بين الخضوع بالاكراه الدبلوماسي لقبول سلطة محمد والدخول في تحالفٍ سياسي معه – والذي لم يتطلب اعتناق دين محمد- وأيّ مفاهيم عن التحول القسّري للاسلام، والذي كان محمد يقف ضده بثبات. ويمكن لأي مجموعة أو قبيلة أن تقوم ببساطة بالولاء السياسي لمحمد وأن توافق على عدم الانضمام إلى تحالفات ضده، وعندها لن يحدث أي قتال ويمكن للمحاصرين أن يحافظوا على دينهم [322]. وكل ما كان عليهم القيام به هو الموافقة على دفع ضرائبهم إلى نظام حكم محمد كجزية وليس كزكاة.

وفقًـا للعديـد مـن الأحاديـث، شرح محمـد لقـادة السرايـا أنـه أرسـلهم لتوسـيع نظـام الحكـم وثرواتـه القائمـة عـلى الضرائـب (مـن خـلال التحالفـات) وأنـه لا يريـد الإكـراه الدينـي:

«إذا لقيـت عـدوك مـن المشركـين فادعهـم إلى إحـدى ثـلاث خصـال أو خـلال، فأيتهـا أجابـوك إليهـا فاقبـل منهـم وكـفّ عنهـم, ادعهـم إلى الإسـلام , فـإن أجابـوك فاقبـل منهـم وكـفّ عنهـم, ثـم ادعهـم إلى التحـول مـن دارهـم إلى دار المهاجريـن, وأعلمهـم أنهـم إن فعلـوا ذلـك أن لهـم مـا للمهاجريـن وأن عليهـم مـا عـلى المهاجريـن, فـإن أبـوا واختـاروا دارهـم فأعلمهـم أنهـم يكونـون كأعـراب المسـلمين يجـري عليهـم حكـم اللـه الـذي يجـري عـلى المؤمنـين, ولا يكـون لهـم في الفـيء والغنيمـة نصيـب إلا أن يجاهـدوا مـع المسـلمين, فـإن هـم أبـوا فادعهـم إلى إعطـاء الجزيّـة، فـإن أجابـوا فاقبـل منهـم وكـفّ عنهـم, فـإن أبـوا فاسـتعن باللـه تعـالى وقاتلهـم» [323].

وعـلاوة عـلى ذلـك، وحتـى في حالـة «بنـو الحـارث بـن كعـب» المذكـورة آنفـاً، والتـي يبـدو أنهـا تنطـوي عـلى تهديـد باسـتخدام القـوة المسـلحة لفـرض الإسـلام، تكشـف المصـادر أن الإكـراه الدبلومـاسي المطبـق كان ثقيـلاً عـلى نحـوٍ غـير عـادي لسـبب فريـد. وكان ذلـك لمـا لهـذه العشـيرة مـن سـمعة قويـة في المقاومـة الشرسـة («أنتـم الذيـن إذا زجـروا اسـتقدموا») وفي الغـزو («تغلبـون مـن قاتلكـم»)، الأمـر الـذي ذكـره محمـد لهـم عندمـا أرسـلوا وفـداً إليـه.[324]

وهكـذا، فإننـا نـرى محمـداً الدبلومـاسيّ قائـداً ذا كفـاءة وانجـاز جديريـن بالملاحظـة، وبزيـادة مطـردة في قـوة نظامـهِ السـياسيّ مـن خـلال المعاهـدات وتعهـدات الـولاء. وفي أوقـات مختلفـة أسـتخدم الإقنـاعَ والتسـوية والإكـراه، وكان الاختيـار بعنايـة هـو مـا يحتـاج إليـه في ظـروفٍ خاصـة.

****

الخلاصة

وصف المؤرخُ والمنظّرُ مارتن فان كريفيلد نابليون بونابرت بأنه «أكثر البشر كفاءة على الإطلاق»[325]. وقد عرّف نابليون بأنه يمتلك مزيجاً نادراً من الإرادة والفكر والطاقة العقلية والجسدية، ونسب إليه النجاح المنقطع النظير تقريباً كقائد إجتماعيّ وسياسيّ وعسكريّ. بيد أن نابليون لم يكن رجلاً متديناً، ناهيك عن كونه قائداً دينياً، ولم يجد تألقه الذي لا يمكن إنكاره تعبيراً عنه في أفكار جديدة أو مؤثرة حول الأخلاق أو الروحانيات. ومن هذا المنطلق، يبدو بطريقة ما أقل اكتمالاً أو قريباً من محمد، رجلٌ استثنائي بنفس القدر مع مجموعة من المواهب التي وجدت أيضاً في عدد قليل جداً من القادة، ولكن من أعطى العالم مجموعة جديدة من الأفكار حول الكيفية التي يجب أن يرتبط بها البشر بالله وكيفية تفاعلهم مع بعضهم البعض بقيت حيّة لمدة 1400 عام.

لم تكن المهمة في هذا الكتاب القصير هي تحديدُ مدى «كفاءة» محمد، أو استخدام عبارة فان كريفيلد، أو تحليل مساهمته في التاريخ. ولم تكن حتى بأن نقول أي نوعٍ من الرجال هو. ولكن بتواضعٍ أكبر بكثير، كانت المهمة تتلخص فقط في التحقيق فيما كشفت عنه المصادر العربية الأولى عن قدرته واستعداده للقيادة، ولتحديد ما إذا كان قد تصرف بطُرق حققت نتائج إيجابية، لا سيما تلك التي سعى إليها بالفعل، خلال ثلاثة وعشرين عاماً كقائد.

تظهر تلك المصادر بوضوح أنّ محمداً تمكن من تحقيق نتائج لافتة للنظر حقًا. بعد عقدٍ من النضال داخل الشعب المعادي من مواطنيه في مكة، وتمكن من تحويل الجزيرة العربية في غضون عشر سنوات من وصوله إلى المدينة المنورة كمحكم، وكغريب في عام 622 م. لقد استغل هذه الفرصة إلى أقصى حد، واختار ألا يكون مجرد وسيطٍ في الخلافات بين قبائل المدينة المنورة فحسب، ولكن لتقديم رؤية أكبر بكثير لنفسه وأيضاً، وعلى وجه الخصوص للناس من حوله. لم تنبثق رؤيته من الرغبة في اكتساب القوة واستخدامها، بل من أجل خلق حركة إصلاح ديني شددت على التوحيد

الصــارم والسـلوك الأخلاقــي بمــا يتوافــق مــع مــا أنزلــه اللــه لــه ومــن خلالــه. ولنـشر هــذه الحركــة، وتعزيــز نموهــا إلى مــا بعــد مرحلــة نشــأتها حتــى تتمكــن مــن البقــاء بعــد موتــه، فإنــه يحتــاج عــلى الأقــل إلى اكتســاب بعــض القــوة، وهــي الحقيقــة التــي أدركهــا في وقــت مبكــر جــداً.

إن قدرتــه عــلى رؤيــة الفــرص واســتغلالها، وفهمــه العميــق والبديهــي للطبيعــة البشريــة، ســمحت لــه بتوطيــد وتوســيع الســلطة بوتــيرة غــير متوقعــة. وهكــذا، بحلــول وقــت وفاتــه في عــام 632، كان قــد نــال عــلى نحــوٍ فعّــال خضــوع جــزء كبــير مــن الجزيــرة العربيــة وأنشــأ إطــار السَــنّة، التــي تعنــي مثــالاً عــلى كيفيــة قيامــه بالأمــور، والتــي اســتخدمها خلفــاؤه ظاهريًــا كنموذجــاً لهــم عندمــا انتشروا خــارج شــبه الجزيــرة العربيــة إلى المــسرح العالمــي.

لقــد فهــم محمــد الســلطة، ســواءً مــن حيــث أشــكالها الصارمــة (فقــد عــاش في بيئــة تتســم بالوحشــية الواضحــة) أو مــن حيــث أشــكالها الدقيقــة المطبقــة بحساســية. إن نفــوره مــن الشــكل الأول ورغبتــه في جعــل الأخــير القاعــدة التــي عمــل جاهــداً لتحقيقهــا لــم يجعلــه فقــط قائــداً يُطــاع، مثــل بقيــة زعمــاء القبائــل ولكــن أيضــا زعيمــاً يُحــترم ويُحــب ويُقتــدى بــه.

فبدافــع مــن التزامــه بالاســتفادة إلى أقــصى حــد مــن التقاليــد العربيــة المتمثلــة في «الشــورى»، لقــد أشرك بثبــات أكــبر عــدد ممكــن مــن الأشــخاص الموثــوق بهــم بقــدر مــا اعتــبره عمليــاً في قراراتــه الرئيســية. أُعجــب بالمشــاركة وتوافــق الآراء، ورأى الفوائــد التــي تجلبهــا مــن حيــث تعزيــز الالتــزام. ومــع ذلــك فقــد اتخــذ بعــض القــرارات التــي تتعــارض مــع الأغلبيــة أو مــع الإجمــاع، وأظهــر قــدراً كبيراً مــن الشــجاعة الأخلاقيــة، عندمــا تطلّــب إحساســه باليقــين مثــلَ هــذا الحســم.

كمــا أدرك أيضــا أنّ الأهــداف التــي وضعهــا جديــدةٌ وغــير مُجربــة وجريئــة وعظيمــة عــلى نحــوٍ مذهــلٍ، وأنــه لــن يتمكــن مــن تحقيقهــا إلا إذا جلــب الجميع في نفــس الرحلــة. لذلــك عمــل بــلا كلــل ليُعلــم أتباعــه ويقنعهــم بــأن رؤيتــه ســتكون نافعــة لهــم كأفــراد وكمجتمــع وكأعضــاء في مــا يمكــن أن يصــير عائلــة بشريــة أكــبر. وإدراكا منــه بالطبيعــة البشريــة والمخــاوف المتعلقــة بالراحــة والعافيــة، فقــد تجنــب الأفــكار التقشــفية لصالــحِ رســالةٍ أكثــرَ جاذبيــة: فالخضــوع لشرائــع اللــه، والإخــلاص في الدعــاء والإحســان، والصــلاح العــام لبعضنــا البعــض، ســيُكافأ عليــه في الدنيــا والآخــرة.

وباســتخدام الخطــب الأســبوعية المتقطعــة، فضــلا عــن الخطــب الأخــرى والمحادثـات الفرديـة، نقـل رؤيتـه بوضـوحٍ مذهـل، مسـتخدماً بشـكل متكـرر عدد صغـير مـن الصيـغ الدقيقـة والقويـة لتسـليط الضـوء عـلى العنـاصر الرئيسـية لهـذه الرؤيـة والخطـوات التـي يتعـين عـلى أتباعـه إتخاذهـا لبنـاء العالـم الـذي تصـوره. كان سـاحراً عنـد الكشـف عـن كلام اللـه ومقنعـاً بنفـس القـدر في كلماته، فقـد كان يتحـدث بإخـلاص ويقـين ودقـة، مكـرراً نقاطـه الرئيسـية، بحيـث كان أتباعـه مقتنعـين بحقيقتهـا وقادريـن عـلى تذكُّرهـا بشـكلٍ واضـح.

فالقـادة الدينيـون يختلفـون عـن غيرهـم مـن القـادة. فالاعتبـارات العقلانيـة للغايـات والوسـائل والأسـاليب أقـلّ أهميـةً بكثـير مـن الاعتقـاد بـأن اللـه يمتلـك قـوة لا حـدود لهـا وبقدرتـه عـلى إحـداث تغيـير أو تحقيـق نتائـج يعتبرهـا القـادة الآخـرون مسـتحيلة. كان محمـد يعتقـد أنـه وكنبـيّ مختـار مـن اللـه، بإمكانـه السـعي وراء أهـداف تبـدو اليـومَ أبعـدَ مـن متنـاولِ أيّ شـخص. وهـذا اليقـينُ بـأنّ اللـه كان إلى جانبـه – أو بشـكلٍ أكثـرَ دقّـة، أنـه كان إلى جانـب اللـه – سـمحَ لـه أيضًـا بـأن يقـوم بـردٍّ شـجاعٍ وحيـوي وفعّـال عـلى قـوات العـدو الأكـبر بكثـير في معظـم المعـارك الكبـيرة التـي خاضهـا، بمـا في ذلـك تلـك التـي خاضهـا في بـدر وأحـد والخنـدق.

ومـع ذلـك، وفيمـا يتعلـق بـكل خطـوة مـن الخطـوات المتتاليـة التـي يتعـين اتخاذهـا لتحقيـق تلـك الأهـداف، فقـد ركّـز اهتمامـه بشـدة عـلى الجوانـب العمليـة وعـلى الفوائـد. ومـع ذلـك فقـد كان الرجـل العمـلي الـذي صحـح بدويـاً تـرك ناقتـه قـادرة عـلى التجـول وبـلا قيـود. وسـأل محمـد، مـا إذا كان ينبغـي عليـه أن يربطهـا أو أن يثـق باللـه ليوقفهـا عـن السـير. فأجابـه محمـد: «اعقلهـا وتـوكل»[326]. وبعبـارة أخـرى، حتـى الإيمـان لـم يعـف مـن مسـؤولية التخطيـط العقلانـي والاهتمـام بمـا هـو ضروري مـن الناحيـة العمليـة. ولذلـك عمـل محمـد جاهـداً عـلى وضـع وتطويـر الخطـط والحصـول عـلى المـوارد وتوزيعهـا. وفي كل مرحلـة مـن مراحـل اسـتراتيجيته المتكشـفة، خطـط بعناية الإجـراءات التـي ينبغي عليـه إتخاذهـا للوصـول إلى المرحلـة التاليـة. كان لديـه الموهبـة لتخطيـط تسلسـل الأنشـطة التـي مـن شـأنها، واحـدة تلـو الأخـرى، أن تحقـق لـه مـا يريـد.

ومـع إدراكـه أن التبعيـة تكـون أقـوى عندمـا يُنظـر إلى القائـد عـلى أنه يتقاسـم نفـس الامتيـازات والصعوبـات والحرمـان والمخاطـر التـي يتشـاطرها أتباعـه، فقد

أرهـق محمـد نفسـه جسـدياً بـين قومـه، وأكل مـا أكلـوه، ورحـل عـلى طريقتهـم، ونـام في العـراء أثنـاء حملاتـه، وقاتـل في وسـطهم. وشـارك في نفـس الخطـر المتمثـل بأنـه وفي أي لحظـة يمكـن أن تنتهـي حياتـه، ملتزمـاً بـين يـدي اللـه بدعـواتٍ حـارة، وبرؤيـة أتباعـه ذلـك، ضحـوا أحيانـاً بأنفسـهم لضمـان بقائـه.

وقـد تعـززت علاقتـه المميـزة بشـعبه إلى حـد كبـير بلمسـته المشـتركة؛ قدرتـه عـلى تقديـم نفسـه في الوقـت المناسـب بشـكلٍ جديـرٍ بالثقـة كنبـي للـه ولكـن وفي الوقـت نفسـه كرجـل عـادي يمكنـه ان يتعامـل وينجـذب مـع أولئـك الذيـن هـم مـن كل مسـالك الحيـاة، بمـن فيهـم الفقـراء والضعفـاء. أراد النـاس أن يتبعـوه، لأنهـم وعـلى الرغـم مـن معرفتهـم بأنـه كان نبـي وقائـد، وبسـلوك أخلاقـي أعـلى، إلا أنـه لـم يتبـنَّ قـط جـواً مـن الاسـتعلاء، ولكنـه بـدا مـن نـواحٍ عديـدة أنـه يشـبههم بـالأذواق والاهتمامـات والمتـع العاديـة.

اختـار مستشـاريه ومناصريـه الرئيسـيين بعنايـة وبصـيرة، وطمـأن بـأن أي شـخص آخـر سـيكون قـادراً عـلى الوصـول إليـه في حـال كانـوا قريبـين منـه، وأنهـم سـيكونون مسـتهدفين للتعـرف عـلى أفـكاره وتوقعاتـه إن كانـوا بعيديـن عنـه. وكان يفـوض بسـهولة وبشـكل روتينـي، مسـتخدماً نمطـاً بسـيطاً مكـون مـن أربـع مراحـل متتاليـة هـي: الاختيـار والتدريـب والثقـة ومكافـأة الأشـخاص المناسـبين. لقـد كان متمكنـاً بارعـاً في اكتشـاف المواهـب، وبعـد إعـداد الأفـراد مـن خـلال توجيهاتـه غـير الرسـمية أو مـن خـلال شـخصيات بـارزة أخـرى، كان يقـوم بتكليـف الأشـخاص الذيـن رأى فيهـم الإمكانـات بمهـام أكـبر وأكثـر تعقيـداً.

وعندمـا قـام بتمكـين النـاس مـن القيـام بمهـام أو مسـؤولياتٍ معينـة، حـاول جاهـدًا إزالـة القيـود غـير الضروريـة، تـاركاً لهـم بعـض الحريـة للمبـادرة والتحكيـم. ويقينـاً منـه بـأن الخطـأ في الصفـح خـيرٌ مـن العقـاب، كان مترفقـاً مـع النـاس ومتسـامحاً مـع الأخطـاء، ولـم يوبـخ أحـداً قـط عـلى عـدم نجاحـه إذا بـذل قصـارى جهـده. معتقـداً أن الكثـير مـن البـشر ضعفـاء وحمقـى وعصـاة بطبيعتهـم، حتـى وإن لـم يكـن في وسـطهم نبيـاً كافيـاً لتغييرهـم بسرعـة عـلى الأقـل، كان أيضـاً متسـامحاً بشـكل لافـت للنظـر عندمـا كان يُعـصى. حـدث هـذا مـن حـينٍ لآخـر مسـبباً لـه الأذى، لكنـه كان دائمـاً يتحـرك بسرعـة لإعـادة بنـاء

الانسجام والنوايا الحسنة. كان يؤمن بمكافأة التميز أو الجهد الخاص، في عصر ما قبل ظهور الميداليات وقوائم الشرف بوقت طويل، استخدم مجموعة متنوعة من الطرق - بما في ذلك تقديم الهدايا والاعتراف العلني - للتعبير عن تقديره ولرؤية أن الأشخاص الذين قاموا بعمل جيد يشعرون بالمكافأة.

وهكذا أصبح من الواضح أن المصادر العربية المبكرة لحياة محمد كافية في اتساعها وعمقها واتساقها لإعادة بناء صورة لقيادته تُفسر النجاح الكبير لهذه القيادة. كان قائداً من الدرجة الأولى، بمستوياتٍ عالية وغير عادية من الكفاءة والحدس والموهبة والقدرة. كما كان يفكر في الطريقة التي يدير بها الأمور، ويتعلم بسرعة كيف يفعل شيئًا أفضل في كل مرة ويدون ملاحظاتٍ ذهنية حول ما نجح أو لم ينجح، حتى يتمكن من تبني ما نجح وتجنب ما فشل. كان محمد قائداً فعالاً للغاية.

****

إضافة: دروس للقادة

عادة ما يتمسك المؤرخون بالماضي، ولا يرون أن عملهم له وظيفة عملية أو أنه يُحتاج إليهم. ويحدوهم الأمل في أن تكون إعادة بنائهم للماضي مثيرة للاهتمام ومضيئة في حد ذاتها، وأن تكشف عن ملاحظات ورؤى ثاقبة حول الحالة الإنسانية التي قد تسبب تفكيراً أعمق حول ما إذا كان ينبغي البحث عن أي «معنى» أو اكتسابه. وعادةً لا يكتبون بهدف جعل عملهم «مفيداً»، بمعنى أن يتمكن القرّاء من استخدام كتاباتهم لأي أغراض عملية.

وبصفتي باحثاً من ما يسمى بالبلدان المتقدمة أعيش في القرن الحادي والعشرين في مجتمع تحكمه سيادة القانون ومفاهيم الحرية والفردية، فإنني أدرك تماماً المغالطة المتمثلة في محاولة ربط أحداث الجزيرة العربية في القرن السابع باليوم. حيث لا يوجد تقريباً أي تواصل أو تشابه. ربما كانت الجزيرة العربية التي ولد فيها محمد وحشية وعنيفة كمعظم البلدان المسيحية في ذلك الوقت، ولكن مرّت ألف وأربعمائة عام والعالم اليوم مختلف تمامًا.

السمات المهيمنة في الجزيرة العربية في القرن السابع: مهد الإسلام، القبلية، والثأر، والتنافس المستمر على الموارد، والثروة والمكانة بين المجتمعات الصغيرة، وقلة القوانين المطبقة على الجميع، وعدم وجود حكومة شاملة يمكن أن تخلق أي نوع لنظام أوسع والحفاظ عليه. لقد حدث تقدم كبير ولم تعد هذه السمات موجودة في معظم الأماكن في عالم اليوم.

إن رغبة محمد في تغيير الجزيرة العربية والعالم الأوسع لا تُلغي حقيقة أن الطريقة الوحيدة التي يمكن للمؤرخ أن يفهم من خلالها ممارسات وأساليب محمد القيادية هي رؤيتها ضمن سياقها التاريخي الفريد ووجودها نتيجة لذلك. وإزالتها من ذلك السياق يخلق تحديات فكرية كبيرة. وأي محاولة لتحديد ما إذا كان هناك أي شيء دائم وعالمي (أي غير سياقي) ومفيد من حيث «الدروس» لابد وأن تستند إلى درجة من اليقين بأن طبيعة التجربة الإنسانية بطريقة ما لم تتغير. ويجب أن يكون المرء جريئاً بما يكفي ليؤكد أن «ما نجح في ذلك الوقت سوف ينجح اليوم».

لــن أؤكــد هــذا، عــلى الأقــل دون تأطــير الــرأي بمحاذيــر كبــيرة، ولكــن مــن الواضــح أن الطبيعــة البشريــة – الخصائــص والدوافــع والســلوكيات التــي تبــدو مشــتركة بــين جميــع النــاس، بمــا في ذلــك الطــرق الفطريــة في التفكــير والشــعور والتــصرف – ظلــت ثابتــة إلى حــدٍ مــا. ولا تــزال التفاعــلات الاجتماعيــة المعقــدة والعوامــل التــي جعلــت البــشر يشــعرون بالحســد والغضــب والخــوف والرضــا والتفانــي والوفــاء في القــرن الســابع في الجزيــرة العربيــة تحمــل هــذه الآثــار حتــى يومنــا هــذا.

مــن الواضــح أيضــا أن محمــد كان لديــه تقديــر طبيعــي وعميــق وصحيــح لعلــم النفــس البشريــة وعــرف كيــف يُلهــم النــاس وكيــف يُحفزهــم. لقــد أظهــر ســلوكاً قياديــاً، واســتخدم مفاهيــم وتقنيــات معينــة، والتــي يمكــن لقــادة اليــوم التفكــير بهــا عــلى الأقــل. وبالنتيجــة فقــد أثبتــت قيادتــه نجاحــاً عميقــاً، حيــث غــيرت الجزيــرة العربيــة خــلال ســنوات حياتــه وأوجــدت منهــا مجموعــة الأمثلــة الســنيّة الســلوكية، والتــي لا يــزال 1.8 مليــار مســلم، أي ربــع العالــم، يحتــذون بهــا بحمــاس منقطــع النظــير.

أُدرس القيــادة والقــادة، وأجريــت أبحاثــاً ونشرتهــا حــول كليهمــا. كمــا تشرفــت بقضــاء أكثــر مــن عقديــن مــن الزمــن في تدريســها للقــادة العســكريين والمدنيين في العديــد مــن البلــدان. ولــو ســألني أحــد الطــلاب مــا اذا كان محمــد زعيمــاً فعّــالاً، لكنــت أجبتــه دون تــردد بالإيجــاب: نعــم، لقــد كان رجــلاً موهوبــاً جــداً وقائــداً اســتثنائياً. وإذا مــا ضغطــوا عــليّ أكثــر مــن ذلــك، وأرادوا منــي تجريــد الســياق التاريخــي لجزيــرة محمــد العربيــة لمعرفــة مــا إذا كنــا قادريــن عــلى تحديــد أي «دروس» دائمــة مــن حياتــه الرائعــة حــول الكيفيــة التــي قــد يرغــب فيهــا القائــد في التفكــير في القيــام بالأمــور اليــوم، فإننــي ســأكتب لهــم قائمــة تشــبه كثــيراً القائمــة التــي أقدمهــا هنــا:

الشخصية والصفات

- تجسيد وضرب المثل بأفضل الصفات والقيم الإنسانية.
- لا يُنظر إليك على أنك طموح أو واع بالموضع.
- لا تتبن جو التفوق أبداً.
- تجنب أي مصلحة شخصية أو حتى مظهرها.

- كن متواضعا ومرناً ومنفتحاً للتعلم من الآخرين.
- التأمل الذاتي المستمر.
- لا تستمر في فعل ما لا ينجح.
- تعلم بسرعة من الأخطاء.

الرؤية الاستراتيجية

- تطوير رؤية لخلق حالة أفضل.
- إذا كانت رؤيتك جريئة، فاستعد للمقاومة.
- المثابرة وعدم التنازل عن تلك الرؤية.
- تحويل هذه الرؤية إلى مجموعة أهداف ذات مغزى.
- إنشاء تسلسل للخطوات المطلوبة لتحقيقها.
- توفير الموارد الكافية لكل منها.

الاتصال الاستراتيجي

- اشرح رؤيتك لكل من سيلعب دوراً أو يتأثر.
- اشرحها بشكل متكرر باستخدام بعض الزخارف الرئيسية المختارة بعناية.
- كن على دراية وثقة لتثبت مصداقيتك.
- ولكن كن متواضعاً وثابتاً وهادئاً أيضاً.
- اشرح بوضوح سبب أهمية الرؤية وكيف ستُحسِّن الأمور.
- اشرح بوضوح كيف سيستفيد شعبك.
- اشرح بوضوح ما تريد منهم انجازه.
- تذكر أن تُخاطب كل من العقل والعواطف.

بناء توافق الآراء

- حدد أي فصائل أو مصالح واحتياجات قد تكون منافسة بين الناس.
- حاول إيجاد حلول تعاونية تلبي جميع الاهتمامات والاحتياجات للأطراف.
- استمر في المراقبة للتأكد من أن الجميع يمكنهم العيش بالنتيجة المحتملة.
- ضمان إستفادة الجميع.
- تأكد من أن الجميع يعرفون أنهم سيستفيدون.

التعلم من الآخرين

- إستشر الآخرين كثيرا بعقل متفتح ورغبة حقيقية في نقد أفكارك.
- إستشر الذين يعرفون ما يتحدثون عنه وأثبتوا أنهم جديرون بالثقة.
- افعل ذلك في إطار المجموعة، وليس فقط بشكل خاص مع الأفراد.
- إيجاد بيئة يعرف الجميع من خلالها أن بمقدورهم التقرب منك بالأفكار.
- إذا كان لدى أي شخص أفكار أو خطط أفضل من أفكارك فلا تكن دفاعياً.
- حاول تحديد وجهة نظر الأغلبية وإذا كان من المحتمل أنها تدفع الفريق قدماً نحو الأهداف، فاتخذ إجراءً بناء عليها.
- إذا كانت احتمالية القيام بذلك أقل مما قد تفعله فكرتك، فاحرص على امتلاك الشجاعة الأدبية لتوضيح سبب عدم تبنيك لوجهة نظرهم في تلك المناسبة.
- امنح التقدير والثناء للشخص الذي تستخدم فكرته أو خطته.

تأسيس علاقة

- تعرّف على اهتمامات الناس وآمالهم وقلقهم.
- ابحث عن أرضية مشتركة.
- شارك في كل صعوبة تطلب من شعبك أن يتحملها.
- اعمل بجد مثل أعضاء فريقك الأكثر نشاطاً.
- كن متعاطفاً.
- استمع بصدق ولا تقاطع أو تتجادل مع أي شخص.

اختيار الطريقة الصحيحة للتعامل مع أي معارضة

- الاعتماد على الإقناع وليس القوة.
- كن مستعدا لتقديم تنازلات أو التخلي عن أهداف قصيرة الأجل إذا كان ذلك سيعود بفوائد طويلة الأجل أو إذا أصبحت المعارضة في أي وقت أكبر من اللازم.
- كن مستعدًا لممارسة ضغط معقول ومناسب إذا تعذر إقناع أي شخص أو انه لن يقدم تنازلات.

إدارة الأفراد

- أخـتر الأشـخاص المناسـبين مـن خـلال البحـث عـن الـذكاء والشـغف والطاقـة والموثوقيـة.
- افعل ذلك حتى لو كنت لا تحبهم بشكل خاص.
- لا تظهر لأي شخص أنك لا تحبه.
- دربهم على أكمل وجه من خلال القدوة.
- ثق بهم للقيام بمهام متزايدة الصعوبة.
- أخبرهم بما تريده ولماذا، ولكن لا تخبرهم كيف ينبغي أن يفعلوا ذلك.
- كافئهم على الإنجاز.
- اجعـل نجـاح الشـخص في تحمّـل مسـؤولية واحـدة هـو الأسـاس لتلقـي مسـؤولية أكـبر.
- امتدح دائماً علناً.
- التغاضي عن العيوب.
- اغفر للفشل إذا بذل الشخص قصارى جهده.
- لا تقبل ابداً الفساد الأخلاقي.

تسلسل الأحداث

570 ولد محمد في مكة

610 تلقى محمد الوحي الالهي الأول

613 بدأ محمد خدمته العامّة

622 الهجرة: هجرة محمد إلى المدينة المنورة

624 (مارس) معركة بدر

625 (مارس) معركة أحد

627 (مارس-إبريل) معركة الخندق

628 (مارس) صلح الحديبية

628 (إبريل) غزوة خيبر

629 معركة مؤتة

630 (يناير) فتح مكة

630 (فبراير) غزوة حنين

630 (فبراير – مارس) غزوة الطائف

630 (اكتوبر) غزوة تبوك

632 وفاة محمد في المدينة

قائمة المصطلحات

ابن هشام	أبـو محمـد عبـد الملـك بـن هشـام بـن أيـوب الحمـيري مؤلـف السـيرة النبويـة وهـو في الواقـع نبـذة عـن عمـل سـابق لابـن إسـحاق الـذي هـو مفقـود الآن.
أحاديث	"تقارير" أو "مأثورات"، أقوال وممارسات محمد المسجلة.
أمّة	مجتمع.
الأنصار	مواطنـو المدينـة المنـورة الذيـن أووا محمـد والكثـير مـن أتباعـه (المهاجريـن) عندمـا هاجـروا مـن مكـة في عـام 622.
آية	يحتـوي القـرآن الكريـم عـلى أكثـر مـن ٦٠٠٠ أيـة، كل واحده منهـا تسـمى آية.
بيعة	تعهد رسمي بالولاء والطاعة.
حديث	سـجل مكتـوب لمقولـة أو تـصرف منسـوب إلى محمـد تـم نقلـه شـفوياً
خُمس	خمس غنائم الحرب التي كان محمد يستخدمها ويوزعها.
دين	طريقة حياة أو مذهب.
زكاة	ضريبة الصدقة الإجبارية التي يجب على كل مسلم دفعها
سورة	يحتوي القرآن على 114 فصل، كل منها يسمى سورة.
سورة التوبة	السورة التاسعة والأكثر عسكرية في القرآن.
سيرة	السيرة الإسلامية لمحمد.
شورى/ تشاور	يمكـن أن تُشـير إمـا إلى هيئـة استشـارية أو عمليـة طلـب الاستشـارة.
صدقة	عمل خيري.
عصر ميلادي	يتوافـق مـع نظـام المواعـدة المسـيحي المعـروف باسـم بعـد الميـلاد.
عمرة	الحج "الأصغر" إلى مكة.
غطفان	قبيلة عربية كبيرة تعيش في شمال شرق المدينة المنورة.
فقه	الفقه الإسلامي.
قرآن	الكتاب المقدس للإسلام.
قريش	أقوى قبيلة في مكة، ألد أعداء محمد من 610 إلى 630 م.
كعبة	الحرم المقدس في وسط مكة.
الله	الله بالعربية، الإدراك الإلهي الذي يعبده المسلمون

المهاجرين	مسلمو مكة الذين هاجروا إلى الحبشة، ولكن أيضا (على وجه الخصوص) إلى المدينة المنورة
الواقدي	محمد بن عمر الواقدي مؤلف كتاب المغازي تاريخ مبكر لحملات محمد

الحواشي

1. روبرت جي هويلاند، رؤية الإسلام كما يراه الآخرون: مسح للكتابات المسيحية واليهودية والزرادشتية عن الإسلام المبكر (بيسكاتواي، نيوجيرسي: مطبعة جورجياس، طبعة 2019).
2. ديودورس سيكولوس: مخطوطات «بيبليوتيكا تاريخية». على الإنترنت: http://www.tertullian.org/rpearse/manuscripts/
3. رفيق عيسى بيكون وجمال بدوي، القيادة من منظور إسلامي (ماريلاند: أمانة، 1999). نبيل الأعظمي، محمد ﷺ : 11 صفة قيادية غيرت العالم (سوانسي: كتب كلاريتاس، 2019) ؛ جون أدير، قيادة محمد (لندن: كوجان بايج، 2010).
4. أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية (بيروت: المكتبة العصرية، 2012). محمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي (بيروت: مؤسسة العلمي، 1989)؛ محمد بن سعد بن منيع الهاشم، كتاب الطبقات الكبير (كتاب بهافان، طبعة 2009).
5. سنن أبي داود (الرياض: دار الحضارة للنشر والتوزيع، 2015)، ص. 375، الحديث 2928

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)

توجد متغيرات متطابقة تقريبًا في مجموعات الحديث الأخرى، بما في ذلك صحيح مسلم (القاهرة: دار الغد الجديد، 2007)، ص676، حديث 1829:

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، وحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رُمْحٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ

رَعِيَّتِـهِ، وَالرَّجُـلُ رَاعٍ عَـلَى أَهْـلِ بَيْتِـهِ، وَهُـوَ مَسْـئُولٌ عَنْهُـمْ، وَالْمَـرْأَةُ رَاعِيَـةٌ عَـلَى بَيْـتِ بَعْلِهَـا وَوَلَـدِهِ، وَهِـيَ مَسْـئُولَةٌ عَنْهُـمْ، وَالْعَبْـدُ رَاعٍ عَـلَى مَـالِ سَـيِّدِهِ وَهُـوَ مَسْـئُولٌ عَنْـهُ، أَلَا فَكُلُّكُـمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُـمْ مَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ

انظـر أيضـاً جامـع الترمـذي (بـيروت: دار الكتـب العلميـة، 2008)، المجلـد 2، ص 419، الحديـث 1705

حَدَّثَنَـا قُتَيْبَـةُ حَدَّثَنَـا اللَّيْـثُ عَـنْ نَافِـعٍ عَـنْ ابْـنِ عُمَـرَ عَـنْ النَّبِـيِّ ﷺ قَـالَ أَلَا كُلُّكُـمْ رَاعٍ وَكُلُّكُـمْ مَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ فَالْأَمِـيرُ الَّـذِي عَـلَى النَّـاسِ رَاعٍ وَمَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ وَالرَّجُـلُ رَاعٍ عَـلَى أَهْـلِ بَيْتِـهِ وَهُـوَ مَسْـئُولٌ عَنْهُـمْ وَالْمَـرْأَةُ رَاعِيَـةٌ عَـلَى بَيْـتِ بَعْلِهَـا وَهِـيَ مَسْـئُولَةٌ عَنْـهُ وَالْعَبْـدُ رَاعٍ عَـلَى مَـالِ سَـيِّدِهِ وَهُوَ مَسْـئُولٌ عَنْـهُ أَلَا فَكُلُّكُـمْ رَاعٍ وَكُلُّكُـمْ مَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ قَـالَ أَبُـو عِيـسَى وَفِي الْبَـاب عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ وَأَنَـسٍ وَأَبِـي مُـوسَى وَحَدِيـثُ أَبِـي مُـوسَى غَـيْرُ مَحْفُـوظٍ وَحَدِيـثُ أَنَـسٍ غَـيْرُ مَحْفُـوظٍ وَحَدِيـثُ ابْـنِ عُمَـرَ حَدِيـثٌ حَسَـنٌ صَحِيـحٌ.

6. سورة الإسراء رقم (17) الآية (34).

7. سورة الإسراء رقم (17) الآية (36).

8. الأدب المفرد (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004)، ص 306

حَدَّثَنَـا عَمْـرُو بْـنُ خَالِـدٍ قَـالَ: حَدَّثَنَـا بَكْـرٌ، عَـنِ ابْـنِ عَجْـلَانَ، أَنَّ وَهْـبَ بْـنَ كَيْسَـانَ أَخْـبَرَهُ - وَكَانَ وَهْـبٌ أَدْرَكَ عَبْـدَ اللَّـهِ بْـنَ عُمَـرَ- أَنَّ ابْـنَ عُمَـرَ رَأَى رَاعِيًـا وَغَنَمًـا فِي مَـكَانٍ قَبِيـحٍ وَرَأَى مَكَانًـا أَمْثَـلَ مِنْـهُ، فَقَـالَ لَـهُ: وَيْحَـكَ، يَـا رَاعِـي، حَوِّلْهَـا، فَإِنِّـي سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ يَقُـولُ: (كُلُّ رَاعٍ مَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِـهِ)

9. صحيـح البخـاري (القاهـرة: دار الآفـاق العربيـة، 2004)، ص 687-686، الحديـث 3406:

حَدَّثَنَـا يَحْيَـى بْـنُ بُكَـيْرٍ، حَدَّثَنَـا اللَّيْـثُ، عَـنْ يُونُـسَ، عَـنِ ابْـنِ شِـهَابٍ، عَـنْ أَبِـي سَـلَمَةَ بْـنِ عَبْـدِ الرَّحْمَـنِ، أَنَّ جَابِـرَ بْـنَ عَبْـدِ اللَّـهِ رضى اللـه عنهمـا قَـالَ كُنَّـا مَـعَ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ نَجْنِـي الْكَبَـاثَ، وَإِنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ قَـالَ «عَلَيْكُـمْ بِالأَسْـوَدِ مِنْـهُ، فَإِنَّـهُ أَطْيَبُـهُ». قَالُـوا أَكُنْـتَ تَرْعَـى الْغَنَـمَ قَـالَ» وَهَـلْ مِـنْ نَبِـيٍّ إِلاَّ وَقَـدْ رَعَاهَـا».

10. الأدب المفرد ص 404:

حَدَّثَنَـا مُحَمَّـدُ بْـنُ بَشَّـارٍ، قَـالَ: حَدَّثَنَـا مُحَمَّـدُ بْـنُ جَعْفَـرٍ، قَـال: حَدَّثَنَا شُـعْبَةُ،

سَـمِعْتُ أَبَـا إِسْـحَاقَ، سَـمِعْتُ عَبْـدَةَ بْـنَ حَـزْنٍ يَقُـولُ: تَفَاخَـرَ أَهْـلُ الإِبِـلِ وَأَصْحَـابُ الشَّـاءِ، فَقَـالَ النَّبِـيُّ ﷺ: بُعِـثَ مُـوسَى وَهُـوَ رَاعِـي غَنَـمٍ، وَبُعِـثَ دَاوُدُ وَهُـوَ رَاعٍ، وَبُعِثْـتُ أَنَـا وَأَنَـا أَرْعَـى غَنَمًـا لأَهْـلِي بِأَجْيَـادِ.

11.صحيح البخاري، ص 439، حديث 2262:

حَدَّثَنَـا أَحْمَـدُ بْـنُ مُحَمَّـدٍ الْمَكِّيُّ حَدَّثَنَـا عَمْـرُو بْـنُ يَحْيَـى عَـنْ جَـدِّهِ عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ عَـنْ النَّبِـيِّ ﷺ قَـالَ مَـا بَعَـثَ اللَّـهُ نَبِيًّـا إِلَّا رَعَـى الْغَنَـمَ فَقَـالَ أَصْحَابُـهُ وَأَنْـتَ فَقَـالَ نَعَـمْ كُنْـتُ أَرْعَاهَـا عَـلَى قَرَارِيـطَ لِأَهْـلِ مَكَّـةَ

12.صحيح البخاري، ص 662، حديث 3301:

حدثنـا عبـد اللـه بـن يوسـف أخبرنـا مالـك عـن أبـي الزنـاد عـن الأعـرج عـن أبـي هريـرة رضي اللـه عنـه أن رَسـولَ اللَّـهِ ﷺ قـالَ: رَأْسُ الكُفْـرِ نَحْوَ المَـشْرِقِ، والفَخْـرُ والخُيَـلاءُ في أهْـلِ الخَيْـلِ والإِبِـلِ والفَدَّادِيـنَ أهْـلِ الوَبَـرِ، والسَّـكِينَةُ في أهْـلِ الغَنَـمِ.

13. بروانـه بورشريعتـى، تراجـع وسـقوط الإمبراطوريـة الساسـانية: الكونفدراليـة الساسـانية-البارثية والغـزو العربـي لإيـران (لنـدن: آي.بي.تـاوروس، 2008)، ص 207.

14. سنن النسائي (الرياض: دار السلام 1999) ص 730، الحديث 5390:

أَخْبَرَنَـا مُحَمَّـدُ بْـنُ الْمُثَنَّـى، قَـالَ حَدَّثَنَـا خَالِـدُ بْـنُ الْحَـارِثِ، قَـالَ حَدَّثَنَـا حُمَيْدٌ، عَـنِ الْحَسَـنِ، عَـنْ أَبِـي بَكْـرَةَ، قَـالَ عَصَمَنِـي اللَّـهُ بِـشَيْءٍ سَـمِعْتُهُ مِـنْ، رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ لَمَّـا هَلَـكَ كِـسْرَى قَـالَ» مَـنِ اسْـتَخْلَفُوا». قَالُـوا بِنْتَـهُ. قَـالَ» لَـنْ يُفْلِـحَ قَـوْمٌ وَلَّـوْا أَمْرَهُـمُ امْـرَأَةً».

انظر أيضاً صحيح البخاري ص 878، حديث 4425:

حَدَّثَنَـا عُثْمَـانُ بْـنُ الْهَيْثَـمِ، حَدَّثَنَـا عَـوْفٌ، عَـنِ الْحَسَـنِ، عَـنْ أَبِـي بَكْـرَةَ، قَـالَ لَقَـدْ نَفَعَنِـي اللَّـهُ بِكَلِمَـةٍ سَـمِعْتُهَا مِـنْ، رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ أَيَّـامَ الْجَمَـلِ، بَعْـدَ مَـا كِـدْتُ أَنْ أَلْحَـقَ بِأَصْحَـابِ الْجَمَـلِ فَأُقَاتِـلَ مَعَهُـمْ قَـالَ لَمَّـا بَلَـغَ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ أَنَّ أَهْـلَ فَـارِسَ قَـدْ مَلَّكُـوا عَلَيْهِـمْ بِنْـتَ كِـسْرَى قَـالَ «لَـنْ يُفْلِـحَ قَـوْمٌ وَلَّـوْا أَمْرَهُـمُ امْـرَأَةً».

وجامع الترمذي، المجلد 4، ص 263، حديث 2262:

حَدَّثَنَـا مُحَمَّـدُ بْـنُ الْمُثَنَّـى قَـالَ: حَدَّثَنَـا خَالِـدُ بْـنُ الحَـارِثِ قَـالَ: حَدَّثَنَـا حُمَيْـدٌ

الطَّوِيـلُ، عَـنْ الحَسَـنِ، عَـنْ أَبِـي بَكْـرَةَ قَـالَ: عَصَمَنِـي اللَّـهُ بِـشَيْءٍ سَـمِعْتُهُ مِـنْ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ لَمَّـا هَلَـكَ كِـسْرَى، قَـالَ: «مَـنْ اسْـتَخْلَفُوا؟» قَالُـوا: ابْنَتَـهُ، فَقَـالَ النَّبِـيُّ ﷺ: «لَـنْ يُفْلِـحَ قَـوْمٌ وَلَّـوْا أَمْرَهُـمْ امْـرَأَةً»، قَـالَ: فَلَمَّـا قَدِمَـتْ عَائِشَـةُ يَعْنِـي البَـصْرَةَ ذَكَـرْتُ قَـوْلَ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ فَعَصَمَنِـي اللَّـهُ بِـهِ. قـال ابـو عيـسى هـذا حديـث صحيـح.

15. سـورة النمـل 27: 44-22 أمينـة ودود، القـرآن والمـرأة: إعـادة قـراءة النـص المقـدس مـن منظـور المـرأة (نيويـورك: مطبعـة جامعـة أكسـفورد، 1999)، ص 44-29.
16. جوناثـان إيـه سي بـراون، الحديـث: تـراث محمـد في العصـور الوسـطى والعالـم الحديـث (أكسـفورد: ون وورلـد، 2009. طبعـة 2011)، ص 249؛ فاطمـة المرنيـسي، المـرأة والإسـلام: استفسـار تاريخـي ولاهوتـي ترجمتـه مـاري جـو ليكلانـد (أكسـفورد: بلاكويـل، 1987)، ص 76.
17. للاطـلاع عـلى دور المـرأة أثنـاء الحـرب انظـر جويـل هيـوارد، الحصانـة المدنيـة في الفكـر الاسـتراتيجي الإسـلامي التأسـيسي: تحقيـق تاريخـي (عمـان: المركـز الملكـي للدراسـات الاسـتراتيجية الإسـلامية، 2018)، إصـدار خـاص ص 12 - 16.
18. سورة الأنبياء 21: 73
19. سورة السجدة 32: 24
20. سورة التوبة 9: 12
21. سورة القصص 28: 41
22. سورة الأحقاف 46: 12
23. سورة الإنسان 76: 24
24. سورة النساء 4: 59
25. صحيح البخاري، ص 1400، حديث 4584.
26. إدوارد ويليـام لـين، معجـم عربي-إنجليـزي مشـتق مـن أفضـل المصـادر الشرقيـة وأكثرهـا غـزارة (لنـدن: ويليامـز ونورجيـت 1863)، المجلـد. 1، ص 97-95.
27. سورة النساء 4: 64.

28. سورة آل عمران 3: 50.

29. كتاب يوحنا 14.15 ولوقا: (لوقا) 6.46، وفقًا ليوحنا

30. 19–18.18 ديافرم توراة: الأنبياء والكتب المقدسة

31. سورة النساء 4: 80

32. صحيح البخاري، ص 1400، حديث 7137:

حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رضى الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي».

تم العثور على متغيرات مماثلة بشكل لافت للنظر في هذا الحديث في جميع مجموعات الأحاديث السنية الستة المتعارف عليها.

33. سورة النساء 4: 14

34. إبن هشام السيرة النبوية ص 457.

35. سورة آل عمران 3: 152

36. سورة آل عمران 3: 159

37. إيلا لانداو تاسرون، الأسس الدينية للولاء السياسي: دراسة للبيعة في أبحاث الإسلام ما قبل الحداثة، دراسات عن العالم الإسلامي، السلسلة رقم 2، ورقة رقم 4، مايو 2010 (واشنطن العاصمة: معهد هدسون).

38. سورة الفتح 48: 10

39. لانداو تاسرون، ص 6–5.

40. صحيح البخاري، ص 1400، حديث 7202:

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضى الله عنهما قَالَ كُنَّا إِذَا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ يَقُولُ لَنَا « فِيمَا اسْتَطَعْتَ».

وانظر أيضا: صحيح البخاري ص 144، حديث 7204؛ صحيح مسلم ص 690، الحديث 1867؛ سنن ابن ماجه (القاهرة: دار الحديث، 2005)، المجلد 2، ص 537، الحديث 2868؛ سنن النسائي ص 582، حديث 4179.

41. ابن هشام، السيرة النبوية ص 821.

42. مقارن: سنن أبي داود، ص 332، حديث 2626.

43. مقارن: سنن أبي داود، 332، حديث 2626.

44. سنن النسائي، ص 581، حديث 4168.

45. سنن أبي داود، ص 322، حديث 2625.

46. صحيح البخاري، ص 1401، حديث 7145:

حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَلِيٍّ رضى الله عنه قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى. قَالَ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا، فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ فِرَارًا مِنَ النَّارِ، أَفَنَدْخُلُهَا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ».

مقارن: صحيح مسلم، ص 681، حديث 1840

47. سورة الفتح 48: 10

48. فريد دونر، الفتوحات الإسلامية المبكرة (مطبعة جامعة برينستون، 1981)، ص 67.

49. سورة الفتح 48: 19-18

50. محمد نظير كاكا خيل، «التطور المفاهيمي والمؤسسي للشورى في الإسلام المبكر»، الدراسات الإسلامية، المجلد 19، رقم 4 (شتاء 1980)، ص 271-282.

51. سورة الشورى 42: 38

52. سنن ابن ماجه، المجلد 2، ص 325، الحديث 2318 ؛ صحيح البخاري ص 1406، الحديث 7169 ؛ صحيح مسلم ص 928، الحديث 2601أ؛ سنن أبي داود ص 452، الحديث 3583؛ سنن النسائي، ص 738-737، الحديث 5424 .

53. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد الأول، ص 48.

54. المصدر نفسه، ص 53.

55. المصدر نفسه

56. المجلد الثالث، ص 925.

57. سورة النجم 53: 4-3

58. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد الثالث، ص937. ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، المجلد الثاني، ص 196.

59. صحيح البخاري، ص 1212، 1463، أحاديث 6086، 7480.

60. سنن ابن ماجة، المجلد الأول، ص 290-289، حديث 706.

61. سنن أبي داود، ص 69، حديث 498.

62. سنن ابن ماجة، المجلد الأول، ص 290، حديث 707.

63. سنن أبي داود، ص 635، حديث 5128.

64. صحيح البخاري، ص 1432، حديث 7307.

65. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد الأول، ص 56.

66. المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 445

67. المصدر نفسه، المجلد الأول، صفحات 2011-208.

68. المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص 445.

69. ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، المجلد الثاني، ص 81.

70. ابن هشام، السيرة النبوية، الصفحات 748-747. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد الثاني، ص 610.

71. سورة الفتح 48: 1

72. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد الثاني، ص 617.

73. صحيح البخاري، صفحات 97، 786-785، الأحاديث 428، 3932.

74. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 337. مقارن. صحيح البخاري، صفحات 780-779، حديث 3906.

75. سورة الأحزاب 33: 21.

76. صحيح البخاري، صفحات 819-818، حديث 4101

حَدَّثَنَا خَلاَّدُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَيْمَنَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ أَتَيْتُ جَابِرًا رضى الله عنه فَقَالَ إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ«أَنَا نَازِلٌ»ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا،

فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ، فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ أَوْ أَهْيَمَ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِفقُلْتُ لِامْرَأَتِي رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا، مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ قَالَتْ عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ. فَذَبَحْتُ الْعَنَاقَ وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدِ انْكَسَرَ، وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ فَقُلْتُ طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلاَنِ. قَالَ «كَمْ هُو» فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ «كَثِيرٌ طَيِّبٌ» قَالَ«قُلْ لَهَا لاَ تَنْزِعُ الْبُرْمَةَ وَلاَ الْخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ»فَقَالَ «قُومُوا» فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ. قَالَتْ هَلْ سَأَلَكَ قُلْتُ نَعَمْ. فَقَالَ «ادْخُلُوا وَلاَ تَضَاغَطُوا»فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ قَالَ «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ».

77. المصدر نفسه، ومقارن، ابن هشام، السيرة النبوية، ص 672.
78. صحيح البخاري، صفحات 594، 877-874، احاديث 2948، 4418. الواقدي كتاب المغازي، المجلد الثالث، ص 998.
79. المصدر نفسه، المجلد الأول، ص 24.
80. الواقدي كتاب المغازي، المجلد الثالث، ص 998.
81. سورة البقرة 2: 216.
82. الواقدي كتاب المغازي، المجلد الأول، ص 67.
83. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 444.
84. صحيح البخاري، صفحات 588، 991، احاديث 2915، 4875، 4877. صحيح مسلم، ص 645، حديث 1763.
85. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 445.
86. المصدر نفسه، صفحة 445، الواقدي، كتاب المغازي، المجلد الأول، ص 81.
87. صحيح البخاري، ص 560، حيدث 2766. سنن أبي داود، ص 324 حديث 2536. سنن النسائي، صفحات 518، 560، احاديث 3701، 4009.
88. سورة الأنفال 8: 15، 16.

89. ابــن هشــام، الســيرة النبويــة، صفحــات 574-572. الواقــدي، كتــاب المغــازي، المجلـد الأول، ص 243.

90. ابــن هشــام، الســيرة النبويــة، صفحــات 847-846. الواقــدي، كتــاب المغــازي، المجلــد الثالــث، صفحـــات 910-899. صحيـــح البخـــاري، ص 854، احاديـــث 4315، 4317.

91. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد الأول، صفحات 357 358-..

92.الواقدي، كتاب المغازي، المجلد الأول، صفحات 361، 362.

93. ابــن هشــام، الســيرة النبويــة، ص 258. القصــة موجــودة أيضــاً في ســنن أبــي داود، ص 508، حديـث 4078 و جامـع الترمـذي، المجلـد الثانــي، ص 450، حديــث 1784.

94. صحيح مسلم، ص 931، حديث 2609 أ:

حَدَّثَنَـا يَحْيَـى بْـنُ يَحْيَـى، وَعَبْـدُ الأَعْـلَى بْـنُ حَمَّـادٍ، قَـالاَ كِلاَهُمَـا قَـرَأْتُ عَـلَى مَالِـكٍ عَـنِ ابْـنِ شِـهَابٍ، عَـنْ سَـعِيدِ بْـنِ الْمُسَـيَّبِ، عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ قَـالَ «لَيْـسَ الشَّـدِيدُ بِالصُّرَعَـةِ إِنَّمَـا الشَّـدِيدُ الَّـذِي يَمْلِـكُ نَفْسَـهُ عِنْـدَ الْغَضَـبِ».

مقــارن، صحيــح البخــاري، ص 1218، حديــث 6114، وســنن أبــي داود، ص 599، حديــث 4779.

95. صحيــح البخــاري، صفحــات 95، 579 580-، 1436، أحاديــث 420، 2870، 7336. صحيــح مســلم، ص 691، حديــث 1870أ. ســنن أبــي داون، ص 328، حديــث 2575.صحيــح النســائي، ص 506، أحاديــث 3613، 3614.

96. جامع الترمذي، المجلد 2 صفحات 417-416، حديث 1699.

97. صحيــح البخــاري، ص 580، حديــث 2872. قــارن. ســنن النســائي، ص 506، 507، أحاديــث 3618، 3622.

98. جامع الترمذي، المجلد 2، ص 391، حديث 1637:

حَدَّثَنَـا أَحْمَـدُ بْـنُ مَنِيـعٍ، حَدَّثَنَـا يَزِيـدُ بْـنُ هَـارُونَ، أَخْبَرَنَـا مُحَمَّـدُ بْنُ إِسْـحَاقَ، عَـنْ عَبْـدِ اللَّـهِ بْـنِ عَبْـدِ الرَّحْمَـنِ بْـنِ أَبِـي حُسَـيْنٍ، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ قَـالَ «إِنَّ اللَّـهَ لَيُدْخِـلُ بِالسَّـهْمِ الْوَاحِـدِ ثَلاَثَـةً الْجَنَّـةَ صَانِعَـهُ يَحْتَسِـبُ فِي صَنْعَتِـهِ الْخَـيْرَ وَالرَّامِـيَ بِـهِ وَالْمُمِـدَّ بِـهِ» وَقَـالَ «ارْمُـوا وَارْكَبُـوا وَلأَنْ تَرْمُـوا أَحَـبُّ إِلَيَّ مِـنْ أَنْ تَرْكَبُـوا كُلُّ مَـا يَلْهُـو بِـهِ الرَّجُـلُ الْمُسْـلِمُ بَاطِـلٌ إِلاَّ رَمْيَـهُ بِقَوْسِـهِ وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَـهُ

وَمُلاَعَبَتَـهُ أَهْلَـهُ فَإِنَّهُـنَّ مِـنَ الْحَـقِّ».

99. سنن النسائي، ص 505، حديث 3608.

100. صحيح مسلم، ص 705، حديث 1917:

حَدَّثَنَـا هَـارُونُ بْـنُ مَعْـرُوفٍ، أَخْبَرَنَـا ابْـنُ وَهْـبٍ، أَخْبَرَنِـي عَمْـرُو بْـنُ الْحَـارِثِ، عَـنْ أَبِـي عَـلِيٍّ، ثُمَامَـةَ بْـنِ شُـفَيٍّ أَنَّـهُ سَـمِعَ عُقْبَـةَ بْـنَ عَامِـرٍ، يَقُـولُ سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ وَهُـوَ عَـلَى الْمِنْـبَرِ يَقُـولُ «وَأَعِـدُّوا لَهُـمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِـنْ قُـوَّةٍ أَلاَ إِنَّ الْقُـوَّةَ الرَّمْـىُ أَلاَ إِنَّ الْقُـوَّةَ الرَّمْـىُ أَلاَ إِنَّ الْقُـوَّةَ الرَّمْـىُ»

101. جامع الترمذي، المجلد 4، ص 118، حديث 3083.

102. سنن أبي داود، ص 327، حديث 2574:

حَدَّثَنَـا أَحْمَـدُ بْـنُ يُونُـسَ، حَدَّثَنَـا ابْـنُ أَبِـي ذِئْـبٍ، عَـنْ نَافِـعِ بْـنِ أَبِـي نَافِـعٍ، عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ، قَـالَ قَـالَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ « لاَ سَـبْقَ إِلاَّ فِي خُـفٍّ أَوْ فِي حَافِـرٍ أَوْ نَصْـلٍ»

قـارن. أيضـاً جامـع الترمـذي، المجلـد 2، ص 417، حديـث 1700. سـنن النسـائي، ص 506، احاديـث 3615، 3616.

103. صحيـح البخـاري، ص 1242، حديـث 6247، سـنن ابـن ماجـة، المجلـد 3، ص 307، حديـث 3700.

104. صحيح مسلم، ص 841، حديث 3236:

وَحَدَّثَنَـا أَبُـو بَكْـرِ بْـنُ أَبِـي شَـيْبَةَ، حَدَّثَنَـا يَزِيـدُ بْـنُ هَـارُونَ، عَـنْ حَمَّـادِ بْـنِ سَـلَمَةَ، عَـنْ ثَابِـتٍ، عَـنْ أَنَـسٍ، أَنَّ امْـرَأَةً، كَانَ فِي عَقْلِهَـا شَيْءٌ فَقَالَـتْ يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ إِنَّ لِي إِلَيْـكَ حَاجَـةً فَقَالَ«يَـا أُمَّ فُـلاَنٍ انْظُـرِي أَىَّ السِّـكَكِ شِـئْتِ حَتَّـى أَقْضِيَ لَـكِ حَاجَتَـكِ». فَخَـلاَ مَعَهَـا فِي بَعْـضِ الطُّـرُقِ حَتَّـى فَرَغَـتْ مِـنْ حَاجَتِهَـا».

105. صحيح البخاري، ص 1219، حديث 6128:

حَدَّثَنَـا أَبُـو الْيَمَـانِ، أَخْبَرَنَـا شُـعَيْبٌ، عَـنِ الزُّهْـرِيِّ، ح وَقَـالَ اللَّيْـثُ حَدَّثَنِـي يُونُـسُ، عَـنِ ابْـنِ شِـهَابٍ، أَخْبَرَنِـي عُبَيْـدُ اللَّـهِ بْـنُ عَبْـدِ اللَّـهِ بْـنِ عُتْبَـةَ، أَنَّ أَبَـا هُرَيْـرَةَ، أَخْـبَرَهُ أَنَّ أَعْرَابِيًّـا بَـالَ فِي الْمَسْـجِدِ، فَثَـارَ إِلَيْـهِ النَّـاسُ لِيَقَعُـوا بِـهِ فَقَـالَ لَهُـمْ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ «دَعُـوهُ، وَأَهْرِيقُـوا عَـلَى بَوْلِـهِ ذَنُوبًـا مِـنْ مَـاءٍ أَوْ سَـجْلاً مِـنْ مَـاءٍ فَإِنَّمَـا بُعِثْتُـمْ مُيَسِّرِيـنَ، وَلَـمْ تُبْعَثُـوا مُعَسِّرِيـنَ».

106. سنن ابن ماجة، المجلد 1، ص 225–224، حديث 529:

حَدَّثَنَـا أَبُـو بَكْـرِ بْـنُ أَبِـي شَـيْبَةَ، حَدَّثَنَـا عَـلِيُّ بْـنُ مُسْـهِرٍ، عَـنْ مُحَمَّـدِ بْـنِ

عَمْـرٍو، عَـنْ أَبِـي سَـلَمَةَ، عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ، قَـالَ دَخَـلَ أَعْرَابِـيٌّ الْمَسْـجِدَ وَرَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ جَالِـسٌ فَقَـالَ اللَّهُـمَّ اغْفِـرْ لِي وَلِمُحَمَّـدٍ وَلاَ تَغْفِـرْ لأَحَـدٍ مَعَنَـا. فَضَحِـكَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ وَقَـالَ «لَقَـدِ احْتَظَـرْتَ وَاسِـعًا». ثُـمَّ وَلَّى حَتَّـى إِذَا كَانَ فِي نَاحِيَـةِ الْمَسْـجِدِ فَشَـجَ يَبُـولُ. فَقَـالَ الأَعْرَابِـيُّ بَعْـدَ أَنْ فَقِـهَ فَقَـامَ إِلَيَّ بِأَبِـي وَأُمِّي.فَلَـمْ يُؤَنِّـبْ وَلَـمْ يَسُـبَّ. فَقَـالَ» إِنَّ هَـذَا الْمَسْـجِدَ لاَ يُبَـالُ فِيـهِ وَإِنَّمَـا بُنِـيَ لِذِكْـرِ اللَّـهِ وَلِلصَّـلاَةِ». ثُـمَّ أَمَـرَ بِسَـجْلٍ مِـنَ مَـاءٍ فَأُفْـرِغَ عَـلَى بَوْلِـهِ.

107. سنن أبي داود، ص 139، حديث 1109.

108. سنن أبي داود، ص 117، حديث 918:

حَدَّثَنَـا قُتَيْبَـةُ، - يَعْنِـي ابْـنَ سَـعِيدٍ - حَدَّثَنَـا اللَّيْـثُ، عَـنْ سَـعِيدِ بْـنِ أَبِـي سَـعِيدٍ، عَـنْ عَمْـرِو بْـنِ سُـلَيْمٍ الزُّرَقِـيِّ، أَنَّـهُ سَـمِعَ أَبَـا قَتَـادَةَ، يَقُـولُ بَيْنَـا نَحْـنُ فِي الْمَسْـجِدِ جُلُـوسٌ خَـرَجَ عَلَيْنَـا رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ يَحْمِـلُ أُمَامَـةَ بِنْـتَ أَبِـي الْعَـاصِ بْـنِ الرَّبِيـعِ وَأُمُّهَـا زَيْنَـبُ بِنْـتُ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ وَهِـيَ صَبِيَّـةٌ يَحْمِلُهَـا عَـلَى عَاتِقِـهِ فَصَـلَّى رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ وَهِـيَ عَـلَى عَاتِقِـهِ يَضَعُهَـا إِذَا رَكَـعَ وَيُعِيدُهَـا إِذَا قَـامَ حَتَّـى قَـضَى صَلاَتَـهُ يَفْعَـلُ ذَلِـكَ بِهَـا.

109. صحيـح البخـاري، ص 1232، حديـث 6203: صحيـح مسـلم، صفحـات 786–785، حديـث 2150: سـنن ابـن ماجـة، المجلـد 3، ص 314، حديـث 3720.

110. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 338.

111. صحيح البخاري، صفحات 189، 1212، أحاديث 948، 6081.

112. صحيح البخاري، صفحات 26–25، حديث 63.

113. صحيح البخاري، صفحات 299–298، حديث 1491:

حَدَّثَنَـا آدَمُ، حَدَّثَنَـا شُـعْبَةُ، حَدَّثَنَـا مُحَمَّـدُ بْـنُ زِيَـادٍ، قَـالَ سَـمِعْتُ أَبَـا هُرَيْـرَةَ رضى اللـه عنـه قَـالَ أَخَـذَ الْحَسَـنُ بْـنُ عَـلِيٍّ رضى اللـه عنهمـا تَمْـرَةً مِـنْ تَمْـرِ الصَّدَقَـةِ، فَجَعَلَهَـا فِي فِيـهِ، فَقَـالَ النَّبِـيُّ ﷺ «كِـخٍ كِـخٍ لِيَطْرَحَهَـا ثُـمَّ قَـالَ أَمَـا شَـعَرْتَ أَنَّـا لاَ نَـأْكُلُ الصَّدَقَـةَ».

114. ضيـاء الديـن أحمـد، «السياسـات الماليـة للنبـي الكريـم: دراسـة حالـة لتوزيـع الغنيمـة في الإسـلام المبكـر»، الدراسـات الإسـلامية، المجلـد. 14، رقـم1 (ربيـع 1975)، صفحـات 25–9، اصـدار خـاص 10.

قارن، صحيح البخاري صفحات 278، 617، أحاديث 1395، 3072.

115. سورة الأنفال 8: 38

116. صحيح البخاري، ص 626، حديث 3117.

117. ضياء الدين أحمد، «السياسات المالية للنبي الكريم، ص 11.

118. المصدر نفسه، ص 16.

119. صحيح مسلم، ص 642 حديث 1757 أ.

120. صحيح البخاري، صفحات 406، 411، 427، 496، 588، 884، أحاديث 2068، 2096، 2200، 2509، 2916، 4467.

121. صحيح البخاري، صفحات 553، 587، 621، 622، 623، أحاديث 2739، 2912، 3092، 3093، 3096.

122. فريد دونر، محمد والمؤمنين في أصول الإسلام (كامبريدج وماساتشوستس ولندن: مطبعة بيلكناب من مطبعة جامعة هارفارد، 2010). يعتبر إيمان دونر بالسكونية الإسلامية المبكرة أمرا معقولا، وجذابا بشكل قوي، وموثقا بشكل جيد، وربما مبالغا فيه قليلا.

123. مايكل ليكر، دستور المدينة: أول وثيقة قانونية لمحمد (برينستون، نيوجيرسي: داروين، 2004).

124. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 341.

125. المصدر نفسه، ص 342.

126. سنن النسائي، ص 58، حديث 432.

127. سورة الأنبياء 21: 107. الكلمة «للعالمين» تعني حرفياً «العوالم».

128. سورة التكوير 81: 27، سورة الأنبياء 21: 107، انظر أيضاً سورة القلم 68: 52. الكلمة «للعالمين» تعني حرفياً «العوالم».

129. سورة المطففين 83: 6.

130. سورة الأنفال 8:30.

131. سنن أبي داود، صفحات 194 195–، حديث 1510:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ طُلَيْقِ بْنِ قَيْسٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو «رَبِّ أَعِنِّي وَلاَ تُعِنْ عَلَيَّ وَانْصُرْنِي وَلاَ تَنْصُرْ عَلَيَّ وَامْكُرْ لِي وَلاَ تَمْكُرْ عَلَيَّ وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ هُدَاىَ إِلَىَّ وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَىَّ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا لَكَ ذَاكِرًا لَكَ رَاهِبًا لَكَ مِطْوَاعًا إِلَيْكَ مُخْبِتًا أَوْ مُنِيبًا رَبِّ تَقَبَّلْ

تَوْبَتِـــي وَاغْسِـــلْ حَوْبَتِـــي وَأَجِـبْ دَعْوَتِـــي وَثَبِّــتْ حُجَّتِـــي وَاهْــدِ قَلْبِـــي وَسَـــدِّدْ لِسَـــانِي وَاسْـــلُلْ سَـــخِيمَةَ قَلْبِـــي».

132. صحيح البخاري، ص 615، حديث 3060.

133. صحيـــح البخـــاري، صفحـــات 877–874، حديـــث 4418. صحيـــح مســـلم، صفحـــات 984–980، حديـــث 2769 د.

134. صحيح البخاري، ص 300، حديث 1500

قارن ابن هشام، السيرة النبوية ص 74.

135. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، ص 492.

136. ابن هشام، السيرة النبوية ص 543.

137. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، ص 493.

138. مايــكل ليكــر، معاهــدة الحديبيــة والحملــة عــلى خيــبر، دراســات القــدس في اللغــة العربيــة والإســلام، المجلــد 5 (1984)، ص 1–11.

139. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، ص 642.

140. المصدر نفسه، المجلد 2، صفحات 706–707.

141. المصدر نفسه، المجلد 2، ص 684.

142. صحيح البخاري، ص 433، حديث 2235.

143. دونر، الفتوحات الإسلامية المبكرة، ص 64.

145. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 597.

146. أحمــد الشريــف، «مــاذا يمكــن أن تفعــل اســتعارات النبــي محمــد؟» التقــدم في اللغــة والدراســات الأدبيــة، المجلــد 5، ع 5 (أكتوبــر 2018)، ص 78–69.

147. سنن ابن ماجة، المجلد 3، ص 336، حديث 3793.

148. صحيح مسلم، ص 682، حديث 1841.

149. صحيــح البخــاري، صفحــات 1198، 1466، أحاديــث 5987، 7502، جامــع الترمــذي، المجلــد 3، ص 51، حديــث 1909.

150. سنن أبي داود، ص 608، حديث 4875.

151. سنن النسائي، ص 426، حديث 3106.

152. صحيح مسلم، ص 700، حديث 1902

153. صحيــح البخــاري، ص 636، حديــث 3158، صحيــح مســلم، صفحــات 1047–1046، حديــث 2961أ، ســنن ابــن ماجــة، المجلــد 3، ص 417، حديــث

.3997

154. صحيح البخاري، ص 1195، حديث 5971.

155. صحيح البخاري، صفحات 1053، 1164، أحاديث 5146، 5767.

156. صحيح البخاري، ص 599، حديث 2977، صحيح مسلم، صفحات 181 – 182، أحاديث 523أ، 523 ب، سنن النسائي، صفحات 423 424–، حديث .3089

157. لمعرفة تأثير خطب الجمعة التي ألقاها محمد على تطور الشعائر الإسلامية والطقوس الدينية والبلاغة، انظر ليندا ج. جونز، قوة الخطابة في العالم الإسلامي في العصور الوسطى (مطبعة جامعة كامبردج 2012).

158. صحيح البخاري، ص 1302، حديث 6604.

159. صحيح مسلم، ص 705/ حديث 1917.

160. سنن النسائي، ص 565، حديث 4052.

161. سنن أبي داود، ص 460، حديث 3650.

162. صحيح البخاري، صفحات 478–479، حديث 2434، سنن أبي داود ص 459، حديث 3649.

163. سورة الجمعة 62: 9 – 10

164. قارن، صحيح البخاري، صفحات 823 824–، حديث 3211.

165. صحيح البخاري، ص 649، حديث 3211.

166. ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، المجلد 1، ص 440.

167. صحيح البخاري، ص 715، أحاديث 3567، 3568.

168. صحيح البخاري، ص 27، حديث 68، صحيح مسلم، ص 1002، أحاديث 2821أ و ج.

169. صحيح البخاري، ص 32، حديث 90.

170. سنن ابن ماجة، المجلد 1، صفحات 44 - 45، حديث 42.

171. صحيح البخاري، ص 33، حديث 95.

172. صحيح البخاري، ص 1309، حديث 6645.

173. يظهر هنا إعادة تجميع مأخوذة من سجل الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 3، ص 1111 ومن الأحاديث شديدة الاختلاف التي تدل على أجزاء

مــن الخطــاب: صحيــح البخــاري، ص 27-26، 35، 342، 343، 1206، 1334، 1390، -1457 1458، الحديــث 67، 105، 1739، 1741، 1742، 6043، 6785، 7078، 7447؛ ســنن ابــن ماجــه المجلــد 3، ص 73-72، 74، الأحاديــث 055، 3058.

174. المصادر هي نفسها كما في الاقتباس السابق.

175. المصادر هي نفسها كما في الاقتباس السابق.

176. ابن هشام، السيرة النبوية، صفحات 171، 18.

177. المصدر نفسه ص 171.

178. المصدر نفسه صفحات 186 187-.

179. سورة المُدّثر 74: 24 – 25

180. سورة يس 36: 69، انظر أيضاً سورة الأنبياء 21: 5.

181. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 3، ص 957.

182. صحيح مسلم، صفحات 851 852-، حديث 2362.

183. المصدر نفسه المجلد 3، صفحات -956 957.

184. المصدر نفسه، المجلد 3، صفحات -957 958.

185. قارن، صحيح البخاري، ص 858، حديث 4333.

186. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 3، ص 958.

187. المصدر نفسه

188. أبــو جعفــر محمــد بــن جريــر بــن يزيــد الطــبري، تاريــخ الرســل والملــوك (بــيروت: دار صــادر، طبعــة 2008)، المجلــد 1، ص 370.

189. فريــد دونــر «مصــادر المفاهيــم الإســلامية للحــرب» في جــون كيلــسي وجيمس تيرنــر جونســون، منشــورات، الحــرب والجهــاد العــادل: المنظــورات التاريخيــة والنظريــة للحــرب والســلام في التقاليــد الغربيــة والإســلامية (ويســتبورت، سي تــي: جريــن وود للنــشر، 1991) ص 34.

190. الواقــدي، كتــاب المغــازي، المجلــد 2، ص 642. هنــا الخميــس تعنــي الجيــش، انظــر صحيــح البخــاري صفحــات 601، 729، أحاديــث 2991 و 3647.

191. جويــل هيــوارد، سلســلة كتــاب الحــرب في القــرآن باللغــة الإنجليزيــة – الكتاب رقــم 14 (عمــان: المركــز الملكــي للبحــوث والدراســات الإســلامية / مؤسســة آل

البيت للفكر الإسلامي، 2012).

192. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 3، ص 885.

193. جويل هيوارد، الحصانة المدنية في الفكر الاستراتيجي الإسلامي التأسيسي، مرجع سابق. استشهد.

194. سورة الأنفال 8: 60، قارن، صحيح البخاري، ص 599، حديث 2977، صحيح مسلم، ص 965، حديث 2724، سنن النسائي، ص 58 حديث 432.

195. سورة الأنفال 8: 57، «في الحرب» تحتني حرفياً «في الحرب»

196. صحيح البخاري، صفحات 1376 1377–، حديث 6998.

197. صحيح البخاري، ص 874، حديث 4416.

198. صحيح مسلم، ص 965، حديث 27224.

199. سورة النساء 4: 95.

200. سورة محمد 47: 20، سورة التوبة 9: 42، 81، 86، 87 و 93، سورة الأحزاب 33: 18.

201. صحيح البخاري، ص 1392، حديث 7085.

202. صحيح البخاري صفحات 875 877–، حديث 4418، صحيح مسلم، صفحات 980 984–، حديث 2769 د.

203. سنن النسائي، ص 518، حديث 4115.

204. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 1 ص 19.

205. ابن هشام، السيرة النبوية، المجلد 4، صفحات 984.

206. المصدر نفسه ص 985.

207. صحيح مسلم، صف 635، حديث 1731 أ، سنن ابن ماجة، المجلد 2، صفحات –532 533، حديث 2858، جامع الترمذي، المجلد 2، ص 279، حديث 1408.

208. صحيح البخاري، ص 846، حديث 4261.

209. سنن أبي داود، ص 321، حديث 2515، سنن النسائي، ص 585، حديث 4200.

210. سورة المائدة 5: 32.

211. قارن سورة الأنفال 8: 16

212. صحيح البخاري، أحاديث 3027- 3033:

3027 حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «هَلَكَ كِسْرَى ثُمَّ لاَ يَكُونُ كِسْرَى بَعْدَهُ، وَقَيْصَرٌ لَيَهْلِكَنَّ ثُمَّ لاَ يَكُونُ قَيْصَرٌ بَعْدَهُ، وَلَتُقْسَمَنَّ كُنُوزُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

213. 3028 وَسَمَّى الْحَرْبَ خَدْعَةً

3029 حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَصْرَمَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه قَالَ سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ الْحَرْبَ خُدْعَةً.

3033 حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الْفَضْلِ، أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرٍو، سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رضى الله عنهما قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ»

214. صحيح مسلم، ص 637 حديث 1739 – 1740

1739 وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ السَّعْدِيُّ، وَعَمْرٌو النَّاقِدُ، وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، - وَاللَّفْظُ لِعَلِيٍّ وَزُهَيْرٍ - قَالَ عَلِيٌّ أَخْبَرَنَا وَقَالَ الآخَرَانِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ سَمِعَ عَمْرٌو، جَابِرًا يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «الْحَرْبُ خَدْعَةٌ».

1740 وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْمٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ».

215. سنن ابن ماجة، المجلد 2، ص 523، أحاديث 2833 و 2834:

2833 حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ».

2834 حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عَنْ مَطَرِ بْنِ مَيْمُونٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ».

216. سنن أبي داود، صفحات 389-387، أحاديث 2636 و 2637:

2636 حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ».

2637 حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ غَزْوَةً وَرَّى غَيْرَهَا وَكَانَ يَقُولُ «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ» قَالَ أَبُو دَاوُدَ لَمْ يَجِئْ بِهِ إِلاَّ مَعْمَرٌ يُرِيدُ قَوْلَهُ «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ» بِهَذَا الإِسْنَادِ إِنَّمَا يُرْوَى مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ جَابِرٍ وَمِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

217. جامع الترمذي، ص 408، حديث 1675:

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ، وَنَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ، قَالاَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ». قَالَ أَبُو عِيسَى وَفِي الْبَابِ عَنْ عَلِيٍّ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَعَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِ وَكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ. وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

218. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 3، ص 990.

219. المصدر نفسه، المجلد 1، ص 13، ابن هشام، السيرة النبوية، المجلد 2، ص 214.

220. قارن، الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، صفحات 534، 564، 728، 753، 755، 778، المجلد 3، ص 981

221. المصدر نفسه، المجلد 1، ص 342.

222. فريد دونر، «مصادر المفاهيم الإسلامية للحرب»، ص 34 – 35.

223. المصدر نفسه، المجلد 1: ص 299.

224. ابن هشام، السيرة النبوية، المجلد 3، صفحات 389 390–.

225. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 1، ص 338.

226. ابن هشام، السيرة النبوية، المجلد 3، صفحات 590–589.

227. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، صفحات 487–486.

228. المصدر نفسه، المجلد 2، صفحات 489–488.

229. المصدر نفسه، المجلد 2، ص 536.

230. المصدر نفسه، المجلد 2، ص 585.

231. ابن هشام، السيرة النبوية، المجلد 3، ص 359.

232. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، ص 642
233. المصدر نفسه، المجلد 2، ص 796.
234. المصدر نفسه
235. المصدر نفسه
236. المصدر نفسه
237. المصدر نفسه، المجلد 2، ص 814.
238. المصدر نفسه، المجلد 2، ص 758.
239. سورة الحج 22: 40.
240. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 972.
241. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 1، صفحات 146-145، 307-300، المجلد 2، صفحات 365-364، المجلد 3، صفحات 133-129، المجلد 4، صفحات 30، 101.
242. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، صفحات 699 600-.
243. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، صفحات 496-495.
244. صحيح البخاري، ص 32-31، حديث 89.
245. صحيح البخاري، ص 132، حديث 631:
حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، قَالَ حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ أَبِي قِلاَبَةَ، قَالَ حَدَّثَنَا مَالِكٌ، أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ قَالَ «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لاَ أَحْفَظُهَا وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ».
246. صحيح البخاري، ص 602، حديث 2997.
247. صحيح البخاري، ص 813، حديث 4077
248. ابن هشام، السيرة النبوية، المجلد 3، ص 589
249. صحيح البخاري، ص 1280، حديث 6465.
250. صحيح البخاري، ص 1306، حديث 6622:

حَدَّثَنَـا أَبُـو النُّعْمَـانِ، مُحَمَّـدُ بْـنُ الْفَضْـلِ حَدَّثَنَـا جَرِيـرُ بْـنُ حَـازِمٍ، حَدَّثَنَـا الْحَسَـنُ، حَدَّثَنَـا عَبْـدُ الرَّحْمَـنِ بْـنُ سَـمُرَةَ، قَـالَ قَـالَ النَّبِـيُّ ﷺ «يَـا عَبْـدَ الرَّحْمَـنِ بْـنَ سَـمُرَةَ لاَ تَسْـأَلِ الإِمَـارَةَ، فَإِنَّـكَ إِنْ أُوتِيتَهَـا عَـنْ مَسْـأَلَةٍ وُكِلْـتَ إِلَيْهَـا، وَإِنْ أُوتِيتَهَـا مِـنْ غَـيْرِ مَسْـأَلَةٍ أُعِنْـتَ عَلَيْهَـا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَـلَى يَمِـينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَـا خَـيْرًا مِنْهَـا، فَكَفِّـرْ عَـنْ يَمِينِـكَ، وَأْتِ الَّـذِي هُـوَ خَـيْرٌ».

250. قارن، صحيح البخاري، ص 595، حديث 2957.

251. سنن أبي داود، ص 330، حديث 2608:

حَدَّثَنَـا عَـلِيُّ بْـنُ بَحْـرِ بْـنِ بَـرِّيٍّ، حَدَّثَنَـا حَاتِـمُ بْـنُ إِسْـمَاعِيلَ، حَدَّثَنَـا مُحَمَّـدُ بْـنُ عَجْـلاَنَ، عَـنْ نَافِـعٍ، عَـنْ أَبِـي سَـلَمَةَ، عَـنْ أَبِـي سَـعِيدٍ الْخُـدْرِيِّ، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ قَـالَ «إِذَا خَـرَجَ ثَلاَثَـةٌ فِي سَـفَرٍ فَلْيُؤَمِّـرُوا أَحَدَهُـمْ».

252. ابن هشام، السيرة النبوية، صفحات 217 219–.

253. المصدر نفسه صفحات 290–289.

254. المصدر نفسه ص 843.

255. صحيح البخاري، ص 1193، حديث 5964.

256. الواقـدي، كتـاب المغـازي، المجلـد 2، ص 834، صحيـح البخـاري، صفحـات 110، 850، أحاديـث 504، 4289.

257. ابـن هشـام، السـيرة النبويـة، ص 984، الواقـدي، كتـاب المغـازي، المجلـد 2، صفحـات 725–724.

258. الواقـدي كتـاب المغـازي، المجلـد 3، صفحـات 1119–1117، ابـن سـعد، كتـاب الطبقـات الكمبـير، المجلـد 2، ص 312، صحيـح البخـاري، صفحـات 747، 884، 1409، أحاديـث 3730، 4469، 7187، صحيـح مسـلم، ص 874، حديـث 2426أ.

259. صحيح البخاري، ص 1285، حديث 6496:

حَدَّثَنَـا مُحَمَّـدُ بْـنُ سِـنَانٍ، حَدَّثَنَا فُلَيْـحُ بْـنُ سُـلَيْمَانَ، حَدَّثَنَـا هِـلاَلُ بْـنُ عَـلِيٍّ، عَـنْ عَطَـاءِ بْـنِ يَسَـارٍ، عَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ رضى اللـه عنـه قَـالَ قَـالَ رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ «إِذَا ضُيِّعَـتِ الأَمَانَـةُ فَانْتَظِـرِ السَّـاعَةَ».قَالَ كَيْـفَ إِضَاعَتُهَـا يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ قَـالَ «إِذَا أُسْـنِدَ الأَمْـرُ إِلَى غَـيْرِ أَهْلِـهِ، فَانْتَظِـرِ السَّـاعَةَ».

260. قــارن، صحيــح البخــاري، ص 24، حديــث 59، ريــاض الصالحــين، حديــث 1837.

261. صحيــح مســلم، ص675، حديــث 1825، ســنن النســائي، ص 518، حديــث 3697.

262. صحيـــح البخـــاري، صفحـــات 757-756، 138، أحاديـــث 3792، 7057، جامـــع الترمـــذي، المجلـــد 3، ص 177، حديـــث 2189.

263. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، صفحات 755-754.

263. إيــلا لانــداو تاســيرون، «ملامــح جيــش المســلمين قبــل الفتــح في زمــن محمد»، في أفيريــل كامــيرون، محــرر، دراســات في العصــور القديمــة المتأخــرة والإســلام المبكــر: الــشرق الأدنــى البيزنطــي والإســلامي المبكــر،3 (برينســتون نيوجــيرسي: The داروين بــرس، 1995)، ص 299 - 336، خاصــة. ص 317.

264. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، صفحات 741، 750..

265. ابــن هشــام، الســيرة النبويــة، صفحــات 985-984، الواقــدي، كتــاب المغازي، المجلد 2، ص 770.

266. المصدر نفسه، المجلد 2، ص 770

267. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 833.

268. المصــدر نفســه، صفحــات 836-833، الواقــدي، كتــاب المغــازي، المجلــد 3، صفحـــات 876-875.

269. ابــن هشــام، الســيرة النبويــة، ص 835، قــارن صحيــح البخــاري، صفحــات 859، 1410-1409، أحاديــث 7189، 4339، ســنن النســائي، ص 734، حديــث 5407.

270. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 3، ص 892.

271. ابــن هشــام، الســيرة النبويــة، ص 835، قــارن، صحيــح مســلم ص 909، حديـــث 2541أ.

272. سنن أبي داود، ص 337، حديث 2669:

حَدَّثَنَــا أَبُــو الْوَلِيــدِ الطَّيَالِــسِيُّ، حَدَّثَنَــا عُمَــرُ بْــنُ الْمُرَقِّــعِ بْــنِ صَيْفِــيِّ بْــنِ رَبَــاحٍ، حَدَّثَنِــي أَبِــي، عَــنْ جَــدِّهِ، رَبَــاحِ بْــنِ رَبِيــعٍ قَــالَ كُنَّــا مَــعَ رَسُــولِ اللَّــهِ ﷺ فِي غَــزْوَةٍ فَــرَأَى النَّــاسَ مُجْتَمِعِــينَ عَــلَى شَيْءٍ فَبَعَــثَ رَجُــلاً فَقَــالَ «انْظُــرْ عَــلاَمَ

اجْتَمَـعَ هَـؤُلاَءِ» فَجَـاءَ فَقَـالَ عَـلَى امْـرَأَةٍ قَتِيـلٍ. فَقَـالَ «مَـا كَانَـتْ هَـذِهِ لِتُقَاتِـلَ». قَـالَ وَعَـلَى الْمُقَدِّمَـةِ خَالِـدُ بْـنُ الْوَلِيـدِ فَبَعَـثَ رَجُـلاً فَقَـالَ «قُـلْ لِخَالِـدٍ لاَ يَقْتُلَـنَّ امْـرَأَةً وَلاَ عَسِـيفًا».

قـارن، سـنن ابـن ماجـة، المجلـد 2، ص 526، حديـث 2842، صحيـح البخـاري، ص 605، أحاديـث 3014، 3015، صحيـح مسـلم، ص 637، 638، أحاديـث 1744أ، 1744ب.

273. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، ص 722.

274. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 1، صفحات 342، 343.

275. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، ص 728 .

276. سنن أبي داود، ص 453، حديث 3592.

277. صحيـح البخـاري، ص 860، أحاديـث 4341، 4342، ابـن هشـام، السـيرة النبويـة، ص 957.

278. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 1، ص 215.

279. صحيح البخاري، ص 791، أحاديث 3955، 3956.

280. صحيــح البخــاري، صفحــات 599، 743، 839، أحاديــث 2975، 3702، 4209.

281. صحيح البخاري، ص 615، حديث 3063.

282. صحيــح البخــاري، ص 846، حديــث 4262، واللافــت أن هــذا الحديــث المنفـرد يذكـر اسـم خالـد بأنـه «سـيف مـن سـيوف اللـه» العبـارة نفسـها موجـودة في كتــاب المغــازي للواقــدي، المجلـد 3، ص 883.

283. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 881-880.

284. المصدر نفسه ص 982.

285. سنن أبي داود، ص 332، حديث 2627:

حَدَّثَنَـا يَحْيَـى بْـنُ مَعِـينٍ، حَدَّثَنَـا عَبْـدُ الصَّمَـدِ بْـنُ عَبْـدِ الْـوَارِثِ، حَدَّثَنَا سُـلَيْمَانُ بْـنُ الْمُغِـيرَةِ، حَدَّثَنَـا حُمَيْـدُ بْـنُ هِـلاَلٍ، عَـنْ بِـشْرِ بْـنِ عَاصِـمٍ، عَـنْ عُقْبَـةَ بْـنِ مَالِـكٍ، مِـنْ رَهْطِـهِ قَـالَ بَعَـثَ النَّبِـيُّ ﷺ سَرِيَّـةً فَسَـلَحْتُ رَجُـلاً مِنْهُـمْ سَـيْفًا فَلَمَّـا رَجَـعَ قَـالَ لَـوْ رَأَيْـتَ مَـا لاَمَنَـا رَسُـولُ اللَّـهِ ﷺ قَـالَ «أَعَجَزْتُـمْ إِذْ بَعَثْـتُ رَجُـلاً مِنْكُـمْ فَلَـمْ يَمْـضِ لأَمْـرِي أَنْ تَجْعَلُـوا مَكَانَـهُ مَـنْ يَمْـضِي لأَمْـرِي».

286. صحيح البخاري، ص 596، حديث 2964.

287. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 3، ص 873.

288. صحيح البخاري، ص 1428، حديث 7288.

289. جامع الترمذي، المجلد 2، صفحات 287-286، حديث 1424. اختلفت الأراء في مصداقية اسناد هذا الحديث.

290. صحيح البخاري، ص 482، حديث 2442.

291. جامع الترمذي، المجلد 3، ص 90، حديث 2015.

292. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 798.

293. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، ص 613.

294. ابن هشام، السيرة النبوية، صفحات 810-809، الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، صفحات 798-797.

295. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 816، انظروا إلى إعادة كتابة هذه القصة بحذافيرها في صحيح البخاري، ص 849، حديث 4280.

296. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، صفحات 682-681.

297. صحيح مسلم، ص 679، حديث 1833أ، سنن أبي داود، ص 452، حديث 3581.

298. سنن أبي داود، صفحات 377-376، حديث 2946:

حَدَّثَنَا ابْنُ السَّرْحِ، وَابْنُ أَبِي خَلَفٍ، - لَفْظُهُ - قَالاَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنَ الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ - قَالَ ابْنُ السَّرْحِ ابْنُ الأُتْبِيَّةِ - عَلَى الصَّدَقَةِ فَجَاءَ فَقَالَ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي. فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَال «مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَجِيءُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي. أَلاَّ جَلَسَ فِي بَيْتِ أُمِّهِ أَوْ أَبِيهِ فَيَنْظُرَ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لاَ لاَ يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ بِشَىْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ كَانَ بَعِيرًا فَلَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً فَلَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ». ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ ثُمَّ قَالَ «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ».

قارن، صحيح البخاري، صفحات 1407، 1412، أحاديث 7174، 7197، صحيح مسلم، ص 678، حديث 1832

299. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 1، صفحات 305-304.
300. هانز ج. مورغنثاو، السياسة بين الأمم: الكفاح من أجل السلطة والسلام (نيويورك: ألفريد أ.كنوبف، 1948).
301. خليل ابراهيم حناباي، «لقاء النبي محمد بوفد من المسيحيين من نجران وحادثة المباهلة»، الفصلية الإسلامية، المجلد 59، رقم 3 (2015)، ص 314-291
302. ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، المجلد 1، ص 419.
303. ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، المجلد 1، ص 419، سنن أبي داود، ص 389، حديث 3041.
304. ابن هشام، السيرة النبوية، صفحات 411-410، صحيح البخاري، ص 1422، حديث 7254.
305. سنن أبي داود، صفحات 349، 350، أحاديث 2758، 2761.
306. محمود شريف بسيوني، «حماية الدبلوماسيين في ظل الشريعة الإسلامية»، المجلة الأمريكية للقانون الدولي، المجلد 74، ع 3 (يوليو 1980)، ص 633-609.
307. صحيح البخاري، ص 1357، حديث 6914:
حَدَّثَنَا قَيْسُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ، حَدَّثَنَا مُجَاهِدٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا».
308. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، صفحات 604-603.
309. سورة النحل 16: 125
310. سورة طه 20: 44
311. ابن هشام، السيرة النبوية، ص 880.
312. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، صفحات 854، 855.
313. صحيح البخاري، ص 682، حديث 4351، صحيح مسلم، صفحات 353-354، حديث 1064 ب.
314. ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، المجلد 1، صفحات 349، 353، 354، وصفحات أخرى.
315. سورة إبراهيم 14: 37.
316. سورة البقرة 2: 256

317. سورة المائدة 5: 1 انظر أيضاً سورة البقرة 2: 177.

318. الواقدي، كتاب المغازي، المجلد 2، صفحات 780، 795.

319. سورة التوبة 9: 6.

320. فريد دونر، «إمدادات الغذاء في مكة ومقاطعة محمد ،» مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق، المجلد 20، ع 3 (أكتوبر 1977)، ص 249-266.

321. ابن هشام، السيرة النبوية، صفحات 959-958.

322. قارن، جامع الترمذي، المجلد 3، ص 526، حديث 1548 (تم اضافة تأكيدات):

وروى أبو البحتري أن جيشًا من المسلمين، بقيادة سلمان الفارسي، حاصر أحد القادة الفرس. قالوا: يا أبا عبد الله! فقال: دعوني أدعوهم كما سمعت رسول الله صلي يناديهم، فذهب إليهم سلمان وقال: ما أنا إلا رجل منكم، فارسي وأنتم ترون أن العرب يطيعونني. إن أسلمتم فلكم مثل ما لنا، وسيُطلب منك ما هو مطلوب منا. إذا رفضت وحافظت على دينك فنتركك له، وتعطينا جزية من يديك وأنت مطيع. فقالوا: لن نمنحك الجزية. فقالوا: يا أبا عبد الله! فقال: لا، قال: فقام بنفس الدعوة لمدة ثلاثة أيام، ثم قال: هاجموهم، فقال: فهاجمناهم، وقمنا بغزو القلعة».

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ، أَنَّ جَيْشًا، مِنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ أَمِيرَهُمْ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ حَاصَرُوا قَصْرًا مِنْ قُصُورِ فَارِسَ فَقَالُوا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَلاَ نَنْهَدُ إِلَيْهِمْ قَالَ دَعُونِي أَدْعُهُمْ كَمَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوهُمْ. فَأَتَاهُمْ سَلْمَانُ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ فَارِسِيٌّ تَرَوْنَ الْعَرَبَ يُطِيعُونَنِي فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَلَكُمْ مِثْلُ الَّذِي لَنَا وَعَلَيْكُمْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَا وَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ دِينَكُمْ تَرَكْنَاكُمْ عَلَيْهِ وَأَعْطُونَا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ. قَالَ وَرَطَنَ إِلَيْهِمْ بِالْفَارِسِيَّةِ وَأَنْتُمْ غَيْرُ مَحْمُودِينَ. وَإِنْ أَبَيْتُمْ نَابَذْنَاكُمْ عَلَى سَوَاءٍ. قَالُوا مَا نَحْنُ بِالَّذِي نُعْطِي الْجِزْيَةَ وَلَكِنَّا نُقَاتِلُكُمْ. فَقَالُوا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَلاَ نَنْهَدُ إِلَيْهِمْ قَالَ لاَ. فَدَعَاهُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلَى مِثْلِ هَذَا ثُمَّ قَالَ انْهَدُوا إِلَيْهِمْ. قَالَ فَنَهَدْنَا إِلَيْهِمْ فَفَتَحْنَا ذَلِكَ الْقَصْرَ. قَالَ وَفِي الْبَابِ عَنْ بُرَيْدَةَ وَالنُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ وَابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ. وَحَدِيثُ سَلْمَانَ حَدِيثٌ حَسَنٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ

عَطَـاءِ بْـنِ السَّـائِبِ. وَسَـمِعْتُ مُحَمَّـدًا يَقُـولُ أَبُـو الْبَخْـتَرِيِّ لَـمْ يُـدْرِكْ سَـلْمَانَ لأَنَّـهُ لَـمْ يُـدْرِكْ عَلِيًّـا وَسَـلْمَانُ مَـاتَ قَبْـلَ عَـلِيٍّ. وَقَـدْ ذَهَـبَ بَعْـضُ أَهْـلِ الْعِلْـمِ مِـنْ أَصْحَـابِ النَّبِـيِّ ﷺ إِلَى هَـذَا وَرَأَوْا أَنْ يُدْعَـوْا قَبْـلَ الْقِتَـالِ وَهُـوَ قَوْلُ إِسْـحَاقَ بْـنِ إِبْرَاهِيـمَ قَـالَ إِنْ تُقُـدِّمَ إِلَيْهِـمْ فِي الدَّعْـوَةِ فَحَسَـنٌ يَكُـونُ ذَلِـكَ أَهْيَـبَ. وَقَـالَ بَعْـضُ أَهْـلِ الْعِلْـمِ لاَ دِعْـوَةَ الْيَـوْمَ. وَقَـالَ أَحْمَـدُ لاَ أَعْـرِفُ الْيَـوْمَ أَحَـدًا يُدْعَـى. وَقَـالَ الشَّـافِعِيُّ لاَ يُقَاتَـلُ الْعَـدُوُّ حَتَّـى يُدْعَـوْا إِلاَّ أَنْ يَعْجَلُـوا عَـنْ ذَلِـكَ فَـإِنْ لَـمْ يَفْعَـلْ فَقَـدْ بَلَغَتْهُـمُ الدَّعْـوَةَ».

323. صحيح مسلم، ص 635، حديث 1731 أ، ب.

324. المصدر نفسه، ص 960.

325. مارتن فان كريفيلد، القيادة في الحرب (كامبريدج، ماساتشوستس: مطبعة جامعة هارفارد، 1985)، ص. 64

326. جامع الترمزي، المجلد 3، ص 333، حديث 2517.

قائمة المراجع

مجموعات الحديث

- صحيح البخاري (القاهرة: دار الآفاق العربية، 2004)
- صحيح مسلم (القاهرة: دار الغد الجديد، 2007)
- سنن أبو داود (الرياض: دار الحضارة للنشر والتوزيع، 2015).
- سنن ابن ماجة (القاهرة: دار الحديث، 2005).
- سنن النسائي (الرياض: دار السلام، 1999).
- جامع الترمذي (بيروت: دار الكتب العلمية، 2008)
- الأدب المفرد (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004).

أعمال أخرى

- أدير، جون، قيادة محمد (لندن: كوجان بايج، 2010)
- أحمد، ضياء الدين، «السياسات المالية للنبي الكريم: دراسة حالة لتوزيع الغنيمة في الإسلام المبكر»، الدراسات الإسلامية، المجلد. 14، رقم 1 (ربيع 1975).
- الأعظمي، نبيل، محمد: 11 صفة قيادية غيرت العالم (سوانزي: كلاريتاس بوكس، 2019).
- الواقدي، كتاب المغازي (بيروت: مؤسسة العلمي، 1989).
- بيسوني، م، شريف، «حماية الدبلوماسيين في ظل الشريعة الإسلامية»، المجلة الأمريكية للقانون الدولي، المجلد 74، العدد 3 (يوليو 1980)، صفحات 609-633.
- بيكون ورفيق عيسى وجمال بدوي، القيادة من منظور إسلامي (ماريلاند: أمانة، 1999).
- براون، جوناثان إيه سي، الحديث: تراث محمد في العصور الوسطى والعالم الحديث (أكسفورد: ون وورلد، 2009. طبعة 2011).
- دونر، فريد، «إمدادات الغذاء في مكة ومقاطعة محمد ،» مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق، المجلد20، العدد 3 (اكتوبر 1977)، ص 249-266.

- محمـــد والمؤمنـــون في أصـــول الإســـلام (كامبريـــدج وماساتشوســـتس ولنـــدن: مطبعـــة بيلكنـــاب مـــن مطبعـــة جامعـــة هارفـــارد، 2010).
- الفتوحات الإسلامية المبكرة (مطبعة جامعة برينستون، 1981).
- «مصـــادر المفاهيـــم الإســـلامية للحـــرب» في جـــون كيلســـاي وجيمـــس تورنـــر جونســـون، محـــرران ،الحـــرب العادلـــة والجهـــاد: وجهـــات نظـــر تاريخيـــة ونظريـــة حـــول الحـــرب والســـلام في التقاليـــد الغربيـــة والإســـلامية (ويســـتبورت، كونيتيكـــت: مطبعـــة غرينـــوود، 1991)، ص 69-31.
- الشريـــف، أحمـــد، «مـــا الـــذي يمكـــن أن تفعلـــه الاســـتعارات النبويـــة؟" التقـــدم في الدراســـات اللغويـــة والأدبيـــة، المجلـــد. 5، عـــدد 5 (أكتوبـــر 2018)، ص 78-69.
- هانشـــباي، خليـــل إبراهيـــم، «لقـــاء النبـــي محمـــد بوفـــد مـــن المســـيحيين مـــن نجـــران وحادثـــة المباهلـــة»، الفصليـــة الإســـلامية، المجلـــد59، رقـــم 3 (2015)، ص 291-314.
- هيـــوارد، جويـــل، الحصانـــة المدنيـــة في الفكـــر الاســـتراتيجي الإســـلامي التأســـيسي: تحقيـــق تاريخـــي (عمـــان: المركـــز الملكـــي للبحـــوث والدراســـات الإســـلامية، 2016).
- سلســـلة كتـــاب الحـــرب في القـــرآن باللغـــة الإنجليزيـــة - الكتـــاب رقـــم 14 (عمـــان: المركـــز الملكـــي للبحـــوث والدراســـات الإســـلامية/ مؤسســـة آل البيـــت للفكـــر الإســـلامي، 2012).
- هويلانـــد، روبـــرت ج، رؤية الإســـلام كمـــا رآه الآخـــرون: مســـح للكتابات المســـيحية واليهوديـــة والزرادشـــتية عـــن الإســـلام المبكـــر (بيســـكاتواي، نيوجـــيرسي: مطبعـــة جورجياس، طبعـــة 2019).
- ابن هشام، السيرة النبوية (بيروت: المكتبة العصرية، 2012)
- ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير (كتاب بهافان، طبعة 2009)
- لينـــدا ج. جونـــز، قـــوة الخطابـــة في العالـــم الإســـلامي في العصـــور الوســـطى (مطبعـــة جامعـــة كامبريـــدج، 2012).
- لانـــداو تـــاسرون، إيـــلا، «ملامـــح جيـــش المســـلمين قبـــل الفتـــح في زمـــن محمـــد ،» في أفيريـــل كامـــيرون، محـــرر، دراســـات في العصـــور القديمـــة المتأخـــرة والإســـلام المبكـــر: الـــشرق الأدنـــى البيزنطـــي والإســـلامي المبكـــر، 3 (برينســـتون) نيوجيرسي: داروىـــن بـــرس، 1995)، الصفحـــات 336-299، بشـــكل خـــاص. ص 317.
- الأســـس الدينيـــة للـــولاء الســـياسي: دراســـة للبيعـــة في دراســـة بحثيـــة عـــن الإســـلام

قبل الحداثة دراسات حول العالم الإسلامي، السلسلة رقم 2، الورقة رقم 4، مايو 2010 (واشنطن العاصمة: معهد هدسون).

- لين، إدوارد ويليام، معجم عربي-إنجليزي مشتق من أفضل المصادر الشرقية وأكثرها غزارة (لندن: ويليامز ونورجيت 1863).
- ليكير، مايكل، دستور المدينة المنورة: وثيقة محمد القانونية الأولى (برينستون، نيوجيرسي: داروين، 2004)
- معاهدة الحديبية والحملة على خيبر «دراسات القدس في العربية والإسلام، المجلد. 5 (1984)، ص 11-1.
- المرنيسي، فاطمة، المرأة والإسلام: مغزى تاريخي ولاهوتي ترجمته ماري جو ليكلاند (أكسفورد: بلاكويل، 1987).
- مورغنثاو، هانز جيه، السياسة بين الأمم: النضال من أجل السلطة والسلام (نيويورك: ألفريد أ.كنوبف، 1948).
- نظير كا خيل محمد، التطور المفاهيمي والمؤسسي للشورى في الإسلام المبكر، الدراسات الإسلامية، المجلد 19، رقم 4 (شتاء 1980)، ص 282-271.
- بورشرياتي، بارفاني، تراجع وسقوط الإمبراطورية الساسانية: الكونفدرالية الساسانية-البارثية والغزو العربي لإيران (لندن: آي.بي.تاوروس، 2008).
- فان كريفيلد، مارتن، القيادة في الحرب (كامبريدج، ماساتشوستس: هارفارد مطبعة الجامعة، 1985).
- ودود، أمينة، القرآن والمرأة: إعادة قراءة النص المقدس من منظور المرأة (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 1999).

الفهرس

هذا الكتاب

نظراً إلى التأثير الهائل للنبي الإسلاميّ محمد على التاريخ ، إلا أنه ومن المدهش وجود عدد قليل فقط من الكتب التي تُحلل قيادته على وجه التحديد القّلة التي وجدت تؤكد أنّ محمداً كان قائداً رائعاً لأنه كان رجلاً رائعاً. أي أنه نجح في مهمته بسبب أخلاقه العالية وصفاته الشخصية.

ويرى البروفيسور جويل هيوارد أنّ هذا التفسير غير كامل وغير كافٍ تقريباً. إلا انه لا يختلف في أنّ محمداً كان رجلاً ذو أخلاقٍ عالية. ومع ذلك، فقد اقترب من قيادة النبيّ من وجهة نظرٍ مختلفة. فقد قام بفحص وتدقيق أقدم المصادر العربية بشكلٍ حيادي وفقاً للمعايير الصارمة للتحقيق التاريخي من أجل التأكد فيما إذا كانت أفعال محمد الواعية وسلوكه وأساليبه يُمكن أن تُوفر أي رؤى جوهريّة وهادفة حول فعاليّة قيادته الاستراتيجية. ويخلص هيوارد إلى أن محمداً كان رجلاً ذكياً بشكلٍ غير مألوف، ومُدركاً للأوضاع من حوله، ولديه القدرة على إنشاء وإيصال رؤية إستراتيجية معقولة لمستقبلٍ حتميّ ومرغوب. وعندما ترسخت بصيرته المتسمة بالذكاء العاطفي والمهارة والقيادة العملية جداً، استطاعت هذه الرؤية المترابطة بذكاء أن تُقنع أعداداً متزايدة من الناس باتباعه، وبالمخاطرة بكل شيء عن طيب خاطر للنضال من أجل تحقيق العالم الجديد الجريء الذي توقعه.

يوضح هيوارد من خلال تحليل أصليّ ودقيق قام به بدقة أن محمداً كان "قائداً فعّالاً للغاية". يُقدم هذا الكتاب المثير للاهتمام والمتاح، والذي يتسم بأنه ذو عمق علميّ، مساهمة كبيرة في كل من دراسات القيادة والسيرة النبوية.

"إنّ قيادة محمد تُشكل مصدراً عظيماً للمعرفة عن محمد وبداية الإسلام. والواقع أنه فضلاً عن كون الكتاب غنيّ بالمعلومات التاريخية، إلا أنه يُقدم دروساً قيّمة حول القيادة القادرة على مساعدة قادة العالم وصُنّاع القرار والمدرسين والأشخاص من مختلف مناحي الحياة على التواصل والقيادة بشكلٍ أفضل. العديد من صفات القيادة الجديرة بالملاحظة تم إستخلاصها من خصال النبي محمد، تلك الخصال التي لا يزال للكثير منها تأثيره حتى يومنا هذا".

سان فرانسيسكو ريفيو أوف بوكس

الشروق
دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان- الأردن / رام الله- فلسطين
Email: shorokpa@gmail.com
shorokpr@palenet.com
www.shorok.com